جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

ذاكرة المكان في الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم: نماذج منتقاة (دراسة تحليلية وصفية)

إعداد
خليل كمال "محمّد سعيد" شعبلّو

إشراف
د. غانم دياب مزعل

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها، من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس–فلسطين.

2024

ذاكرة المكان في الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم: نماذج منتقاة (دراسة تحليلية وصفية)

إعداد

خليل كمال "محمّد سعيد" شعبلّو

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2024/11/12، وأجيزت:

د. غانم مزعل	التوقيع
المشرف الرئيسي	
د. محمد حمد	التوقيع
الممتحن الخارجي	
د. نادر قاسم	التوقيع
الممتحن الداخلي	

الإهداء

إلى أرواح الشّهداء الّذين رووا بدمائهم الطّاهرة أرض الوطن..

إلى الجرحى الّذين يكابدون الألم والحَزَن..

إلى الأسرى في سجون الاحتلال على مرّ الزّمن..

إلى أمي وأبي الغاليين اللذين وقفا معي وساندني دومًا وكانا لي عونًا..

إلى أخي الغالي وأخواتي اللاتي دعمنني..

إلى عائلتي كافّة..

إلى أساتذتي ومعلّميّ في المدرسة وفي الجامعة..

إلى أصدقائي وأحبّائي..

إلى كلّ حرٍّ شريف في قلبه حبّ الوطن..

الشّكر والتّقدير

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾[الأنعام: 1].

اللهمّ لك الحمد كلّه، ولك الشكر كلّه، وإليك يرجع الأمر كلّه علانيته وسرّه، فأهل أنت أن تحمد، وأهل أنت أن تعبد، وأنت على كلّ شيءٍ قدير، فالحمد لله الذي منّ عليّ بإنجاز الأطروحة الجامعيّة لنيل درجة الماجستير، وما كنت لأوفَّق لولا أن وفقني الله.

ومهما وصل الإنسان في نجاحه، لا بد أن يكون هناك من سانده ودعمه وساعده لتحقيق حلمه، وكان له عونًا في طريقه، فوجب عليّ أن أشكر الدكتور غانم مزعل الذي أشرف على أطروحتي ولم يبخل في نصحي وإرشادي، وأشكر الدكتور نادر قاسم الذي له فضل كبير في إتمامي لرسالتي، وأشكر كل من كان له يد في نجاحي ومساندتي لتحقيق حلمي.

وأخيرًا، اللهمّ لك الحمد حتّى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرّضا.

إقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

ذاكرة المكان في الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم: نماذج منتقاة (دراسة تحليلية وصفية)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة، إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها، لم يقدم من قبل لنيل أية درجة علمية، أو لقب علمي أو بحثي، لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: **خليل كمال "محمّد سعيد" شعبلّو**

التوقيع: خليل شعبلّو

التاريخ: **2024/11/12**

فهرس المحتويات

الإهداء ..... ج
الشّكر والتّقدير ..... د
إقرار ..... هـ
فهرس المحتويات ..... و
فهرس الجداول ..... ح
الملخص ..... ط
المقدمة 1
الفصل الأوّل: الأدب الفلسطيني والأدب العبري المترجم: المراحل والتطور 7
1.1 تحديد مصطلح الأدب 7
1.2 الأدب الفلسطينيّ – مراحله وتطوّره 7
1.3 الأدب العبريّ – مراحله وتطوّره: 13
الفصل الثّاني: المكان وتحولاته في السّرد 17
2.1 مفهوم المكان (Place) 17
2.1.1 المكان لغة 17
2.1.2 المكان اصطلاحًا 18
2.2 مفهوم الفضاء (Space) 21
2.2.1 الفضاء لغة 22
2.2.2 الفضاء اصطلاحًا 22
2.3 مفهوم الحيّز (Setting) 25
2.3.1 الحيّز لغة 26
2.3.2 الحيّز اصطلاحًا 26
2.4 مفهوم المكان في الرواية 29
2.5 تاريخ المكان 31
2.6 العلاقة بين المكان والزمان 33
2.7 العلاقة بين المكان والشخصيات 36
2.8 العلاقة النفسية بالمكان 39
2.9 جماليات المكان 41
2.10 ذاكرة المكان الفلسطيني 42
2.11 الصراع على المكان بين الفلسطينيين وإسرائيل 48

الفصل الثّالث: المكان في الرّواية 51
3.1 رواية "برج اللّقلق" 51
1.1.1 ملخص الرواية 53
3.1.2 ذاكرة المكان في الرواية 55
3.1.3 مدينة القدس 56
3.1.4 المكان الرئيس (برج اللقلق) 57
3.1.5 أماكن أخرى داخل مدينة القدس 59
3.1.6 أماكن أخرى في فلسطين 62
3.1.7 دول عربية وأجنبية 64
3.1.8 دراسات أخرى في الرواية 66
3.2 رواية (الطريق إلى عين حارود) 73
3.2.1 ملخص الرواية 75
3.2.2 ذاكرة المكان في الرواية 76
3.2.3 دراسات أخرى في الرواية 92
الفصل الرّابع: المكان في الشّعر 111
4.1 قصيدة (الحب والجيتو) للشاعر راشد حسين 111
4.1.1 التعريف بالشاعر 111
4.1.2 ذاكرة المكان في القصيدة 112
4.2 قصيدة (هذي القرى الخالية) للشاعر ألموج بيهار 129
4.2.1 التعريف بالشاعر 130
4.2.2 ذاكرة المكان في القصيدة 131
الخاتمة 140
قائمة المصادر والمراجع 145
Abstract ..... B

فهرس الجداول

الجدول (1): صفات المكان كما قدمها الباحث محمد بو عزة.....20

الجدول (2): تصنيف الأماكن الواردة في قصيدة راشد حسين حسب دلالتها..... 129

الجدول (3) تصنيف الأماكن التي وردت في قصيدة "هذه القرى الخالية" حسب دلالتها..... 136

ذاكرة المكان في الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم: نماذج منتقاة (دراسة تحليلية وصفية)

إعداد

خليل كمال شعبلو

إشراف

د. غانم مزعل

الملخص

تدور الدراسة حول ذاكرة المكان الفلسطيني في الأدبين الفلسطيني والعبري المترجم، ولعل أهميتها تنبع من كون موضوعها يحمل أبعادًا وطنية وثقافية وغيرها، إضافة إلى الاهتمام الواسع في دراسة المكان في الأعمال الأدبية، وعدم وجود دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع، حيث تحاول الدراسة تسليط الضوء عليه وإخراجه إلى النور أمام الدارسين والباحثين.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن صورة المكان في الأدب الفلسطيني والأدب العبري المترجم، وملاحظة المكان وذاكرته في أدب كل منهما، وكيف يشكلان المكان من الذاكرة الجمعية، إضافة إلى أهداف أخرى وطنية وثقافية وإنسانية.

لقد اتبع الباحث في الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لدراسة الذاكرة المكانية في الأدبين، عن طريق تتبع الذاكرة المكانية في عملين مختارين من كل أدب منهما، ثم دراسة العمل الأدبي وتتبع الذاكرة المكانية فيه ووصفها وتحليلها والخروج بالنتائج في نهاية الدراسة، واشتملت الدراسة على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

تناول الباحث في المقدمة موضوع الأدب وارتباطه بالإنسان، وتطرق للحديث عن ارتباط الفلسطيني بأرضه وصراعه مع المحتل الصهيوني عليها.

الفصل الأول: يتحدث عن الأدب الفلسطيني والأدب العبري المترجم ومراحلهما وتطورهما.

الفصل الثاني: يتناول موضوع المكان وتحولاته في السرد والفرق بينه وبين الفضاء والحيز، وأنواع المكان، وعلاقته مع الشخصيات وغيرها من عناصر السرد الأخرى.

الفصل الثالث: يتناول روايتين إحداهما من الأدب الفلسطيني وهي رواية "برج اللقلق" لديمة جمعة السمان، والأخرى من الأدب العبري المترجم وهي رواية "الطريق إلى عين حارود" لعاموس كنان.

الفصل الرابع: يتناول قصيدتين، إحداهما من الأدب الفلسطيني، وهي قصيدة "الجب والجيتو" لراشد حسين، والأخرى من الأدب العبري المترجم، وهي قصيدة "هذي القرى الخالية" لألموج بيهار، وبهذا الشكل جاء ترتيب فصول الدراسة.

ثم أورد الباحث خاتمة شملت أهم النتائج والاستنتاجات التي خلصت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الأدب الفلسطيني، الأدب العبري، الأدب العبري المترجم، المكان، الفضاء، الحيز، ذاكرة، جماليات.

المقدمة

يعد الأدب من أهم الأمور التي تربط الإنسان بواقعه، ويستمد أهميته من كونه يصف الواقع ويضيف إليه، ويقدم الأدب للقارئ المتعة المعمقة، إضافة إلى التجارب والخبرات، والتي تتمثل في إغناء حياته على الصعيد الروحي، والمعنوي، وتهذيبه، وتعليمه.

والأدب مرآة لكل زمان ومكان، فهو يعكس الصورة الواقعية ويضيف عليها؛ كي تخرج متألقة تحمل في طياتها التجارب والعبر، ولعل الأدب من أصدق مصادر المعرفة عن الناس وشؤونهم وأحوالهم عبر الأزمان، وإن النص الأدبي له فائدة تتمحور في كونه نص يجمع بين أساليب الكتابة المبدعة، والصيغ والتراكيب الجمالية البارعة، التي تحمل القارئ من عالم إلى آخر، ولا تقتصر مهمة الأدب في نقل المعارف والخبرات والواقع إلى القارئ فحسب، بل يجب عليه أن يصل إلى أحاسيس المتلقي ومشاعره، ويحاول الاتصال بها، والتأثير عليها؛ كي يحقق مهمته الأسمى في مخاطبة العقل والوجدان معًا.

يعيش الإنسان في عالم يتّصف ببعدين أساسيّين، هما: الزّمان والمكان، ففي هذين البعدين يعيش الإنسان وينمو، ويتطوّر.

والمكان تاريخيّا موجود قبل أن يُخلق الإنسان، والإنسان بوجوده وكينونته في المكان يعيد تصويره وهيكليّته وتحويله إلى أشكال مختلفة تلائم احتياجاته الحياتيّة، والثّقافيّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة.

يكتسب المكان فى الرواية أهميّة كبيرة، ليس لأنّه أحد عناصرها الفنّيّة فحسب، أو لأنّه المكان الّذي تدور فيه الأحداث، وتتحرّك خلاله الشّخوص فقط، بل لأنّه ينتقل فى بعض الأعمال المميّزة من كونه عنصرًا روائيًّا فقط إلى فضاء يحتوي كلّ العناصر الرّوائيّة، بما فيها من أحداث وشخوص، وما بينها من علاقات، ويوفر لها الجوّ المناسب الّذي تحتاجه لتتفاعل فيه، ولتعبّر كلّ شخصيّة عن وجهة نظرها، وعمّا يجول

بخاطرها من أفكار ونظريّات –في أغلب الأحيان– تعكس فكر الكاتب، وأراءه، على الرغم من كونه عنصرًا ثانويًّا في بعض الروايات.

ولا شكّ من الاتفاق على أنّ المكان في الرّواية ليس المكان عينه في الواقع، حتّى لو صرّح الأديب بأنّ المكان في العمل الأدبيّ هو نفسه المكان الواقعيّ؛ وذلك لأنّ المكان في العمل الأدبيّ يحمل فكرة الكاتب، وأحاسيسه، وعواطفه، وتخيّلاته، وتنعكس الصّورة الذّهنيّة الّتي يتخيّلها الكاتب للمكان في الرّواية، فلا يمكن للكاتب ألّا يسقط تخيّلاته على العمل الأدبيّ، وهذه التّخيّلات لا تكون واقعيّة، ولا تفسد المكان الواقعيّ؛ لأنّها –في كثير من الأحيان– تضفي عليه رونقًا وجمالًا مميّزًا.

وفي صعيد الرّواية بين الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ، فلا بدّ لنا أن نتذكّر أنّ الاحتلال الصّهيونيّ يشكل تهديدًا كبيرًا للأرض الفلسطينيّة، فهو يحاول تهويدها بشتى الطّرق والأساليب، ومنها قيامه بجلب الأشجار الأوروبية وزراعتها على أنقاض القرى المهجرة؛ لمحو آثار المدينة والقرية الفلسطينية، كأشجار السرو، والصنوبر، والكينا، وهي ليست أشجار لها وجود وحضور في الفضاء الفلسطيني، بل حضورها كان في الفضاء اليهودي الصهيوني، الذي جاء أصحابه من أوروبا، وبوجوده يصبح المكان أكثر ألفة عندهم، وهذا ما جعل ارتباط الفلسطينيّ بأرضه يكون متأصّلًا ومتأجّجًا، والحروب مع المحتلّ كانت من أجل المكان ومن أجل هذه الأرض الفلسطينيّة، الّتي تنتمي لنا وننتمي لها.

ولا شكّ أنّ المكان يشكّل أهميّة كبيرة لدى أبنائه، فالأرض الفلسطينيّة مقدّسة عند أبنائها، وتشكّل منبع الأحاسيس والمشاعر لديهم، فالإنسان مرتبط بالمكان الّذي ولد وترعرع فيه، وهو الهويّة الّتي ينتمي إليها أبناؤه.

إنّ الفلسطينيّ في جهاده ومقاومته ومقارعته للمحتلّ الصّهيونيّ، لم يترك وسيلة إلّا واتّبعها من أجل تحقيق هدفه في الدّفاع عن الأرض الفلسطينيّة، فقاوم بالسّلاح، وبالقلم، ولا أحد منّا ينكر دور القلم في المقاومة، وفي شحذ الهمم، فقد شكّل سميح القاسم، وراشد حسين، ومحمود درويش، وتوفيق زيّاد ما اصطلح على

تسميته (أدب المقاومة)، حيث لاحقتهم القوات الصّهيونيّة، وسجنتهم عدّة مرات، ما يثبت أهميّة هذا الأدب، ودور القلم في مصارعة المحتلّ، حيث بدأ شعراء العالم العربي يقولون لا شعر إلا في الأرض المقدسة.

تقوم فكرة الأطروحة على دراسة نماذج مختارة من الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم، وعقد مقارنة بين حضور المكان أو الفضاء عند الأديب الفلسطينيّ، وحضور المكان عند الأديب العبريّ، واستنتاج الفروق بينهما، ورسم صورة للمكان من وجهة نظر كلا الأديبين.

إنّ الأعمال الأدبيّة العبريّة الّتي تناولتها هذه الدّراسة كانت مترجمة للعربيّة، والدراسة لها كانت مبنيّة على النّسخة المترجمة منها إلى العربيّة، وأيّ خطأ في التّرجمة يعود للمترجم الّذي ترجم العمل الأدبيّ، فالدراسة تناولت النّسخ المترجمة المتوفّرة من هذه الأعمال.

أسباب اختيار الدّراسة:

يعود اختيار هذا الموضوع دون غيره لأسباب، منها:

- ما أثاره هذا الموضوع في نفس الباحث من فضول لمعرفة الفرق بين المكان في الأدبين.
- عدم وجود دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع.
- الأبعاد الثّقافيّة والوطنيّة الّتي يحملها الموضوع، إضافة إلى أبعاد أخرى.
- الاهتمام الكبير بدراسة المكان في الأعمال الرّوائيّة.
- انتاج دراسة تسلّط الضّوء على هذا الموضوع، وتترك بصمة يعود إليها الكتّاب من بعد.

أسئلة أو فرضيّات الدّراسة:

تكمن مشكلة الدّراسة في عدم وجود دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع، وسعى الباحث في هذه الدّراسة إلى تسليط الضّوء على هذا الموضوع، ويتمنى أن يعطيه حقّه دون تقصير، وأن يكون قد قدّم نموذجا جيّدا؛ كي يلفت نظر الكتّاب لأهمية الموضوع.

تسعى الدّراسة للإجابة عن السّؤال الرّئيس التّالي:

كيف تشكّلت صورة "المكان" في الأدب الفلسطينيّ في رواية "برج اللقلق" لديمة جمعة السمان، وقصيدة "الحب والجيتو" لراشد حسين، وفي الأدب العبريّ المترجم في رواية "الطريق إلى عين حارود" لعاموس كينان، وقصيدة "هذي القرى الخالية" لألموج بيهار؟

ويتفرّع عن هذا السّؤال الأسئلة الفرعيّة التّالية:

السّؤال الأوّل: ما مفهوم المكان وأبعاده؟

السّؤال الثّاني: كيف وصف الكاتب الفلسطينيّ والكاتب العبريّ المكان في أعمالهما الأدبيّة؟

السّؤال الثّالث: هل هناك فرق أو تشابه بين صورة المكان في الأدب الفلسطينيّ وصورة المكان في الأدب العبريّ المترجم؟

السؤال الرّابع: هل هناك فرق بين حضور المكان في النص العبري الأصلي، والنص العبري المترجم؟

السّؤال الخامس: هل هناك اعتراف على أحقيّة الفلسطينيّ في أرضه من خلال الأعمال الأدبيّة الّتي تناولها؟

السّؤال السادس: هل تتمكّن من دحض الفكر الصهيوني أو الادعاء الإسرائيلي من خلال الأعمال العبريّة المترجمة؟

أهميّة الدّراسة:

تكمن أهميّة الدّراسة في التّالي:

- إنّها رافد –في حدود علم الباحث– يتناول المكان الفلسطينيّ في الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم، وتعقد مقارنة بينهما.
- المكان جزء لا يتجزّأ من هويّة الفلسطينيّ، ومقاومته.

- صورة المكان في الأدب تعكس ثقافة الأديب الّتي تنوب عن ثقافة أمّته.

أهداف الدّراسة:

تهدف الدّراسة لتعقّب صورة المكان في الأدبين الفلسطينيّ والعبريّ المترجم، وملاحظة الطّريقة الّتي يلجأ لها كلّ أدب منهما في تشكيل صورة المكان، وتتلخّص مهمّة الدّراسة في الأهداف التّاليّة:

- هدف تعليميّ.
- هدف وطنيّ.
- هدف ثقافيّ.

الدّراسات السّابقة:

لم يعثر الباحث على دراسات عقدت مقارنة حول المكان في الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ المترجم على وجه الخصوص، وكل ما عثر عليه كان دراسات حول المكان لكن لعمل أدبيّ محدّد –شعريّ أو نثريّ– لكاتب معيّن.

ولعلّ أهمّ ما رصده في مجال دراسة المكان، واستفاد منه ما يلي:

1. "الذات، والآخر في أدب غسان كنفاني، وابرهام يهوشع" للباحثة سمر غيث، رسالة ماجستير، وصدرت عن جامعة القدس المفتوحة سنة 2021 م.
2. الذات والآخر في الأدب العبري والعربي _ أبرهام يهوشع، وعلي المقري أنموذجا، للباحثة جوهرة حمران، وصدرت عن جامعة القدس المفتوحة سنة 2021 م.
3. استعادة المكان، استعادة الإنسان: قراءة في رواية "يافا تعدّ قهوة الصّباح"، للكاتب أنور حامد، وصدر عن مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ سنة 2020 م.

4. ذاكرة "المكان" في أغاني "انتفاضة الحجارة" من منظور التّاريخانيّة الجديدة، للكاتب خليل عيسى، وصدر عن جامعة الكويت سنة 2022 م.
5. رضوى عاشور الرّوائيّة في سرديّتها "الطّنطوريّة"؛ ذاكرة اللّجوء في المخيال الجمعيّ الفلسطينيّ: هويّة الإنسان – هويّة المكان سيمائيّة الخطاب السّرديّ، للكاتب زين العابدين العواودة، وصدر عن جامعة قاصدي مرياح، سنة 2014 م.
6. المكان والإنسان في السّيرة الذّاتيّة الرّوائيّة الفلسطينيّة: "أمّ الزّينات" نموذجا لكتابة التّاريخ الشّفويّ، للكاتبة عايدة وتد، وصدر عن مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة، سنة 2022 م.
7. صورة العربيّ في الرّواية العبريّة الإسرائيليّة (2005–2016)، للكاتبة ميسرة حسين وتد، وصدرت عن جامعة الخليل، سنة 2018 م.
8. الذّاكرة وأركيولوجيا المكان: الحفر على المكان في الشّعر الفلسطينيّ الحديث، للكاتب سالم التّرابين، وصدرت عن جامعة اليرموك، سنة 2020 م.
9. ذاكرة المكان وتجلّياتها في الشّعر الفلسطينيّ المعاصر، للكاتب إبراهيم موسى، وصدر عن المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، سنة 2007 م.
10. المكان ودلالاته في الشّعر الفلسطينيّ المقاوم: ديوان العصف المأكول نموذجا، للكاتب عبّاس فارساني، وصدر عن الجامعة الإسلاميّة، سنة 2020 م.

منهج الدّراسة:

المنهج الوصفيّ التّحليليّ.

صعوبات الدراسة:

واجه الباحث بعض الصعوبات في طريقه لإنجاز الدراسة، مثل صعوبة الحصول على بعض المصادر اللازمة لإتمام الدراسة، لكن الباحث استطاع أن يتخطاها بعون الله تعالى وتوفيقه.

الفصل الأوّل

الأدب الفلسطيني والأدب العبري المترجم: المراحل والتطور

1.1 تحديد مصطلح الأدب

الأدب من المادة (أَ دَ بَ)، ويعرف لغة بأنه: "الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبًا لأنه يَأْدِبُ الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مدعاة ومأدُبة" (ابن منظور، ب. ت، صفحة 43).

ومعنى كلمة أدب في الإنجليزية Literature، وفي الفرنسية Littérature، مأخوذة من اللفظة Litera، وتوحي بالأدب المكتوب أو المطبوع، وفي الإسبانية Literature، وفي الروسية Literatura.

أما اصطلاحا، فيعرفه البعض بأنه: "فن الكلمة، سواء الكلمة المقروءة، والكلمة المسموعة" (إسماعيل، 2013، صفحة 10)، ولكن الأدب ليس فقط المقروء أو المسموع؛ لأنه عملية عقلية وذهنية، والعمل الأدبي ليس شيئا خارج العملية العقلية التي تمارسها القراءة أو الاستماع (إسماعيل، 2013، صفحة 10). ولهذا يقترح عز الدين إسماعيل تعريف العمل الأدبي على أنه: "بناء لغوي يستغل كل إمكانات اللغة الموسيقية والتصويرية والإيحائية والدالة في أن ينقل إلى المتلقي خبرة جديدة منفعلة بالحياة" (إسماعيل، 2013، صفحة 21).

1.2 الأدب الفلسطينيّ – مراحله وتطوّره

تعد فلسطين مصدر إلهام لعديد من الشعراء والأدباء نتيجة الأحداث والصراعات التي مرت بها عبر السنين، والتي جعلت أبناءها الأدباء يعيدون صياغة هذه المآسي؛ ليخرجوا بها أعمالًا أدبية تأخذ طابعًا وطنيًا يحتضن فلسطين لما مرت به من أحداث وأهوال، وعلى رأسها الاحتلال الصهيوني، الذي يحاول بشتى الطرق النمو والازدهار على حساب الفلسطينيين والأرض والفلسطينية، وبناء مستقبل وهمي على أنقاض حاضر شعب آخر.

تأثر الأدب الفلسطيني بعوامل عدة، كان أهمها النكبة عام 1948 م، وما نتج عنها من تدمير وتهجير وشتات، وسياسية الاحتلال التي قامت على التطهير العرقي، وإقامة المذابح بحق أبناء الشعب الفلسطيني، كمذبحة دير ياسين عام 1948 م، هذه الأحداث جعلت الأدباء يلتفتون إلى المآسي التي حلت على الأرض الفلسطينية، فنشأ ما يسمى (أدب المقاومة) (الأسطة، 2008، صفحة 8)[1]، الذي هدف إلى توجيه القوى في وجه المحتل الصهيوني، والدعوة للوقوف أمام بطشه، والتصدي له بكل ما توفر، ناهيك عن أدب اللجوء والعودة، والذي لعب دورًا كبيرًا في شرح المعاناة الفلسطينية سواء في الأراضي الفلسطينية المحتلة، أو في مخيمات اللاجئين في الشتات.

لقد تميز أدب العودة بأنه مزيج بين الأمل والألم، أمل بالعودة إلى حضن الوطن الذي هُجر منه، وألم من الواقع الذي يعيشه ويعايشه، وقد عبر هذا الأدب عن الارتباط بالأرض، فعبر عنها بأجمل الصور.

ولا تنسى أدب السجون، الذي وُجد في ظُلمة سجون الاحتلال، وخلف قضبانه، وفي زنازينه، فخرج من عمق الألم الذي يعانيه أبناء الوطن من ظُلّام السجون، وعبر عن المعاناة التي يواجهها، فصور التعذيب والتنكيل، والتحقيق، والشوق للحرية، فتفتقت أسارير الأسرى الذين راهن الاحتلال على قتل عزيمتهم وأملهم، لكننا رأينا إبداعًا يخرج من وسط القهر، وأملًا من وسط الألم.

وفي بقاع مشتتة من العالم، ظهر نوع جديد من الأدب سمي (أدب المنفى)، الذي أنشأه اللاجئون، بعد أن ذاقوا مرارة التهجير والقتل والغربة، فاستلهموا مما عاشوه أدبا صاغوه للعالم، يظهر الأديب فيه حالة من الانقسام الداخلي، وعدم الاندماج، فهو يرفض التأقلم مع واقعه الجديد في البيئة الجديدة التي يعيش فيها، ويأمل بالعودة إلى وطنه، وينعم بدفئه وحنانه. وبهذه الأنواع، وقف الأدب الفلسطيني شوكة في حلق الاحتلال الصهيوني، وأثبت أن حق الفلسطيني في أرضه لن يتم التهاون به، ولن يتم التنازل عنه، إلى جانب أنه

[1] مصطلح وضعه الأديب غسان كنفاني، وهو أدب ما بعد النكبة، وكان ينادي برفض الاحتلال، ومقاومته، والتصدي له، ومن أبرز رواده: غسان كنفاني، وتوفيق زياد، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وجبران خليل جبران، وراشد حسين.

عكس للعالم بأسره ظلم الاحتلال، وما يعاني منه الشعب الفلسطيني، مما أدى إلى وجود حاضنة عالمية للقضية الفلسطينية، تقف معها وتساندها.

يقسم الأدب الفلسطيني إلى أربع مراحل، هي: المرحلة الأولى من بداية نهضة الأدب الفلسطيني حتى النكبة سنة 1948 م، ومن أبرز روادها:

إسعاف النشاشيبي: ولد في مدينة القدس عام 1885م، يعد من أشهر كتاب المقالات والقصة، وكان صاحب أسلوب أدبي محافظ، وكان يفضل شوقي على كل من عاصره، وحاول كتابة الشعر، لكن محاولاته بقيت ضعيفة، ونال شهرة محلية وعربية؛ لكونه خطيبًا متفوهًا، وكاتبًا رفيعًا، توفي سنة 1948م، ومن مؤلفاته: مجموعة النشاشيبي، وأمثال أبي تمام، وقلب عربي وعقل أوروبي (الجميلي و أخرون، 2000، الصفحات 68-69).

إسحاق موسى الحسيني: ولد في مدينة القدس عام 1904م، هو أديب ومترجم ومعلم أكاديمي، كان عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة، له كتب كثيرة ما بين تأليف وترجمة وتحقيق، لكن أشهرها كان كتاب "مذكرات دجاجة" الذي صدر عام 1942م، وتوفي في مدينته القدس سنة 1990م (شاهين، 2000، الصفحات 89-92).

إبراهيم طوقان: ولد عام 1905م، في مدينة نابلس، يعد من الشعراء الأوائل، كان يملك لغة شعرية لاذعة، تفتحت موهبته أثناء دراسته في الجامعة العربية الأمريكية في بيروت، واكتسب المعارف والخبرات والثقافات من خلال احتكاكه المباشر مع زملائه في الجامعة، فعاد إلى وطنه وكله ثقة بنفسه وبثقافته وبشعره، توفي سنة 1941م (شاهين، 2000، صفحة 20)، ومن شعره، قصيدته بعنوان (فلسطين مهد الشقاء)، يقول في مطلعها (طوقان ا.، 1955، صفحة 57):

إخواننـــــــا أهـــــــل الوفـــــــاء أهـــــــل المـــــــودة والـــــــولاء
مـــــن كـــــل قطـــــر بالعروبـــــة ذي ازدهـــــــــار وازدهـــــــــاء

مطلق عبد الخالق: ولد في مدينة الناصرة عام 1910 م، ويعد من رواد الشعر الفلسطيني قبل سنة 1948م، كان يهدف في شعره إلى نشر الوعي والثقافة بين أبناء الشعب الفلسطيني، توفي سنة 1937م (شاهين، 2000، صفحة 742)، ومن شعره، قصيدته بعنوان (دمعة على وطن)، والتي مطلعها (عبد الخالق، 1938، صفحة 23):

دمعـــــــة حـــــــرى علـــــــى وطـــــــن خطبـــــــــــــــه والله آلمنـــــــــــــــي
كلمـــــــــــا حاولـــــــــــت أندبـــــــــــه خـــــــانني دمعـــــــي فلـــــــم يعـــــــنِ

وهناك أعلام كثيرة لم يستطع الباحث ذكرها، مثل: عبد الرحيم محمود، وخليل بيدس، وأحمد شاكر الكرمي، وغيرهم. أما المرحلة الثانية فبدأت من النكبة سنة 1948م، حتى النكسة سنة 1967م، ومن أبرز روادها:

عبد الكريم الكرمي: كنيته (أبو سلمى)، ولد في مدينة طولكرم عام 1910م، شاعر وأديب وكاتب وسياسي، لُقب بـ (زيتونة فلسطين) يعد من أبرز الشعراء الفلسطينيين في تلك الفترة، وذاع صيته محليًّا ودوليًّا، وقد تبوأ مكانة عظيمة في الأدب العربي، سواء أكان شعرًا أم نثرًا، توفي سنة 1980م (شاهين، 2000، صفحة 456)، ومن النماذج من شعره، قصيدته بعنوان (فلسطين)، يقول في مطلعها (الكرمي، 1978، صفحة 11):

فلســـــطين! يـــــا حلـــــم الثـــــائرين فلســـــطين، يـــــا وطـــــن الخالـــــدين
أطلّـــــي علـــــى أفـــــق الأرجـــــوان معطـــــــرة بشـــــــذا الـــــــدارعين

فدوى طوقان: ولدت في مدينة نابلس عام 1917م، تعد من أبرز شاعرات فلسطين، لقبت بشاعرة فلسطين، كان شعرها مثالًا قويًّا للتجارب النسائية في فلسطين، في موضوعات كالحب والثورة، واحتجاجًا على العادات والتقاليد التي كانت سائدة حينها في المجتمع، والتي من شأنها مثلًا، منع المرأة من ممارسة تعليمها، توفيت سنة 2003 م، وكتبت فدوى في الشعر والنثر، فمن نماذجها النثرية: رحلة جبلية رحلة صعبة (سيرة ذاتية)، والرحلة الأصعب (سيرة ذاتية)، وأخي إبراهيم (شاهين، 2000، صفحة 563)، أما عن التأليف الشعري، فمن شعرها قصيدة بعنوان (وأنا وحدي مع الليل)، تقول في مطلعها (طوقان ف.، 1993، صفحة 82):

في الليل، إذ تهبط روح الظلام

مرسلة فيه الرؤى الهائمة يطيف بي في يقظتي الحالمه

غسان كنفاني: ولد في مدينة عكا عام 1936م، روائي وقاص وصحفي، ويعد أحد أشهر الكتاب والصحفيين في القرن الماضي، فكانت أعماله ورواياته ومجموعاته القصصية ومقالاته الصحفية رمزًا من رموز المقاومة الفلسطينية في وجه المحتل، حتى اغتالته يد الاحتلال الصهيوني بعبوة ناسفة في بيروت سنة 1972 م. من مؤلفاته: موت سرير رقم 12 (مجموعة قصصية)، ورجال في الشمس (رواية)، والقبعة والنبي (مسرحية) (شاهين، 2000، الصفحات 543–544).

ومن الأسماء الأخرى التي برزت في الساحة الأدبية الفلسطينية في هذه الفترة، معين بسيسو، وعادل أديب آغا، وهارون هاشم رشيد، وغيرهم. والمرحلة الثالثة بدأت من النكسة سنة 1967 م، حتى الانتفاضة الأولى سنة 1987 م، واستمرت إلى الانتفاضة الثانية عام 2000 م، ومن أبرز روادها:

توفيق زياد: ولد في مدينة الناصرة عام 1932 م، تعلم في مدينته في المرحلة الثانوية، ثم رحل إلى موسكو؛ ليدرس الأدب السوفييتي، كان رئيس بلدية الناصرة خلال الفترة (1975–1994)، وكان عضوًا في الكنيست الإسرائيلي، وكان يتقن اللغة العربية والإنجليزية والروسية والعبرية، امتاز شعره بالثورية والتحريض على المحتل الصهيوني في زمن خرست فيه الأفواه، توفي سنة 1994 م (شاهين، 2000، الصفحات 159–160)، ومن أعماله الشعرية، قصيدة بعنوان (وطنيتي)، يقول في مطلعها (زياد، ديوان توفيق زياد، 2012، صفحة 410):

وطنيتـــــي فـــــوق البـــــروج محلهـــــا　　تـــــاج الســـــماك بـــــذيلها يتعثـــــر
ويراعتـــــي تعنـــــو الســـــيوف لحكمهـــــا　　إن رحـــــت أنظـــــم فـــــي الطـــــروس وأنثـــــر

علي الخليلي: ولد في مدينة نابلس عام 1943م، لقب بـ (سادن الثقافة الفلسطينية)، أسس الاتحاد الفلسطيني للكتاب والأدباء، وهو من الشعراء الذين ذاع صيتهم في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، امتازت كتاباته الشعرية والنثرية بالقوة والبراعة والوطنية، والتعبير عن القمع والسجن والنفي والمقاومة والشهداء، توفي

سنة 2013م (عيسى ع.، 2013، صفحة 147)، من أبرز أشعاره، قصيدة بعنوان (يا قدس)، يقول في مطلعها (الخليلي، 1983، صفحة 77):

قمر القدس دم وضياء

والصخرة وردة

نبتت في صدر الأقصى

وهناك أعلام كثيرة لم يتم ذكرهم لضيق المقام، مثل: سميح القاسم، وإميل حبيبي، وجبرا إبراهيم جبرا، وسحر خليفة، ورياض بيدس، وغيرهم. أما المرحلة الرابعة بدأت من الانتفاضة الثانية سنة 2000م، حتى يومنا، ومن أبرد روادها:

محمود درويش: ولد في قرية البروة عام 1941 م، والتجأ إلى لبنان مع عائلته بسبب النكبة، وارتبط اسمه بشعر الثورة والوطن والمقاومة، وهو من قام بكتابة وثيقة الاستقلال عام 1988 م، وتوفي في الولايات المتحدة عام 2008م (شاهين، 2000، الصفحات 697-699). من أشعاره، قصيدة (يوميات جرح فلسطيني) يقول فيها (درويش، ديوان محمود درويش، 1983، صفحة 342):

نحن في حل من التذكار

فالكرمل فينا

مريد البرغوثي: ولد في قرية دير غسانة قرب رام الله عام 1944 م، درس في مدرسة رام الله الثانوية، ثم رحل إلى القاهرة والتحق بجامعتها؛ ليدرس اللغة الإنجليزية، وتخرج سنة 1967 م، عام احتلال الضفة الغربية، وحرم العودة إليها. كتب في الشعر والنثر، فمن أعماله النثرية: رأيت رام الله (رواية سيرة ذاتية)، وولدت هناك (الجزء الثاني من رأيت رام الله) (شاهين، 2000، الصفحات 730-731)، ومن شعره، قصيدة بعنوان (طال الشتات) يقول في مطلعها (البرغوثي، 1986، صفحة 85):

طـــال الشـــتات وعافـــت خطونـــا المـــدن وأنـــت تمعـــن بعـــدا أيهـــا الـــوطن

كـــأن عشـــقك ركـــض نحـــو تهلكـــة ونحـــن نـــركض لا نبطـــي ولا نهـــن

إبراهيم نصر الله: ولد في مدينة عمان عام 1954م، لأبوين فلسطينيين هجرا من أرضهما في قرية البريج غرب القدس، يعد من أكثر الكتاب تأثيرًا، تلتفت الشباب إلى أعماله وتحبذها، ولاقى اهتمامًا واسعًا على الصعيدين المحلي والعربي، وحظيت أعماله بالترجمة إلى لغات أخرى. من أعماله: الملهاة الفلسطينية (ثماني روايات)، وصباح الخير يا أطفال (كتاب شعر للأطفال) (شاهين، 2000، الصفحات 30–32)، ومن أشعاره، قصيدة بعنوان (موت) يقول فيها (نصر الله، 1999، صفحة 163):

ستضحك

حين تغادرها

واثقين بأنا اتفقنا..

المقاعد!

وهناك أسماء أخرى، مثل: يحيى يخلف، ومحمد نفاع، ومحمد علي طه، وغيرهم.

1.3 الأدب العبريّ – مراحله وتطوّره

يعرف الأدب العبري الحديث بأنه: "تلك الآداب التي كتبت بالعبرية خلال الفترة الحديثة من التاريخ اليهودي، ويصبح الاصطلاح محددًا حينما نقول، إن (الأدب العبري الحديث) يشتمل على كل شيء كتب بالعبرية خلال العصر الحديث" (الشامي ر.، 2008، صفحة 29).

يمتد الأدب العبري عبر العصور والأزمنة، ويشمل أساطير وتراثا دينيا وشعرا وقصصا وروايات ومسرحيات وكتب تاريخية وفلسفية وأخلاقية، وتداخل الأدب العبري وتطور من خلال اتصاله بالدين، ولا يقصد بالأدب العبري هنا ما كتب في فلسطين بعد الاحتلال الصهيوني، بل يقصد به الأدب الذي كتب بدءًا من القرن الثامن عشر.

ترى نهلة راحيل أن الأدب العبري الحديث بمختلف أنواعه الأدبية وفنونه تأثرت بالآداب الغربية والأوروبية، عندما كانوا شتاتًا في شرق أوروبا وغربها أو بعد مجيئهم إلى فلسطين من خلال الهجرات التي بدأت في

أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهذا التأثر الكبير بالأدب الأوروبي يعود لكون اليهود نشأوا في أوروبا وترعرعوا على عاداتها وتقاليدها، مما أدى إلى تبنيهم الأفكار الأوروبية والاتجاهات الثقافية الغربية في خطابهم وأدبهم (راحيل، 2022، صفحة 9).

وسيتم الحديث عن الأدب العبري على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: المرحلة الأوروبية (أدب الهاسكالاه).

نشأ الأدب العبري الحديث من خلال الأزمنة الدينية التي أثرت في الحياة اليهودية، وخاصة منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر، حيت تحدثت عن القيم اليهودية، ووجوب إعادة النظر فيها؛ كونها ليست قيمًا مطلقة يسلم بها، فظهرت حركة (الهاسكالاه) (راحيل، 2022، صفحة 39)[1]، التي تأثرت بالعالم الغربي عامة، والأوروبي خاصة، حيث إن بدايات الأدب العبري الحديث كانت في شرق أوروبا وغربها، فنادت الحركة بفصل الدين عن الدولة، فأصبح الأدب العبري يهتم بحياة الإنسان وعلاقاته بالأرض بدلًا من السماء (الشامي ر.، 2008، صفحة 57). ومن أبرز أدباء هذه الفترة: موشيه حاييم لوتساتو (1707–1747)، وموشيه مندلسون (1729–1786)، ويهودا ليف جوردون (1831–1892)، وأفراهام مابو (1808–1867).

ويقسم أدب الهاسكالاه إلى ثلاثة أنواع:

1. الهاسكالاه الألمانية (1781–1830) (الشامي ر.، 2008، صفحة 32)، وهي حركة نشأت في ألمانيا تهدف لمحاربة السلطان الديني المحافظ، ولهذا شهدت الحركة معارك بينها وبين اليهود الأرثوذكس واليهود المحافظين، ومن أشهر أعلامها موشيه مندلسون وتلاميذه.

[1] هي حركة ظهرت في غرب أوروبا تهدف لبلوغ الحقيقة وخلق مجتمع إنساني، وترى أن العقل هو مضمون الإنسان وغايته، ومن أهم أسسها: جعل الدين يقوم على أسس عقلية وليس على الروحانيات، واعتبار الإنسان مركز الكون وليس الرب، والنظر إلى العلم على أنه الأداة الوحيدة التي تستطيع التقدم بالمجتمعات الإنسانية.

2. هاسكالاه جاليسيا (1820–1860) (الشامي ر.، 2008، صفحة 32)، هدفت هذه الحركة للتوسط بين الاستنارة والدين، وعدم تغليب أحدهما على الآخر، فهي تهتم بالتنوير إلى جانب اهتمامها بالرب والدين، ولا تفرط بشيء منه، ومن أشهر أعلامها نحمان كروخمال (1718–1888م).
3. الهاسكالاه الروسية (1840–1881) (الشامي ر.، 2008، صفحة 32)، عاد في هذه المرحلة الصراع بين الدين والاستنارة، وبدأ اليهود يتجهون نحو التشدد الديني والتزمت، ومن أشهر أعلامها مندلي موخر سفاريم (1835–1917م).

المرحلة الثانية: المرحلة الفلسطينية الطليعية.

بدأت هذه المرحلة بعد العام 1905 م، بعد انتقال (حاييم نحمان بياليك) إلى فلسطين، ومع بدء الهجرات اليهودية والصهيونية إلى فلسطين، وحين انتقل بياليك إلى فلسطين لم يكمل مسيرة الأدب العبري الذي كان تقليدا للأدب الأوروبي، بل بدأ أدبًا جديدًا في الصورة والمضمون.

وتقسم إلى قسمين:

1. الفترة العثمانية (1905–1917) (الشامي ر.، 2008، صفحة 32).
2. فترة الانتداب (1920–1948) (الشامي ر.، 2008، صفحة 32).

المرحلة الثالثة: المرحلة الإسرائيلية.

وستدرس هذه المرحلة على أربعة أجيال:

1. الجيل الأول: يضم هذا الجيل مجموعة من الأدباء مالوا لكسر الصيغة النمطية من الأدب، وبدأ الإنتاج الأدبي لهذا الجيل منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر، واستمر حتى العشرينات من القرن العشرين، وكتب معظمهم بالعبرية واليديش معًا، وتصارعوا مع الهاسكالاه وغلبوه. ومن أبرز أدباء هذا الجيل: موشيه سميلانسكي (1874–1953) (الشامي ر.، 2008، صفحة 32).

2. الجيل الثاني: ظهر هذا الجيل في نهاية القرن التاسع عشر، وكان معظم إنتاجه في المنفى، لكن غالبية أدبائه هاجروا إلى فلسطين، ومنهم من كان في مراكز أدبية مثل: أوديسا ووارسو، وقاد بياليك (1873–1934) هذا الجيل، ومن أبرز أدبائه: شوفمان (1880–1972)، ويعقوب شتاينبيرغ (1887–1947) (الشامي ر.، 2008، صفحة 33).
3. الجيل الثالث: يعد هذا الجيل قريبًا من الجيل الثاني من الناحية البيوغرافية والتاريخية، ومعظم أدبائه هاجروا في بداية القرن العشرين، وهم مرتبطون بالهجرة اليهودية الثانية، ومن أبرز أدباء هذا الجيل: شلومو تسيمح (1886–1974)، وشموئيل يوسف عجنون (1888–1970) (الشامي ر.، 2008، صفحة 33).
4. الجيل الرابع: وصل هذا الجيل إلى الذيوع في نهاية الحرب العالمية الأولى، وجلّ أدبائه من اليهود الذين استوطنوا فلسطين في الهجرتين الثالثة والرابعة، ومن أبرز أدبائه: أفيغدور هاميئيري (1890–1970)، وحاييم هزاز (1898–1973) (الشامي ر.، 2008، صفحة 34).
5. الجيل الخامس: كانت غالبية هذا الجيل من الذين ولدوا في فلسطين، وقد ظهروا وبرزوا في نهاية الثلاثينات، أما أكثرهم شبابًا فظهروا في نهاية الخمسينيات، ومن موضوعاتهم الرئيسة: القضاء على يهود أوروبا، والحرب من أجل إقامة الدولة اليهودية، وغيرها من الموضوعات، ومن أبرز أدبائها: يزهار سميلانسكي (1916–2006)، وأ. ب. يهوشواع (1936–2022)، وعاموس عوز (1939–2018) (الشامي ر.، 2008، صفحة 34).

الفصل الثّاني

المكان وتحولاته في السّرد

2.1 مفهوم المكان (Place)

يعد المكان من المصطلحات المهمة في النقد الحديث، وخاصة في مجال السرد والرواية، وذلك لما له من دور في العمل السردي، وفي علاقاته مع عناصر السرد، فينتج لنا عملا أدبيا متقنا، لكن مصطلح المكان، يعاني من بعض المشكلات في الآونة الأخيرة، ولعل ذلك عائد إلى ترجمة المصطلح من الغرب (Space, Espace)، فقد ترجمه البعض على أنه الفضاء، ومنهم من ترجمه بمعنى الحيز، وسيتضح في الدراسة المقصود بكل مصطلح منها.

2.1.1 المكان لغة

المكان من الأصل اللغوي (كَ وَ نَ) وقد عرفه ابن منظور بقوله: "الموضع، والجمع أمكنة وأماكن، توهموا الميم أصلا حتى قالوا تمكن في المكان، وهذا كما قالوا في تكسير المسيل أمسلة، وقيل الميم في المكان أصل، كأنه من التمكن دون الكون، وهذا يقويه ما ذكرناه من تكسيره على أفعلة، وقد حكى سيبويه في جمعه أمكن، وهذا زائد في الدلالة على أن وزن الكلمة فعال دون مفعل" (ابن منظور، ب. ت، صفحة 3960).

وقد وردت كلمة (مكان) في القرآن الكريم في 28 موضعًا، ولعدة معان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾[النساء: 20]، أي استبدال زوجة بزوجة.

وقوله تعالى: ﴿*قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾[يوسف: 77]، أي أنتم شر منزلة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾[الأعراف: 143]، أي استقر في موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾[مريم: 16]، أي اتخذت موضعا.

من خلال هذا العرض، يُلاحظ أن كلمة (مكان) تأتي لمعان عدة، منها: الموضع، والمنزلة، والبدل، وهناك معان أخرى، لكن هذه المعاني من أكثرها استخداما في القرآن الكريم.

2.1.2 المكان اصطلاحًا

يعد المكان من أهم عناصر السرد في العمل الأدبي، فهو الركن الذي تستند إليه الأحداث، وتتفاعل معه الشخوص، ولهذا، لا يمكن إهمال المكان، وعدم الالتفات إليه في دراسة العمل الأدبي، فمن خلاله يستطيع القارئ أن يفهم الشخصية ويحللها وصفيا ونفسيا، وبدونه يعتبر العمل الأدبي ناقصا.

وكما تعلم، فإن المكان في العمل الأدبي ليس المكان في الحقيقة والواقع، إنما يكون مكانا متخيلا، يتخيله الكاتب، ويسقط عليه أفكاره ومشاعره وأحاسيسه، ويُحمّله أبعادا اجتماعية وسياسية ونفسية ودينية، وذلك ما وضحته سيزا قاسم في قولها: "إن مكان الرواية ليس المكان الطبيعي. فالنص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكانا خياليا له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة" (قاسم، 2004، صفحة 104).

يعرفه أرسطو (طرابيشي، 2006، صفحة 52)[1] بأنه الذي يحوي الشيء، وأنه يخلو من شيء من الجهات (طاليس، 1984، صفحة 302). وقد عرفه أفلاطون (طرابيشي، 2006، صفحة 71)[2] وكلارك (طرابيشي،

[1] أرسطو طاليس، (بالإغريقية: Ἀριστοτέλης)، ولد في أسطاغيرا، سنة 384 ق.م، من أبلغ نوابغ النظر العقلي في التاريخ الروماني، تأثر بأفلاطون، انتسب إلى أكاديمية أفلاطون في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وبقي فيها ما يقرب من العشرين عاما، برع في الفلسفة والمنطق، وتجمع مؤلفاته تحت اسم (الأورجانون)، أي الأداة، وتوفي سنة 322 ق.م.

[2] أفلاطون، (باللاتينية: Plato) (باليونانية: Πλάτων)، ولد سنة 427 ق.م، من أسرة عريقة وحكيمة، وهذا ما أهله للدخول في عالم السياسة، كان من الهيراقليطيين، وصار تلميذا لسقراط، وهو كاتب للحوارات الفلسفية، ومؤسس لأكاديمية أثينا، وواضع للأسس الأولى للفلسفة الغربية والعالمية، كان عالما ومفكرا ومبدعا، كتب في المعرفة، والمنطق، والفلسفة، واللغة، والرياضيات، والميتافيزيقيا، وتوفي سنة 347 ق.م.

2006، صفحة 525)[1] ونيوتن (طرابيشي، 2006، صفحة 684)[2] على أنه الحاوي للأشياء (بدوي، 1975، الصفحات 196-197).

وعند إخوان الصفا، يُذكر المكان بأنه "مكان كل متمكن هو الجسم المحيط به" (الصفا، 1405 هـ، صفحة 12)، ويعرفه الدكتور فيصل النعيمي على أنه "مجموع العلاقات اللغوية، التي تؤسس للفضاء المتخيل، وتعمل على إيجاده، وتحويله من لغة سردية إلى أيقونة بصرية في ذهن المتلقي، وبهذا تتجلى العلامة المكانية بوصفها معطى سيميائيًا لا مجرد تراكيب لغوية مبنية على تراتبية مكانية" (النعيمي ف.، 2009، صفحة 112).

أما بخصوص أنواع المكان، فالمكان يقسم إلى قسمين أساسيين، هما:

أولا: المكان من حيث الوجود: يقسم إلى قسمين، هما:

- المكان الطبيعي: وهو المكان الذي أوجده الله تعالى، ولا دخل للإنسان في إنشائه ووجوده، مثل: الصحراء، البحار، الجبال ... إلخ.
- المكان الصناعي: وهو المكان الذي أنشأه الإنسان، أو تدخل في إنشائه، ويكون للإنسان بصمة واضحة عليه، مثل: السجن، المدرسة، الجامعة ... إلخ.

ثانيا: المكان من حيث الحدود: يقسم إلى نوعين، هما:

- المكان المغلق: وهو المكان محدد الأبعاد والشكل، يخص شخصية واحدة أو عدة شخصيات، يصفه الكاتب، وتدور الأحداث فيه، وتتفاعل الشخصيات معه، مثل: الغرفة، المكتبة، الشارع ... إلخ.

[1] صموئيل كلارك، (بالإنجليزية: Samuel Clarke)، فيلسوف لاهوتي إنجليزي، ولد سنة 1675 م، درس الفلسفة الديكارتية، في جامعة كامبردج، له رسالات كثيرة، منها: رسالة فسي وجود الله، ورسالة في المكان والزمان، وتوفي سنة 1729 م.

[2] إسحاق نيوتن، (بالإنجليزية: Isaac Newton)، ولد سنة 1642 م، في وولستورب، من أبرز العلماء الإنجليز في الرياضيات والفيزياء، كان رئيس الجمعية الملكية، وعضوا في البرلمان الإنجليزي، عمل أستاذا للرياضيات في جامعة كامبردج، إضافة إلى مناصب أخرى شغلها في حياته، صاغ قوانين الحركة وقانون الجذب، وله آثار كثيرة في مجال العلوم والنهضة العلمية، توفي سنة 1727 م.

- المكان المفتوح: وهو المكان الواسع، الذي يتشارك فيه الجميع، ولا يخص فردا واحدا، أو عددا من الأفراد، مثل: القرية، المدينة، الدولة ... إلخ.

وقد قدم الباحث محمد بو عزة صفات المكان من وجهة نظره، وذكرها على النحو التالي (بو عزة، 2010، صفحة 101):

الجدول (1)

صفات المكان كما قدمها الباحث محمد بو عزة

المسافة	الحجم	الاتساع	الشكل	الحركة	التواصل	السكان	الإضاءة
قد يكون المكان قريبا، أو بعيدا.	قد يكون المكان كبيرا، أو صغيرا.	قد يكون المكان واسعا، أو ضيقا.	قد يكون المكان دائريا، أو مربعا، أو مستطيلا.	قد يكون المكان ثابتا، أو متنقلا.	قد يكون المكان منفتحا على الأمكنة الأخرى، أو منغلقا على ذاته وعلى شخصياته.	قد يكون المكان مأهولا بالسكان، أو مهجورا لا سكان فيه.	قد يكون المكان مضاء بغض النظر عن مصدر الإضاءة، أو مظلما.

لو انتقل القارئ للبحث عن المكان واهتمام النقاد العرب فيه، يجد في تاريخ النقد العربي اهتماما في مصطلح المكان، ولا يجد حتى تعريفا جامعا له، ولعل ذلك راجع إلى أن العرب أخذت معظم المصلحات الأدبية من الغرب، كما أخذت منهم بعض الفنون الأدبية الحديثة، ولو عرفت أن الغرب تأخروا في الاهتمام بعنصر المكان وفكرته، ولهذا لا تستغرب التأخر الحاصل عند العرب، وقد وصف حسن نجمي ذلك بأن النقد العربي قصر في تحديد مفهوم الفضاء بسبب تبعيته وذيليته للخطاب النقدي الغربي (نجمي، 2000، صفحة 51).

وترى أن الدكتور عبد الملك مرتاض وافق نجمي في طرحه، وشدد مرتاض على اهتمامه بمصطلح جديد يسمى (الحيز)، وآثر استخدامه بدلا من المكان، وخصص له فصلا كاملا في كتابه (في نظرية الرواية) بعنوان (الحيز الروائي وأشكاله) (مرتاض، 1998، صفحة 121).

يُستنتج أن مصطلح المكان ظهر متأخرا عند العرب، ويرى القارئ أن هناك تفاوتا في استخدامه من باحث عربي لآخر، ويتراوح هذا التفاوت في الاستخدام بين مصطلحات ثلاثة، هي: المكان، والفضاء، والحيز، فمنهم من لجأ لاستخدام المكان، ومنهم من فضل الفضاء، ومنهم من آثر الحيز، ومنهم من تراوح استخدامه بين المصطلحات الثلاثة، وسيتضح الفرق بين هذه المصطلحات من خلال عرض لتعريف كل مصطلح في اللغة والاصطلاح، وأخيرا يتضح الفرق بينها، وأي المصطلحات أفضل لاستخدامها.

وأخيرا، إن مصطلح (المكان) يشير في العمل السردي إلى البيئة الجغرافية التي يحدث فيها الحدث، أو يتم وصف الشخصيات فيها، ويشمل المكان العناصر المختلفة التي تشكل الخلفية والبيئة المحيطة بالشخصيات، مثل: المناظر الطبيعية، والمباني، والغرف، والشوارع، والأحياء، والمدن، والبلدات، والأقاليم، والدول.

يعد المكان عنصرا هاما في الرواية والقصة القصيرة وغيرها من الأعمال السردية، حيث يمكن أن يساعد في إنشاء جو معين، أو إبراز معان معينة، ويمكن استخدام الوصف الدقيق للمكان لتعزيز الأحداث وتوفير إطار للشخصيات والأحداث، فعلى سبيل المثال، يمكن استخدام وصف المكان لتعزيز المشاعر الحالمة، أو المواقع الخطرة، أو البعد الثقافي، أو الزماني، أو الاجتماعي، وهذا يساعد على إنشاء عالم خيالي أو واقعي يشعر به القارئ أو المشاهد.

2.2 مفهوم الفضاء (Space)

الفضاء مفهوم حديث، ظهر على الساحة الأدبية والنقدية بعد الدراسات النقدية التي تأثرت بالمدرستين البنيوية (بياجة، 1985، صفحة 63)[1]، التي نادت بنظرية (موت الذات) أو (موت المؤلف)، والشكلية (إيرليخ، 2000، الصفحات 13-14)[2]، التي تعني دراسة النص بمعزل عن أي سياق خارجي يتصل به.

[1] إحدى المدارس اللغوية، والتي نادت بنظرية موت المؤلف، ورائدها العالم (فردنان دي سوسير)، ويعد مؤسس علم اللسانيات الحديث، والذي رأى أن اللغة نظام، وليست رموزا وأصواتا فقط، وأن العلاقة الأساسية التي تدخل في اللغة هي العلاقة بين الإشارة والمعنى، أو الرمز والمعنى.

[2] هي مدرسة روسية، نادت باستقلال علم الأدب، واهتمت بالتشديد على الأثر الأدبي بعيدا عن أي مؤثر خارجي، وهي تتفق مع البنيوية؛ إذ تعزل الأدب عن العوامل الخارجية، وتهتم بدراسته منفردا بذاته، بعيدا عن العلوم الأخرى، وبعيدا عن مؤلفه وحياته.

2.2.1 الفضاء لغة

الفضاء من الأصل اللغوي (فَ ضَ وَ)، ويأخذنا إلى معنى الاتساع، فالفضاء هو ما اتسع من الأرض، وقد عرفه ابن منظور بقوله: "المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فضوا فهو فاضٍ" (ابن منظور، ب. ت، صفحة 3430).

إذن فهو كما ذكر المكان الواسع الخالي، ومن ذلك قولهم أفضى الرجل إلى امرأته، أي بمعنى خلا بها (ابن منظور، ب. ت، صفحة 3430)، وفي حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) للنابغة، عندما دعا له، فقال: "لا يُفضي الله فاك، أي لا يجعله فضاء لا سن فيه" (ابن منظور، ب. ت، صفحة 3431)، لم ترد كلمة (فضاء) في القرآن الكريم، والسبب يعود إلى أنها –كما ذُكر سابقا– مصطلح حديث العهد على الساحة الأدبية، لم يكن معروفا قديما، خاصة أنه لا يُراد به هنا الفضاء الخارجي الذي يحوي الكواكب والنجوم والمجرات، بل الفضاء في العمل السردي، أو الأدبي بشكل عام.

2.2.2 الفضاء اصطلاحًا

يعد الفضاء عنصرا مهما في السرد، فهو يشكل احتواء للشخصيات والأحداث، ويتفاعل معها، وحظي في العصر الحديث عناية فائقة واهتماما كبيرا على صعيد الدرس الأدبي والنقدي، وشوهد هذا الاهتمام عند الباحث الغربي، والباحث العربي على حد سواء، ولعل الاهتمام المفاجئ الذي انصب على الفضاء، هو ما سبب خلطا كبيرا في فهم المصطلح، وأدى إلى ظهور لبس بين مصطلح الفضاء والمكان والحيز.

ولعل ممن ارتكبوا لبسا في التفريق بين مصطلحي المكان والفضاء برأي حسن نجمي هو غالب هلسا، فقد ترجم كتاب غاستون باشلار (شعرية الفضاء) المكتوب باللغة الفرنسية عن الإنجليزية، إلى (شعرية المكان)، ومن هنا، جاء الدارس العربي من بعده، وأخذ عنه مصطلح المكان معادلا لمصطلح الفضاء، فأصبح الخلط يتفاقم إلى أن وصلت مؤلفات كثيرة تعاني هشاشة في المصطلح، وجعلت الدارس العربي رهين الضعف الحاصل.

سيحاول الباحث هنا أن يكتشف الفرق بين المفهومين، ويستوضح بعض المعالم التي تميز كل واحد منهما عن الآخر، فلو نظرت إلى جيرالد برنس، تراه يعرف الفضاء بأنه "المكان أو الأمكنة التي تقع فيها المواقف والأحداث المعروضة" (برنس، 2003، صفحة 182)، هذا يعني أن برنس يجعل الفضاء أكبر من المكان وأشمل، فالمكان جزء من الفضاء، والفضاء يجمع عددا من الأمكنة.

ولو نظرت في فلسفة أرسطو، تُلاحظ أنه يفرق بين المكان والخلاء، وقد ذكر أن الفضاء هو الواسع الخالي، فأرسطو تنبه إلى خلط بين المكان والفضاء (الخلاء)، ولو أنه خلط قليلا فذكر أن الخلاء مكان يخلو من الأجسام (طاليس، 1984، صفحة 347)، ويكمل تفصيله عن الفرق بين المكان والخلاء، فيضرب مثلا لو وضع الماء في مكعب، فإن المكعب هو المكان، محدد الاتجاهات والأبعاد، أما الخلاء فلا يمكن أن يحدد؛ لأنه ليس جسمًا، ولكنه يأخذ بعدًا مساويًا لبعد المكعب (طاليس، 1984، صفحة 378). وعند هيدجر، يقول: "إن الجسر مكان. وهو كشيء يضع فضاء، تندمج فيه السماء والأرض، السماويون والفانون" (بنيس، 2001، صفحة 115)، ويضيف هيدجر، فيقول: "إن الفضاءات التي تقطعها يوميا "مهيأة" بواسطة الأمكنة التي يتأسس وجودها على أشياء هي من قبيل العمارات" (بنيس، 2001، صفحة 115)، فالمكان إذا، هو إطار محدد الأطراف والأبعاد، محسوس المعالم، يمتد حوله فضاء.

ويورد بنيس، فيقول: "نستخلص أن المكان منفصل عن الفضاء، وأنه سبب في وضع الفضاء، أي أن الفضاء بحاجة على الدوام للمكان" (بنيس، 2001، صفحة 115).

كما ويذكر سعيد علوش الفضاء بقوله: "يستعمل مصطلح (الفضاء)، في السيميائية، كموضوع تام، يشتمل على عناصر غير مستمرة ... ويفترض (الفضاء)، اعتبار كل الحواس، في سيميائية الاهتمام بالفاعل، كمنتج ومستهلك للفضاء" (علوش، 1985، صفحة 164)، لا يرى القارئ وضوحا جليا في قول علوش عن الفضاء، ولكن يُفهم منه أن الفضاء يحوي عناصر تتحرك داخله، وتتغير باستمرار.

يقول نجمي: "إن هذا الفضاء، من وجهة نظر فلسفية، سابق للأمكنة. إن له أسبقية تجعله موجودا من قبل ... هناك الفضاء إذن، وبعد ذلك تأتي الأمكنة لتجد لها حيزا في هذا الفضاء" (نجمي، 2000، صفحة 44)، يُفهم من كلام نجمي إذن، أن الفضاء أكبر من المكان، وأن المكان جزء من الفضاء، يأخذ منه حيزا صغيرا، لا العكس.

وقد قسم حميد لحمداني الفضاء لأنواع، هي:

أولا: الفضاء المكاني: ويرى أنه الحيز المكاني الذي يشغل الرواية أو الحكي، وليس هو مكان الأحرف المطبوعة على صفحات الرواية، بل المكان المتخيل الذي تشغله الأحداث (لحميداني، 1991، صفحة 54).

ثانيا: الفضاء النصي: ويعني به المساحة التي يشغلها الأحرف المطبوعة على صفحات الرواية (لحميداني، 1991، صفحة 55).

ثالثا: الفضاء الدلالي: وهو اللغة الأدبية المكتوب بها، والصور المجازية والجمالية التي يحتويها العمل الأدبي (لحميداني، 1991، صفحة 60).

رابعا: الفضاء منظور أو رؤية: وهو الفضاء الذي يفرضه المؤلف من وجهة نظره، وتحملها الشخصيات من خلال إسقاط آرائه وأفكاره عليها (لحميداني، 1991، صفحة 61).

وأما على صعيد العمل السردي، فيعرف أحمد مرشد الفضاء على أنه: "مجموع الأماكن الروائية التي تم بناؤها في النص الروائي" (احمد، 2005، صفحة 130)، هذه مجموعة من التعريفات التي تناولت مصطلح الفضاء، وقد حاول الباحث استبيان أبعاده وحيثياته.

يتضح من خلال هذا العرض، أن الفضاء السردي هو المكان الذي تحدث فيه الأحداث والشخصيات ويتم فيه تطوير القصة، ويتضمن الفضاء السردي كل المواقع الجغرافية والزمنية التي يمكن أن تحدث فيها الأحداث في القصة، ويتم تصويرها من خلال الوصف والحوارات والأفكار التي يتم تبادلها بين الشخصيات.

ومن المهم أن يكون الفضاء السردي متناسبا مع الأحداث التي تحدث في القصة والمزاج والأجواء التي يريد المؤلف أن يوصلها للقارئ، ويعتبر الفضاء السردي عنصرا مهما في إنشاء الجو الذي يريده المؤلف للقصة وجعل الأحداث تبدو واقعية ومشوقة.

بشكل عام، يمكن تقسيم الفضاء السردي إلى نوعين رئيسين:

أولا: الفضاء الخارجي: وهو مجموع الأمكنة التي تحدث فيها الأحداث، ويتم تصويرها عبر الوصف والحوارات، ويشمل هذا النوع من الفضاء المواقع الجغرافية، مثل: الشوارع، والمنازل، والأماكن العامة، مثل: المدارس، والمستشفيات، والحدائق، ويتم فيها تنفيذ الأحداث الرئيسة للقصة.

ثانيا: الفضاء الداخلي: وهو العالم الداخلي للشخصيات، ويشمل الأفكار، والمشاعر، والذكريات، والأحلام، والتخيلات، ويتم تصوير هذا النوع من الفضاء من خلال التركيز على الداخلية النفسية للشخصيات، والطريقة التي يتفاعلون بها مع الأحداث الخارجية.

ويعتمد نوع الفضاء السردي على نوع القصة والأسلوب الذي يريده المؤلف، وتكون الأساليب المختلفة في تصوير الفضاء السردي مثل استخدام التشويق والإثارة، أو الصورة الواقعية أو الخيالية، وكذلك يتم التركيز على الأجواء والتفاصيل التي تعطي للفضاء السردي الطابع الذي يريده المؤلف.

ومن الجدير بالذكر أن الفضاء السردي يمكن أن يؤثر على تأثير القصة على القارئ، ويمكن أن يجعل الأحداث تبدو واقعية ومشوقة، أو قد يجعلها تبدو مملة وغير مثيرة، لذلك، يعتبر تحديد الفضاء السردي وتصويره بشكل جيد، أحد العوامل الرئيسة في إنشاء قصة جيدة.

2.3 مفهوم الحيّز (Setting)

الحيز مصطلح من مصطلحات العمل الروائي، أصابه لبس مع المكان والفضاء كما وضح الباحث سابقا، ولوحظ أن الحيز مصطلح حديث في الدراسات النقدية، وآثره البعض في الاستخدام بدلا من المكان والفضاء؛

لأنهم رأوه أشمل وأفصح. ويعد الحيز من أهم المصطلحات على سبيل العمل الأدبي، وخاصة العمل الروائي؛ لأنه يختلف عن غيره من الأعمال الأدبية، ولأنه مرتبط بالزمان لا ينفصل عنه. فما المقصود بالحيز؟

2.3.1 الحيّز لغة

هي من الأصل اللغوي (حَ وَ زَ)، وتعني "كل ناحية على حدة حيّز، بتشديد الياء، وأصله من الواو ... وفي الحديث: فحمى حوزة الإسلام أي حدوده ونواحيه." (ابن منظور، ب. ت، صفحة 1047).

قد يرى القارئ أن فكرة الحيز لم تكن عند أسلافنا ناضجة كما هي اليوم، لكن يستطيع أن يتبين حدود المصطلح عند ابن منظور، فهو يحدده –حسب مفهومه– بأنه الحدود والنواحي.

يذكر الفيروز أبادي في قاموسه (المحيط)، في مادة (حَ وَ زَ)، ما يلي: "الحوز: الجمع، وضم الشيء، كالحيازة والاحتياز" (الفيروزبادي، 2008، صفحة 420)، ولو ألقى الباحث نظرة في المعاجم الحديثة، سيرى في المعجم الرائد مثلا: "الحيز: المكان، من الدار: ما انضم إليها من المرافق والمنافع." (مسعود، 1992، صفحة 321)، لا ترى فرقا بين الحيز والمكان في التعريف أو المصطلح، فيذكر الحيز على أنه المكان.

2.3.2 الحيّز اصطلاحًا

"الحيز لدى غريماس هو الشيء المبني (المحتوي عناصر متقطعة) انطلاقا من الامتداد، المتصور، هو، على أنه بعد كامل، ممتلئ، دون أن يكون حل لاستمراريته. ويمكن أن يدرس هذا الشيء المبني من وجهة نظر هندسية خالصة" (مرتاض، 1998، صفحة 122).

أما ديفيز، فيقول: "تحتمل كلمة "المكان" معاني الحيز والحجم والمساحة والخلاء" (ديفيز، 1996، صفحة 9). قف عند هذا القول؛ لأن هناك خلطا بين المكان والفضاء والحيز، وقد حاول ديفيز أن يجد فرقا بين المكان والفضاء أو الخلاء، لكنه تجاهل الحيز، ولم يحاول التعرض له في شرح أو تفسير.

وعند أبي الحسن علي الآمدي، يُرى الحيز عنده: "بعد قائم لا في المادة من شأنه أن يملأه" (سمار، 2014، صفحة 24)، فهو لا يفرق بين مصطلحي المكان والحيز، وهذا كثير في كتب الدارسين، ولو نظرت إلى دراسة الباحث حسين مناصرة الموسومة بـ (مقاربات في السرد)، تراه لا يفرق في دراسته بين المكان والفضاء والحيز (مناصرة ح.، ب.ت، صفحة 243)، ولعل هذا ما ذكره حسن نجمي، عائد إلى مرجعهم الأول في هذه المصطلحات، وهو غالب هلسا، الذي جعل الدارسين من بعده يتخبطون في هذه المصطلحات (نجمي، 2000، صفحة 43).

إن أكثر من شدد على استخدام مصطلح الحيز، وبحث في الفرق بينه وبين المكان والفضاء، هو الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه (في نظرية الرواية)، وكما ذُكر سابقا، فقد خصص فصلا كاملا يتحدث فيه عن مصطلح الحيز، وآثره على غيره من المصطلحات، فقال: "مصطلح "الفضاء"، من منظورنا على الأقل، قاصر بالقياس إلى الحيز؛ لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخواء والفراغ؛ بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء، والوزن، والثقل، والحجم، والشكل" (مرتاض، 1998، صفحة 121)، وقد تطرق إلى تفضيل الغرب استعمال مصطلح الحيز، بدلا من المكان أو الفضاء (مرتاض، 1998، صفحة 121).

يُفهم من كلام مرتاض أن الحيز عنده تستطيع قياسه، فهو يقاس بالوزن أو الحجم، وله شكل، ولا يجوز أن يكون فارغا خاويا كالفضاء، الذي يكون –من وجهة نظره– خاليا من أي شيء، ولا يمكن أن يقاس بوحدة قياس، وليس له شكل محدد يُعرف به.

يورد مرتاض في دراسته الحديث عن مظاهر الحيز، ويقسمه إلى قسمين، هما:

أولا: المظهر الجغرافي: ويقصد به الجغرافيا التي تتحرك فيها الشخصيات، وتتفاعل معها، ولكنه يفرق بين الحيز والجغرافيا، بأن الجغرافيا وظيفتها وصف وشرح الحيز الطبيعي والإنساني لوجه الأرض، بينما الحيز أكبر من الجغرافيا طولا وعرضا وارتفاعا وفي كل الصفات (مرتاض، 1998، صفحة 123).

ثانيا: المظهر الخلفي: ويسميه أيضا بـ (المظهر غير المباشر)، وهو الدلالة على الحيز بعبارات، وتراكيب غير مباشرة، أي دون ذكر المكان، كالجبل، والبيت، والنهر ... إلخ، بل بعبارات تحمل إيحاءات على الحيز، مثل: دخل، خرج، أبحر ... إلخ (مرتاض، 1998، صفحة 124).

يخلص الدارس مما سبق إلى أن الحيز في السرد يشير إلى المكان الذي يحدث فيه الحدث أو القصة، والزمان الذي يحدث فيه الحدث أو القصة. وبشكل أوسع، فإن الحيز يشير إلى البيئة والظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي تحدث فيها الحدث أو القصة.

عندما يتم وصف الحيز في السرد، فإن ذلك يساعد القارئ على تصور الأحداث وفهمها بشكل أفضل، كما أنه يعزز الجو العام للقصة. فعلى سبيل المثال، إذا كانت القصة تحدث في بلدة صغيرة في الريف، فإن ذلك سيختلف تماما عن القصة التي تحدث في مدينة كبيرة ومزدحمة.

كما ويمكن أن يؤثر الحيز في السرد على المزاج والطابع والنغمة العامة للقصة، وقد يلعب دورا هاما في تطور الشخصيات وما يتعلق بها من تفاصيل، لذلك، فإن تصوير الحيز بشكل جيد يعد جزءا مهما من السرد الفعال.

إن الحيز في السرد عنصر مهم جدا لتطوير الحبكة والشخصيات والأجواء في القصة، ومن خلال وصف الحيز بطريقة دقيقة وواقعية، يمكن للمؤلف إيصال رسالة أو إشارة للمتلقي حول الموضوع الذي يريد تقديمه.

إضافة إلى ذلك، فإن الحيز يمكن أن يساعد على إنشاء عالم واسع ومتنوع يعمل كخلفية للأحداث الرئيسة في القصة، ومن خلال تفاصيل الحيز، يمكن للمؤلف إظهار مفاهيم مثل: الطبقية، والعنصرية، والجندرية، وكذلك، تأثير الثقافة والتاريخ والبيئة على الشخصيات والأحداث.

ويمكن أن يساعد الحيز أيضا على خلق جو مثير وشائق للقراءة، حيث يمكن للمؤلف إيصال الأحداث والتوتر بشكل أكثر واقعية من خلال وصف الحيز بطريقة توضح التفاصيل الهامة والمثيرة، وعندما يتم تناول الحيز بشكل جيد في السرد، يمكن للقراء أن يشعروا وكأنهم يعيشون الأحداث ويشاهدونها بأنفسهم.

وفيما يلي تلخيص للمصطلحات الثلاثة التي سبق ذكرها:

1. مفهوم المكان (Place): يشير المكان للموقع الجغرافي، أو الموضع في العالم الحقيقي، مثل: القرية، المدينة، القارة ... إلخ، أو قد يشير إلى المكان أو الموضع أو البقعة التي تدور فيها الأحداث في العمل الأدبي والروائي، مثل: الغرفة، الشاطئ، الحديقة ... إلخ.
2. مفهوم الفضاء (Space): يشير الفضاء إلى المساحة الخالية والفراغ الذي يحيط بالشيء، أو بالمكان، ويمكن أن يكون الفضاء هو المساحات الخالية والفارغة في العالم الحقيقي، مثل: الفضاء الجوي، أو المساحات الفارغة والخالية في العمل الأدبي والروائي، كالفراغ بين الكلمات، والأحداث، والشخصيات.
3. مفهوم الحيّز (Setting): يشير إلى مجموعة من العوامل البيئية، والظروف التي تحيط بالشخصيات، والأحداث في العمل الأدبي والروائي، وتتضمن المكان، والزمان، والفضاء، والثقافة، والتاريخ، والمجتمع، والظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. ويقوم الحيز بخلق جو مبدع في العمل الأدبي، ويضفي نوعا من التشويق والعمق على الأحداث، والشخصيات.

2.4 مفهوم المكان في الرواية

تُعد الرواية العربية جزءًا من التراث الأدبي العربي، وهي شكل من أشكال الكتابة والتأليف، حيث تشكل بحرًا يبحر فيه الكاتب بأفكاره وآماله ومشاعره وأحاسيسه، وتمتاز الرواية العربية بأنها متنوعة بالأساليب والموضوعات التي تُكتب فيها، فهي شاملة لكل مناحي الحياة، وتعكس صورة المجتمع في الوقت الذي كتبت فيه.

تطورت الرواية العربية عبر السنين من خلال الإبداع والكتابة، ولا شك أن الرواية لم تكن موجودة في التراث العربي، وكانت مشهورة عند الغرب، ثم أخذها العرب منهم، ويعد أول ظهور للرواية في التراث العربي في بداية القرن العشرين على يد الكاتب المصري محمد حسين هيكل برواية موسومة بـِ (زينب)، التي كتبها على

غرار رواية (جولي) للكاتب الفرنسي جان جاك روسو، ثم أخذت تتطور وتتغير إلى أن أصبحت من أكثر الفنون الأدبية انتشارًا في الوطن العربي.

يختلف مفهوم المكان بشكل عام عن مفهومه في الرواية العربية، حيث إن الاهتمام بالمكان في الرواية العربية ينبع من كونه من أهم العناصر الروائية أو السردية، فلا بد للدارس أن يدرس عناصر السرد ويحللها، كالزمان، والمكان، والشخصيات ...إلخ.

لا شيء يحدث بلا مكان، فالإنسان مرتبط بالمكان مذ كان في رحم أمه، ولا يستطيع الانفصال عن المكان للحظة، وكذلك الأمر في السرد، فالمكان عنصر مهم لا تتم أحداث العمل السردي دون وجود للمكان، فهو ليس بعدًا جغرافيًا فحسب، بل جزء حيوي يسهم في تفاعل العناصر السردية، ونقل الجوانب الثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها، لكن، يجب أن يفرق الدارس بين المكان في الواقع والمكان في العمل السردي أو في الرواية، يذكر ميشيل بوتور المكان في الرواية، ويصفه بأنه عالم خيالي من صنع الكاتب، يختلف عن العالم الحقيقي الذي يعيش فيه القارئ، والأماكن فيه تختلف عن الأماكن في العالم الواقعي (Michel, 1969, pp. 48-58).

من هنا يظهر أن المكان في الرواية له مفهوم وأبعاد مختلفة عن الواقع، فهو مكان تخيلي، يتخيله المؤلف لتدور فيه الأحداث وتتم، والمكان هو العنصر الذي تتفاعل معه الشخصيات وباقي عناصر الرواية ليخرج العمل الأدبي، وفيه يظهر المضمون السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعاطفي. وذكرت الباحثة نسرين النيرب في حديثها عن المكان بأنه "الوعاء الذي تقع فيه الأحداث والمساحة التي تتحرك فيها الشخصيات" (النيرب، 2017، صفحة 148).

بعد هذا العرض، يمكن أن يُعرف المكان في الرواية بأنه البعد المتخيل الذي يرسمه الكاتب في مخيلته ويمثله في الرواية، وهو الإطار الذي تتفاعل فيه عناصر السرد مع بعضها البعض لتعكس الرؤيا والأفكار والأحداث المرجوة من الرواية وتخرج عملًا متكاملًا.

2.5 تاريخ المكان

من المدهش حقًا أن تتحدث الأمكنة وتتخاطب، وأن تحدث القصص التي مرت عليها عبر الزمن، وما تقادم عليها من أحداث، والتي شكلت شخصية المكان التي لا تكاد تكون مرئية، فسيتذكر أطفال فلسطين الكوارث التي تمر عليهم منذ عام 1948م –إن جاز البدء من هذا التاريخ–، وسيتذكر أطفال سوريا ما مروا به، وأطفال اليمن، وليبيا، والسودان، والصومال، والعراق، وكل الأمكنة العربية، لن تغيب عن ذاكرتهم كيف كانوا يعيشون بأمان واطمئنان، وفجأة، تغيرت الأحوال وتبدلت، فوقعت الحروب، وحلّ الدمار، وتفرقت الجثث، وغيرها من المشاهد المؤلمة التي تمر على الأجيال، فلن تغيب عن ذاكرتهم هذه الأهوال.

دار حديث بين الباحث وبين أحد الأصدقاء، فقال له: أتعجب مما حل بسوريا في السنوات الأخيرة، لقد كانت تنعم بحياة كريمة، وخير وفير، وأمن كثير، فتبدل حالها من الأمن والأمان والاستقرار، إلى الحرب والدمار والتشتيت، فكنت تسير في الشوارع، ترى الناس فوق بعضهم البعض من شدة الزحام، وترى الاكتظاظ في المحلات التجارية، والمحلات الغذائية، وفي خلال أيام، أصبحت تعاني من حرب ودمار، وقلة في الخيرات، وانتشرت المجاعات في بعض المناطق، وأصبح المشهد السائد بشكل كبير، هو مشهد سقوط الصواريخ على المباني والأحياء، فسبحان الله كيف تتبدل الأحوال! وبالفعل، صدق من قال: سبحان مغيّر الأحوال! الذي يغيّر من حال إلى حال!

لطالما فكر الدارس في حالة المكان وما يطرأ عليه من تغيرات، وخاصة، أن التاريخ يهتم للتغيرات التي تطرأ على الأشخاص، وتبدل أحوالهم، ولا يهتم بتسجيل أحوال المكان، وتغيراته، فمن الأجدر أن يُكتب في (سِيَرِ المكانِ)، كما يُكتب في سير الأشخاص، انظر إلى التاريخ الفلسطيني، تجد قرى كثيرة دمرت، وهجّر سكانها، وأصبحت خاوية على عروشها، أو مُسحت عن الخارطة، كالظاهرية التحتا (أبو مايلة، 2002، صفحة

26)[1]، والمنشية (أبو مايلة، 2002، صفحة 42)[2]، وحدثة (أبو مايلة، 2002، صفحة 43)[3]، وصفورية (أبو مايلة، 2002، صفحة 52)[4]، وأبو شوشة (أبو مايلة، 2002، صفحة 56)[5]، والطنطورة (أبو مايلة، 2002، صفحة 64)[6]، والأشرفية (أبو مايلة، 2002، صفحة 69)[7]، وزرعين (أبو مايلة، 2002، صفحة 79)[8]، وغيرها من القرى. وبما أن فلسطين في حالة حرب دائمة، فهناك كثير من المدن والقرى التي دمر أجزاء منها، أو كلها، فعادت وولدت من بين الدمار من جديد، وأصبحت أفضل من ذي قبل.

بما أن الإنسان يعيش في حياته مع رموز، ويجعل كل ما حوله رموزا، فهو يتعامل مع كل شيء على أنه رمز؛ كي يسهل ذلك في ذاكرته، فالمكان أيضا يعد رمزا، أو دلالة، يتولد عنها شخصية متخيلة لهذا المكان، وعند رؤيتك لرمز أو علامة أو دلالة، فإنك تتذكر ما يخصها، وتشعر تُجاهها بمشاعر معينة، تحددها التجارب، والخبرات التي يملكها الشخص ذاته، فالأشخاص الذين يرون أماكن مدمرة مثلًا، تختلف مشاعرهم تُجاه هذه الأماكن حسب التجارب التي مروا بها سابقا.

والمكان بحد ذاته، يملك هُويتين على الأقل، واحدة تحددها طبيعة المكان المادية الأصلية، والأخرى تحددها سيرة المكان والمواقف والأحداث التي مرت عليه، فمثلًا، فلسطين تملك هُوية عربية تمتاز بعدة ميزات،

---

[1] تقع القرية في ظاهر مدينة صفد، في الجزء الجنوبي الغربي، وتبعد عنها 3 كيلومتر، ترتفع عن سطح البحر 700 متر، بلغت مساحتها 677 دونما، وبلغ عدد سكانها عام 1945م 350 نسمة.

[2] تقع القرية على بعد 3 كيلو متر شمال شرق عكا، وتبعد عن شاطئ البحر 2 كيلو متر. بلغت مساحتها 14886 دونما، وبلغ عدد سكانها 810 نسمة.

[3] تقع القرية جنوب غرب مدينة طبريا، تبعد عن شرق جبل الطور 10 كيلو متر، وترتفع عن سطح البحر 225 مترا. بلغت مساحتها 10340 دونما، وبلغ عدد سكانها عام 1945م 520 نسمة.

[4] تقع القرية على بعد 7 كيلو متر من شمال غرب مدينة الناصرة، وترتفع عن سطح البحر 275 مترا بلغت مساحتها 55378 دونما، وبلغ عدد سكانها 4330 نسمة، ودمرت، ثم أقيم على أراضيها مستعمرة تسيفوري عام 1949م.

[5] تقع القرية على بعد 25 كيلو مترا جنوب شرق حيفا، أنشئت على السفح الشمالي الشرقي لجبل الكرمل، تطل القرية على سهل مرج بن عامر، وترتفع عن سطح البحر 125 مترا. بلغب مساحتها 8960 دونما، وبلغ عدد سكانها عام 1945 م 7200 نسمة. دمرت، وتم ضم أراضيها لمستعمرة مشمار ها عيميك، التي بنيت غرب مرج بن عامر عام 1926م.

[6] تقع القرية على الساحل، وتبعد 3 كيلو متر جنوب حيفا. بلغت مساحتها 14520 دونما، وبلغ عدد سكانها عام 1945م 1490 نسمة. دمرت، ثم أقيم على أراضيها مستعمرة دور (موشاف) عام 1949م.

[7] تقع القرية جنوب غرب بيسان، وتنخفض عن مستوى سطح البحر 114 مترا. بلغت مساحتها 6711 دونما، وبلغ عدد سكانها عام 1945م 230 نسمة. دمرت، ثم أقيم على أراضيها مستعمرة شلوحوت عام 1948.

[8] كلمة سريانية تعني (مزارعون أو فلاحون)، وتقع القرية على بعد 11 كيلو مترا شمال شرق مدينة جنين، أنشئت على أراضي مرج بن عامر، وترتفع عن مستوى سطح البحر 75 مترا. بلغت مساحتها 24000 دونم، وبلغ عدد سكانها عام 1945م 1420 نسمة. دمرت، ثم أقيم على أراضيها مستعمرة يزرعيئيل عام 1949م، وهي مأخوذة من الاسم الكنعاني (يزراعيل).

كالمناخ المعتدل، والتربة الخصبة وغيرها، لكنها تملك هُوية أخرى تحددت بسبب ما مرت به فلسطين من حروب، وكوارث، واستعمار، واحتلال.

ليس الإنسان وحده من يتعرض للقتل والتشريد والتجريح، بل المكان أيضا يتعرض لذلك، ففي الحرب تتبدل الأماكن، ويصبح عاليها سافلها، ويمينها يسارها –إن صحّ التعبير–، فتتغير ملامح المكان، وتطرأ عليه تحولات تشوه في صورته وشكله، وهذا يؤدي إلى تغيير ملامحه عبر الزمن، حتى وإن تم ترميمه وإعماره، إلا أن ملامحه لن تعود كما كانت في سابق عهدها، ولن يذكر هذه التغيرات إلا أهلها، أو من تربطه بالمكان علاقة جعلته يعرف المكان ويحفظه، ويخزنه في ذاكرته، مما يجعله يشعر بالحنين لهذا المكان كلما رآه، أو سمع عنه.

2.6 العلاقة بين المكان والزمان

تعتبر العلاقة بين الزمان والمكان من العناصر الأساسية في السرد، فهي تساعد على تحديد إطار الأحداث وتوجيه القارئ أو المستمع لفهم أحداث القصة.

إن العلاقة بين المكان والزمان علاقة متلازمة، وكذلك مع عناصر السرد كلها، فلا ينفك المكان عن باقي العناصر؛ لأنه يتلاحم بها، وبمجموع علاقتها يتكون العمل السردي البديع، ولعل من أكثر العلاقات تداخلا وتشابكا علاقة الزمان بالمكان أو العكس، فما العلاقة بينهما؟

يذكر النعيمي في كتابه (إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة) حديثا حول هذه العلاقة، يبدأها بسؤال غريب، وهو لو أننا أفرغنا الساعة الرملية من الرمل، فما الذي حدث في هذه الحالة؟ هل الزمن نضب، أم المكان؟ (النعيمي أ.، 2004، صفحة 75).

إن المكان والزمان متلازمان لا ينفصلان أبدا، ومن الممكن أن تكون العلاقة بين الزمان والمكان وطيدة، فمثلا قد يعود شخص إلى حارته القديمة ليجدها قد تطورت وازدهرت وتغيرت معالمها، فيعتاد على هذا

التغير ويحبه ويألفه، وقد لا يعتاد عليه، ولا يحبه، ويبغضه، فعندها تكون العلاقة بين الزمان والمكان بغيضة، أو كعلاقة الجاني بالضحية، والمكان دائما ضحية الزمان، ومن الممكن أن تكون العلاقة بين الزمان والمكان قلقة متوترة، يخاف المكان من الزمان (النعيمي أ.، 2004، صفحة 76)، ولو لاحظت، ففي جميع الأحوال يكون الزمن هو المؤثر، والمكان هو المتأثر، وهذا الطبيعي، فالزمان هو المؤثر والمغير بالمكان دائما، كأنه يعبث به.

يشبه النعيمي العلاقة بين المكان والزمان بالعالم العاري والقوة شبه الخفية، فالمكان تستطيع أن تتحقق منه وأن تتصوره، وأن تلمسه، أما الزمان، فلا تستطيع التحقق منه، ولكنك تشعر به وبقوته، وبتأثيره على الأشياء والأماكن من حولك (النعيمي أ.، 2004، صفحة 76).

وهذا ما يتفق عليه حسن بحراوي في كتابه (بنية الشكل الروائي) عندما قال: "والحال أن المكان لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية ... وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد" (بحراوي، 1990، صفحة 26).

يكمل النعيمي حديثه فيتساءل إن كان المكان سيستسلم للزمان وقوته؟ لكنه ينكر هذا الاستسلام ويؤكد أن المكان يحاول الصمود في وجه الزمان، ومن ذلك بناء الأهرامات في مصر، ونحت مدينة البتراء في الأردن، فهو بهذا يعيش في زمن محدد، وكلما صمد في وجه الزمن زاد احترامه (النعيمي أ.، 2004، صفحة 79)، ولو انتقلت لغاستون باشلار، تراه يقول: "الأجسام الثابتة الأشكال الأشد استقرارا تدين باستقرارها إلى تنافر إيقاعي. فهي الأشكال الإحصائية لاختلال زمني؛ ولا شيء أكثر من ذلك. فبيوتنا مبينة في فوضى التموجات. ونحن نجلس على فوضى التموجات. والأهرامات التي وظيفتها التأمل في الأجيال المتكررة برتابة هي ترجيعات صوتية لا متناهية" (باشلار، 1992، صفحة 154)، هذا يعني أن الثبات والصمود في وجه الزمن

شكل من أشكال التموج، فإذا توقف الجسم عن التموج توقف عن الوجود؛ لأن التموج هو طاقة الوجود، وبدونه لا يكون الوجود (باشلار، 1992، صفحة 154).

تقول أمينة رشيد في كتابها (تشظي الزمن): "لكل رواية إذن علاقة خاصة ترتبط بين الزمان والمكان من ناحية، والزمان والشخصية من ناحية أخرى؛ أي بين حاضر الشخصية وماضيها. وتتسم هاتان العلاقتان بمجموعة من القيم الجمالية والاجتماعية التي تشكل فضاء الرواية" (رشيد، ب.ت، صفحة 10).

وأخيرًا، فإن العلاقة بين الزمان والمكان في السرد لها دور مهم في إنشاء جو، وأجواء واقعية في القصة، فالزمان والمكان يمكن أن يؤثرا بشكل كبير على المشاعر والأفكار التي يثيرها النص، وعلى تفاصيل الأحداث التي تتكشف في القصة، وفيما يتعلق بالزمان، فإن ترتيب الأحداث والتوقيت يمكن أن يتغير وفقًا للغرض من السرد والأسلوب المستخدم، فالعودة إلى الوراء في الوقت، والتي تسمى (الفلاش باك) يمكن أن تساعد على فهم الشخصيات وتطورها، بينما يمكن استخدام ما يسمى بتقنية (الفلاش فورورد) وهي التنبؤ بالمستقبل؛ لبناء التوتر والتشويق.

أما بالنسبة للمكان، فإن وصف التفاصيل الجغرافية والمناخية يمكن أن يساعد في نقل القارئ إلى عالم القصة وإنشاء جو مناسب، ويمكن أن يشير المكان إلى معاني مخفية، فعلى سبيل المثال، يمكن للبيئة الاجتماعية والاقتصادية في المكان الذي تجري فيه القصة أن تكشف عن تفاصيل حول الشخصيات أو عن مسألة اجتماعية أو سياسية.

وقد يلاحظ أن المكان والزمان تستخدمان في العديد من الروايات والقصص كأداتين لتحديد الجوانب المختلفة للقصة، فمثلا، يمكن استخدام المكان لتوضيح الحالة النفسية للشخصيات، والزمان للإشارة إلى تغير الشخصيات وتطور الأحداث.

وبشيء من الإجمال، تستطيع القول: إن الزمان والمكان يساهمان في إنشاء الأجواء والمشاعر التي يريد الكاتب أن ينقلها إلى القارئ، فمثلا، يمكن استخدام المكان لخلق جو من الرعب أو الإثارة، أو الزمان لإعطاء شعور بالحنين للماضي أو الحماس للمستقبل.

وبالتالي، فإن الزمان والمكان يمكن أن يساعدان في خلق عالم خيالي يسهل على القارئ فهم القصة والشخصيات والأحداث، ويمكن أن يستخدما أيضًا لإيصال رسائل معينة أو مواضيع عميقة.

2.7 العلاقة بين المكان والشخصيات

يعد المكان من أهم عناصر السرد في العمل الأدبي، فهو يتفاعل مع باقي العناصر؛ ليخرج عملا فنيا مبدعا، والمكان لا يجوز له أن ينفصل عن باقي العناصر، وهذا ما ذكره الباحث في حديثه عن علاقة المكان بالزمان، فالعلاقة بين المكان وباقي العناصر تلازمية، فالمكان هو الساحة التي تدور فيها الأحداث، والتي تتفاعل فيها الشخصيات، ودائما ما تُفهم الشخصية من المكان الذي تتواجد فيه، وتتفاعل معه، وكثيرا ما يسقط الكاتب أفكارا أو أبعادا نفسية أو اجتماعية أو سياسية من خلال المكان وتفاعل الشخصية معه.

يرى جيرار جينت: "إن حركة الحدث الروائي في النص السردي لابد أن تنتظم ضمن منظور مكاني يحيط بالحدث، بمعنى أنه لا يمكن أن تدور أحداث رواية ما دون تصور مدلولات واضحة لأماكن الأحداث، وما تركه هذا المكان من أثر في بناء شخصيات الرواية، وفي اختيار نظم علاقاتها وردود أفعال أبطالها" (جينيت و وأخرون، 1989)، فمن هنا يؤكد جينت أن العلاقة بين المكان والشخصيات متلازمة، وأن المكان يؤثر على الشخصية ويتفاعل معها، وذكرت باديس فوغالي أن المكان ليس ديكورا بل له وظيفة مهمة يؤديها في العمل السردي، وهو طرف رئيس من أطراف العمل الأدبي، فهو لا يعيش منعزلا عن باقي العناصر، بل يتفاعل معها بعلاقات تربطه بباقي العناصر، كالشخصيات، والأحداث، وبدونه لا يمكن فهم الدور النصي داخل السرد (دليمي، 2014، الصفحات 80-81).

يقول جورد بولي في كتابه: "إن المكان يرتقي بالكائن فيه إلى المستوى الذي يجعله يندمج فيه، مثلما يسر الكائن إلى المكان الذي يوجد فيه بشيء من وحدته الخاصة، وهو نوع من التبادلات بين الأشخاص والأمكنة" (نجمي، 2000، صفحة 140). ويعلق حسن نجمي بقوله: "يصبح المكان، بمعنى ما، شريكا حقيقيا للشخصية في الفعل الروائي" (نجمي، 2000، صفحة 140)، أي أن المكان يتشارك مع الشخصية في العمل الروائي؛ لأنهما يؤثران ببعضهما البعض، فالفعل الناتج من الشخصية يكون بتأثير المكان عليها.

يرسم المكان ملامح الشخصية في العمل السردي، ويكون ذلك من خلال "تحديد الملامح العامة للشخصية وتميزها عن غيرها، حيث الأمكنة تنتج شخصيتها المتمايزة والمختلفة: الشخصية الصحراوية، الجبلية، المدنية، حيث كل منها تناصب الآخر الاختلاف والتغاير في المستويات الجسدية والفنية والاجتماعية" (سمار، 2014، صفحة 44).

وبشكل أوضح، قد يكون تأثير المكان على الشخصية إيجابيا، وقد يكون سلبيا، فالغربة مثلا، ستكسب الشخصية مشاعر الحزن والأسى، ويكون التأثير سلبيا على الشخصية، لأن المكان انعكس عليها وعلى تصرفاتها، فأصبحت مرآة تعكس ما تراه وتعيشه، ولو كانت الشخصية في الوطن مثلا، أو في مكان تحبه، فسينعكس ذلك إيجابيا على تصرفاتها وأفعالها وأقوالها، وهذا ما يُقصد به تأثير المكان على الشخصيات.

إن النظريات النفسية تميل إلى أن البيئة أو المكان من الممكن أن يؤثرا على شخصية الشخص وسلوكه بشكل كبير، وبالتالي، يمكن أن يكون للمكان دور مهم في تطوير الشخصيات في السرد.

في الأدب، يمكن أن يكون المكان جزءًا من الأحداث والأعمال التي تحدث في الرواية، وقد يشير إلى الحالة النفسية للشخصيات، فعلى سبيل المثال، يمكن أن يشير وصف المكان إلى الشعور بالاضطراب أو الخوف أو الإثارة، وقد يكون للمكان دور في تطور شخصية الشخصية، فمثلًا، قد يتغير شخص ما بعد أن يتغير المكان الذي يعيش فيه.

بالإضافة إلى ذلك، يمكن للمكان أن يعكس الجوانب المختلفة من الشخصيات، فمثلًا، يمكن أن يكون المكان مظهرًا للثقافة والأصالة أو الحداثة والتقدم، وهذا يمكن أن يرتبط بشخصية الشخصية التي يعيش في هذا المكان، ويمكن أن يكون المكان معبرًا عن الهوية الشخصية للشخصيات في السرد، والذي يعكس تفاصيل حياتهم وطريقة عيشهم. أي يمكن القول: إن المكان له دور كبير في تطوير الشخصيات في السرد، ويمكن استخدام وصف المكان والبيئة والظروف المحيطة بها للكشف عن شخصية الشخصيات ومشاعرهم وأفكارهم وسلوكهم.

يستطيع المكان أن يكون العنصر الأكثر تأثيرًا على الشخصيات في السرد، فالمكان يمكن أن يؤثر على الشخصيات بشكل مباشر أو غير مباشر، ويمكن أن يتغير بمرور الوقت بطريقة تؤثر على شخصيات الرواية. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون المكان هو العامل الرئيس الذي يشكل شخصية الشخصية، فمثلًا، إذا كان الشخص يعيش في بيئة معينة، فقد يكون قويًا أو ضعيفًا أو ذكيًا أو غير ذلك بسبب تأثير المكان على نموه النفسي، ويمكن أن يؤثر المكان أيضًا على السلوك والتصرفات والقرارات التي يتخذها الشخص، فإذا كان المكان مريحًا وآمنًا، فقد يتصرف الشخص بشكل مختلف مما إذا كان المكان مجهولًا وغير آمن.

بالإضافة إلى ذلك، يمكن للمكان أن يكون عنصرًا أساسيًا في التطور والنمو الشخصي للشخصيات في السرد، فمثلًا، قد يسافر الشخص إلى مكان مختلف ويواجه تحديات جديدة ويتعلم من الخبرات الجديدة، وهذا يمكن أن يؤثر بشكل كبير على تطور شخصيته.

وأخيرا، إن المكان هو العنصر الأساسي في إنشاء شخصيات متنوعة ومثيرة في السرد، ويمكن استخدامه بشكل فعال لتحديد تفاصيل الشخصيات وتصفية شخصياتهم وجعلها أكثر واقعية.

2.8 العلاقة النفسية بالمكان

تقول هيام شعبان: "يرتبط الإحساس بالمكان بمزاجية الإنسان إذ توجد بين الشخصية والمكان علاقة تأثير وتأثر من خلال أن المكان يستطيع أن يكشف النقاب وينفض الغبار عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر أو الروائي" (دليمي، 2014، صفحة 80)، أي أن الإنسان يرتبط بالمكان بعلاقة نفسية، أو بمعنى أصح، إن المكان يوثر على الحالة النفسية للشخصية.

العلاقة النفسية بالمكان هي التي تربط بين الفرد والمكان الذي يعيش فيه، أو يزوره بشكل متكرر، أو يألفه، فالمكان يمثل البيئة الفعلية التي ينمو ويتطور فيها الفرد، ويؤثر بدوره على مختلف جوانب حياته النفسية والعاطفية والاجتماعية.

فالمكان يمكن أن يثير في الفرد مشاعر الامتنان والارتياح والسعادة إذا كان يحمل ذكريات إيجابية مرتبطة به، أو إذا كان يوفر له بيئة هادئة ومريحة تساعده على الاسترخاء والاستجمام، وعلى العكس من ذلك، يمكن أن يثير المكان مشاعر القلق والتوتر والضيق إذا كان يشكل مكانًا غير آمن أو غير مألوف للفرد.

كما أن المكان يؤثر على مدى تطوير الفرد ونموه النفسي والاجتماعي، فمثلًا، يمكن أن يكون المكان مصدرًا للتحفيز والتشجيع على الاكتشاف والتعلم والتطوير، وهذا ينعكس إيجابيًا على صحة الفرد النفسية والعاطفية، وعلى العكس تمامًا، يمكن أن يكون المكان مصدرًا للرتابة والملل والإحباط، مما يؤثر سلبًا على حالة الفرد النفسية ويزيد من احتمالية الإصابة بالاكتئاب والقلق.

هذا يعني أن العلاقة النفسية بالمكان تتأثر بعدة عوامل، منها ما هو داخلي للفرد مثل: الثقافة، والخلفية العاطفية والنفسية، ومنها ما هو خارجي مثل: البيئة المحيطة بالمكان، والتجارب السابقة المرتبطة بالمكان.

ويمكن للفرد أن يتأثر بالمكان بعدة طرق، منها:

1. الارتباط العاطفي: يمكن للفرد أن يرتبط عاطفيًا بالمكان، سواء كان بسبب أشخاص يرتبط بهم، أو بسبب ذكريات تربط الشخص بالمكان، فتجعله متعلقا به، كوجود الفرد في وطنه، وبين أهله.
2. الأمان والراحة: يشعر الفرد بالأمان والراحة والطمأنينة في المكان إذا كان مألوفا إليه، وكان يعرفه، كوجود الشخص في بيته.
3. الأنشطة والهوايات: يمكن أن يتأثر الفرد بالمكان ويرتبط به؛ لوجود أنشطة أو هوايات في المكان، جعلته يداوم على هذا المكان، ويشعر وكأنه جزء منه، كوجود الفرد في ناد رياضي.
4. الوظيفة والدراسة: قد يتأثر الفرد بمكان معين، ويرتبط به لعلاقة دراسة أو وظيفة، كأن يسافر الفرد لدولة أخرى؛ ليكمل تعليمه، أو يسافر؛ لوجود فرصة عمل أفضل له، وكثيرا ما يؤثر مكان التعليم أو العمل على الفرد، ونرى هذا بشكل جلي في مؤلفات الكتاب العرب، الذين يسافرون إلى دول جديدة، فيتأثر بالمكان الذي يسكنه وبثقافته وعاداته، وهذا ما يجعلنا ننتقل لنقطة جديدة.
5. الثقافة والتاريخ: من الممكن أن يتأثر الفرد بالمكان لإعجابه بثقافة المكان، أو تاريخه، فيرتبط به بعلاقة وطيدة، تؤثر على نفسيته، وتلعب دورا في اتخاذه لقراراته.

وقد تكون علاقة الفرد بالمكان علاقة متشابكة وعميقة، نابعة من عمق التجربة والاختلاط بالمكان، فهناك أمور من شأنها أن تؤثر على حالته النفسية، وعلاقته النفسية بالمكان، مثل: الانتماء للمكان، والذكريات، والتجارب، والعلاقات الاجتماعية، والتعليم، والطبيعة، وغيرها من الأمور التي قد تلعب دورا هاما في التأثير على نفسية الفرد.

2.9 جماليات المكان

يرتبط الأدب بالجمال في تكوينه وخلقه، فلا بد أن يتلاحم الجمال مع الأدب ليكون ناتجًا مرغوبًا، فالإنسان عادة ما يبحث عما هو جميل ويسعى إليه، وعلم الجمال هو فرع من فروع الفلسفة، يُعنى بالبحث عن كل ما هو جميل في شتى المجالات، ويدرس الجمال والفن والتجارب، ويهتم بفهم طبيعة الجمال وتأثيره على النفس الإنسانية، وبما أن الأدب علم ونتاج، فلا بد أن نبحث عن الجميل داخل الأدب، لكن الأدب بمفهومه واسع وكبير، وقد يضيع الدارس بين فنونه وأنواعه، لهذا بدأ البحث عن الجمال في الفنون الأدبية كل على حدة، ثم جاء تقسيم كل فن إلى عناصره الأساسية ودراسة الجمال في كل عنصر منها، وفي هذا العنوان، ستُدرس جماليات المكان في العمل السردي أو العمل الروائي.

تعكس جماليات المكان في الرواية العربية غنى التراث العربي والثقافي والتاريخي، وتسهم في تعميق فهم القارئ للروابط الداخلية بين المكان والعناصر والسردية في سير أحداث القصة، حيث تعبر جماليات المكان عن الجوانب الجمالية والفنية للأمكنة والمواقع الطبيعية والمتخيلة المذكورة داخل العمل الروائي، وتساعد في فهم الرواية وأحداثها.

تعتمد جماليات المكان في ظهورها على عدة عوامل، كالوصف الدقيق للأماكن، مما يساعد في فهم طبيعة المكان وإضفاء صورة جميلة في خيال القارئ تقرب إليه المكان في مخيلته، إضافة إلى علاقة المكان بالشخصيات، فالمكان يؤثر في الشخصيات وفي سلوكها، مما ينعكس على أحداث الرواية، ويخلق علاقة متبادلة بينهما تزيد من عمق العمل السردي، وكذلك الرمزية التي تضفي معاني جميلة إلى المكان وعلاقاته، والتطرق إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مما يخلق تفاعلا بين المكان وهذه الجوانب، ويجعل العمل أقرب إلى نفس المتلقي؛ لأنه يلامس حياته الواقعية. هذه بعض العوامل التي تخلق جماليات للمكان، وليست كلها.

لقد بحث باشلار في كتابه "جماليات المكان" عن هذا الموضوع بشكل موسع، وقد تحدث عن المكان باعتبار علاقاته مع الإنسان، وفي حديثه عن بيت الطفولة، فلا يمكن أن يكون البيت عند الإنسان مجرد أبعاد وأشكال هندسية فحسب، بل هو مرتبط بخيال الشخص ومشاعره وتقلباته وذكرياته، فهو جعل البيت نقطة الارتكاز في بحثه، يقول: "البيت هو ركننا في العالم" (باشلار، 1984، صفحة 36)، ولذلك نجد هذا المكان مرتبط بمخيلته لا يستطيع التخلي عنه، وكذلك كل الأماكن المأهولة تشبه بيت الطفولة، يقول: "كل الأمكنة المأهولة حقًا تحمل جوهر فكرة البيت" (باشلار، 1984، صفحة 36)، فلا بد لارتباط الإنسان بالمكان الذي يعيش فيه ويتفاعل معه، ويحلم فيه أحلام اليقظة بمأمن ودعة.

يربط باشلار بين البيت وبين كل شيء حولنا، ومن وجهة نظره أن البيت أساس كل شيء، والإنسان عندما ينظر إلى شيء بعدها تكون مرجعيته بيت الطفولة، البيت الذي عاش وترعرع فيه بكل تفاصيله، ولهذا يقول: "البيت جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول" (باشلار، 1984، صفحة 36)، ولا بد له من أن يحن ويقارن أي مكان بمكانه الخاص، أو بأماكن عزلته، فهي تصاحبه معها أينما حل وارتحل، وتعطيه أحاسيس ومشاعر عظيمة تجعله يفضل ذلك المكان القديم.

لقد رسم باشلار فلسفة في كتابه عن جماليات المكان، ربطت المكان بعلاقة وطيدة مع الإنسان، ولعل هذا الارتباط يعود إلى بعد نفسي أيضًا، فقد يعتبر الإنسان مكانًا ما مسالمًا يشعر فيه بالألفة والحنين، وآخر معاديًا يشعر فيه بالخوف والتنائي.

2.10 ذاكرة المكان الفلسطيني

إن الذاكرة المكانية من الأمور الأساسية في الحياة، فهي تمثل الهوية والأصالة للشعب، وبما أن الإنسان يتعامل مع كل ما حوله على أنها رموز، فإن الأماكن تمثل رموزا في حياة الإنسان وفي ذاكرته، فمن الممكن أن يكون الرمز بيتا، أو شارعا، أو مدينة، أو صحراء... إلخ.

إن أهمية الذاكرة المكانية نابعة من كون فلسطين تخضع لاحتلال غاشم، ينهب تراثها المادي والمعنوي، ويطمسه، ويحاول إثبات وجوده في الأرض الفلسطينية المقدسة، فمن هنا جاء الاهتمام بذاكرة المكان؛ لأن المحتل أزال أماكن عن الخارطة ومسحها عن الوجود، وهو يحاول بشتى الطرق أن يمسح الأماكن من العقول كما مسحها من الوجود، فكثير من المناطق والقرى غيّبت، ولكنها بقيت حاضرة في الأذهان والعقول، الأمر الذي جعل الفلسطيني يلجأ للذاكرة المكانية الفلسطينية، التي بقيت تحتفظ بالأماكن، وبصورها، وكل متعلقاتها.

ورد في لسان العرب عن مادة (ذَ كَ رَ): "الذكر: الحفظ للشيء تذكره. والذكر أيضا: الشيء يجري على اللسان" (ابن منظور، ب. ت، صفحة 157). قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾[الأحزاب: 21].

ومن مشتقات كلمة (ذَ كَ رَ) الذكر، والذكرى، والمذكر، والذاكرة ... إلخ. ويقابل مصطلح (الذاكرة) في العربية، مصطلح (Memory) في الإنجليزية، ومصطلح (Mémoire) في الفرنسية، ومصطلح (Gedächtnis) في الألمانية.

والذاكرة إذا، هي الحفظ، وفي عنواننا (ذاكرة المكان) نعني القدرة على الاحتفاظ بالأماكن في الأذهان وتذكرها. يقول أبو تمام (الطائي، 1942، الصفحات 2-4)[1] في قصيدته التي بعنوان (البين جرعني نقيع الحنظل) (الطائي، 1942، صفحة 387):

كـــم منـــزلٍ فـــي الأرض يألفـــه الفتـــى وحنينـــــــه أبـــــــدًا لأول منـــــــزل

[1] هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، ولد لأبوين فقيرين، وما كاد يشتد حتى أرسله أبوه لحائك في دمشق يتعلم عنده، ورحل إلى حمص، ومنها إلى مصر، وجد في طلب الرزق، وعمل في السقاية في المسجد الجامع بالفسطاط، فجالس الأدباء والعلماء، وثقف في الأدب، وخاصة في الشعر، فبدأ يقول الشعر حتى أجاده، وتوفي في محرم عام 231 هـ.

يؤكد أبو تمام على ارتباط المكان بالذاكرة، وهذا منذ القدم، فالمكان يرتبط بذاكرة الفرد، ويخزن فيها، ولا يمكن للإنسان أن ينسى الأمكنة التي ارتبط بها بعلاقة معينة، كالانتماء، أو الدراسة، وغيرها، ونهدف إلى إظهار الحضور القوي لفلسطين ومدنها وقراها من الذاكرة الفلسطينية عند شعراء فلسطينيين.

نماذج من الشعر الفلسطيني (طوقان ف.، 1993، الصفحات 471-472):

يا بعيداً، يا قريباً، نم على الصدر الذي

يفتحه "عيبال" من أجلك أسند

رأسك الشامخة اليوم إلى "القبة"

فالصخرة في القدس احتوتك الآن

حين الموت أعطاك الحياة

تستحضر فدوى طوقان في المقطع السابق جبل عيبال في قصيدتها التي بعنوان (على قمة الدنيا وحيدا)، والتي ترثي بها الشهيد وائل زعيتر (تلحمي، 1972، الصفحات 254-255)[1]، الذي يعد من معالم مدينة نابلس (جبل النار)، وتستعمل الشاعرة هنا أسلوب النداء؛ لتقريب المنادى، وكي تعطي نغمة حزن وأسى للقصيدة، وتحاول الشاعرة بث الحياة في الجماد، أي جبل نابلس، فتجعله حضنًا دافئًا يتلقف الشهيد، ويحنو عليه حينما قست عليه الحياة، وفي هذا ارتباط بين الإنسان والأرض، فالأرض هنا -أي نابلس- هي معادل موضوعي للأم التي تحتضن أبناءها وتحاول حمايتهم من كل مكروه.

[1] اسمه وائل عادل زعيتر، ولد في مدينة نابلس عام 1934 م، أبوه المحامي والمؤرخ عادل زعيتر، المعروف بلقب شيخ المترجمين العرب، شقيق الدكتورة نائلة زعيتر، المحاضرة في جامعة النجاح الوطنية، وعمه الأديب والسياسي أكرم زعيتر، كان متعلقا بالموسيقى والفلسفة، درس الهندسة في جامعة بغداد، لكنه طرد منها في عامه الثاني؛ بسبب نشاطه السياسي، حيث كان يحمل في داخله فكر الثورة، فرحل بعد طرده إلى الكويت، وعمل في دائرة المساحة، ثم رحل منها إلى ألمانيا، ثم إلى إيطاليا، ودرس الإيطالية، وأتقنها، وترجم منها عدة مؤلفات، منها (ألف ليلة وليلة). انضم إلى حركة فتح بعد حرب النكسة عام 1967 م، فانتخب ممثلا للحركة في روما، وبسبب نشاطه السياسي، اغتاله الاحتلال الصهيوني في 17 تشرين الأول من العام 1972 م، في مدخل شقته في هانيبال وسط روما، ولم يسمح بدفن جثمانه في مدينته نابلس، فدفن في مخيم اليرموك في دمشق.

وعند محمود درويش، تراه في قصيدته التي بعنوان (يوميات جرح فلسطيني) يقول (درويش، 1983، الصفحات 342-343):

نحن في حل من التذكار

فالكرمل فينا

وعلى أهدابنا عشب الجليل

لا تقولي: ليتنا نركض كالنهر إليها،

لا تقولي!

نحن في لحم بلادي.. وهي فينا!

يرفض محمود درويش التذكر وما يتبعه من بكاء وعويل؛ لأن البكاء لن يعيد الأوطان، بل تعاد بالمقاومة والتحدي، ولهذا يرفض درويش ذلك، ويستحضر الباحث في ضوء هذه الفكرة البيت الذي قاله أبو المظفر الأبيوردي، في قصيدة لرثاء بيت المقدس، قال فيها (الرقب، 1993، صفحة 36):

وشـــر ســـلاح المـــرء دمـــع يفيضـــه إذا الحـــرب شـــبت نارهـــا بالصـــوارم

ففكرة البكاء عند المصائب مرفوضة، خاصة في الحرب، وفلسطين في حالة حرب دائم مع المحتل الصهيوني، فلا ينفع بكاء، ولا عويل، بل تنفع مقاومة فقط، وإضافة إلى ذلك، يجعل درويش الكرمل جزءا من الفلسطيني، ولا ينسى الجليل أيضا، وهذا يعود إلى احتضان الوطن، فالوطن جزء من أبنائه، ويؤكد هذا في السطر الأخير عندما قال: "نحن في لحم بلادي.. وهي فينا"، فلا ينفك الفلسطيني عن أرضه، ولا يفصله عنها سوى الموت.

وعند سميح القاسم، في قصيدته بعنوان (إذا نسيت يا قدس)، يقول (القاسم، 1991، صفحة 620):

لتنسيني يميني

إذا نسيت القدس،[1]

ولتخلد على جبيني

وصمة عصر الموت والجنون

ولتنس وجهي الشمس

ولينعب البوم على صوتي وأطفالي وزيزفوني

إذا نسيت القدس!

يؤكد سميح القاسم على بقاء القدس حية في العقل والروح، وليس القدس فقط، بل الوطن كله؛ فالوطن يسكن الروح، ولا ينفصم عنها، ومهما حل، فلا ينفصل الفلسطيني عن أرضه وترابه، وهذا ما يشدد عليه الشعراء الفلسطينيون، فالأرض تعيش في أبنائها، وهم يعيشون فيها، ولا سبيل لنسيانها، فهم لا يحتاجون لتذكرها؛ لأنهم لا ينسونها، ولا تنفصل عنهم في كل وقت، وفي كل مكان. والكلمات في مطلع الأسطر الشعرية مصطلحات توراتية في الأصل، وقد وظفها الشاعر في قصيدته.

وعند راشد حسين على سبيل المثال، تراه في قصيدته التي بعنوان (وحي العراق)، يقول (حسين، 1990، الصفحات 307–308):

رأيـــــت جليلـــــي راقصًـــــا ومثلثـــــي وعكـــا تغنـــي حولهـــا المـــوج حالمـــا
تحييـــك يـــا بغـــداد حيفـــا وبحرهـــا وكرملهـــا يهـــدي إليـــك النســـائما
يحيـــي نخيـــل الرافـــدين صـــنوبر يقـــيم علـــى ســـفح الجليـــل مســـالما

يذكر الشاعر الفلسطيني مدنا فلسطينية هي (الجليل، والمثلث، وعكا، وحيفا، والكرمل)، وهذه المدن تقف وقفة عز وشموخ مع العراق الشقيق، إبان الثورة العراقية سنة 1958 م، وهي تمثل وحدة عربية، وقومية، لطالما نادى إليها الحكام، والسياسيون، والشعراء، وعامة الشعب، قبل قرن مضى، فالشاعر يؤنسن المدن

[1] مصطلحات توراتية كثر استعمالها في الشعر والأغاني العبرية، واستخدمها شاعرهم (حاييم بياليك) في شعره، وهي في الأصل من سفر المزامير، تقول العبارة في السفر: "إن نسيتك يا أورشليم، تنسى يميني!" (مز 137: 5).

الفلسطينية التي سبق ذكرها والعراق، ويجعلها تحيي بعضها البعض، وفي هذا دلالة على الفخر والعز والشموخ في الأراضي الفلسطينية على شقيقتها العراق، ولا شك أن الشعب الفلسطيني يقف داعما للبلد العربي –العراق– الذي يعد جزءا لا يتجزأ من البلاد العربية والأمة العربية.

أما عند معين بسيسو، ففي قصيدته بعنوان (المدينة المحاصرة)، يقول (بسيسو، 2008، صفحة 43):

هذي هي الحسناء غزة في مآتمها تدور

ما بين جوعى في الخيام وبين عطشى في القبور

ومعذّب يقتات من دمه ويعتصر الجذور

صور من الإذلال فاغضب أيها الشعب الأسير

فسياطهم كتبت مصائرنا على تلك الظهور

يتحدث الشاعر عن مدينة غزة المحاصرة من الاحتلال الصهيوني الغاشم، فهي كالأم الحنونة التي تتقطع على أبنائها، وتتفقد أحوالهم، فتجد منهم جوعى، ومنهم عطشى، ومنهم قتلى، ومنهم جرحى، فتتعذب لهذه المشاهد، ويعتصر الألم قلبها، فهذا الشعب العظيم في الأرض الفلسطينية المقدسة يعيش حالة من الذل والانكسار.

لم يعجب هذا المشهد معين بسيسو، فهو يطلب من الشعب أن يثور على الاحتلال الظالم، فكل ما يعانيه هذا الشعب إنما هو بسبب الاحتلال الصهيوني، فلماذا يرضى بظلمه واستعباده ويصمت، يجب عليه أن يثور، ويقاوم حتى يحقق النصر إن شاء الله، وإلا فلن يفك الفلسطيني أسره إن بقي راضيًا بوجود الاحتلال وظلمه.

2.11 الصراع على المكان بين الفلسطينيين وإسرائيل

يعيش الإنسان في عالم يتّصف ببعدين أساسيّين، هما: الزّمان والمكان، ففي هذين البعدين يعيش الإنسان وينمو، ويتطوّر.

والمكان تاريخيًّا موجود قبل أن يُخلق الإنسان، والإنسان بوجوده وكينونته في المكان يعيد تصويره وهيكليّته وتحويله إلى أشكال مختلفة تلائم احتياجاته الحياتيّة، والثّقافيّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة.

يكتسب المكان في الرواية أهميّة كبيرة، ليس لأنّه أحد عناصرها الفنّيّة فحسب، أو لأنّه المكان الّذي تدور فيه الأحداث، وتتحرّك خلاله الشّخوص فقط، بل لأنّه ينتقل في بعض الأعمال المميّزة من كونه عنصرا روائيّا فقط إلى فضاء يحتوي كلّ العناصر الرّوائيّة، بما فيها من أحداث وشخوص، وما بينها من علاقات، ويوفر لها الجوّ المناسب الّذي تحتاجه لتتفاعل فيه، ولتعبّر كلّ شخصيّة عن وجهة نظرها، وعمّا يجول بخاطرها من أفكار ونظريّات –في أغلب الأحيان– تعكس فكر الكاتب، وأراءه.

ولا شكّ من الاتفاق على أنّ المكان في الرّواية ليس المكان عينه في الواقع، حتّى لو صرّح الأديب بأنّ المكان في العمل الأدبيّ هو نفسه المكان الواقعيّ؛ وذلك لأنّ المكان في العمل الأدبيّ يحمل فكرة الكاتب، وأحاسيسه، وعواطفه، وتخيّلاته، وتنعكس الصّورة الذّهنيّة الّتي يتخيّلها الكاتب للمكان في الرّواية، فلا يمكن للكاتب ألّا يسقط تخيّلاته على العمل الأدبيّ، وهذه التّخيّلات لا تكون واقعيّة، ولا تفسد المكان الواقعيّ؛ لأنّها –في كثير من الأحيان– تضفي عليه رونقًا وجمالًا مميّزًا.

وفي صعيد الرّواية بين الأدب الفلسطينيّ والأدب العبريّ، فلا بدّ أن يتذكّر الجميع أنّ الاحتلال الصّهيونيّ يشكل تهديدًا كبيرًا للأرض الفلسطينيّة، فهو يحاول تهويدها بشتى الطّرق والأساليب، وهذا ما جعل ارتباط الفلسطينيّ بأرضه متأصّلًا ومتأجّجًا، وحروبه مع المحتلّ كانت من أجل المكان ومن أجل هذه الأرض الفلسطينيّة، الّتي تنتمي لأبنائها وينتمون إليها.

ولا شكّ أنّ المكان يشكّل أهميّة كبيرة لدى أبنائه، فالأرض الفلسطينيّة مقدّسة عند أبنائها، وتشكّل منبع الأحاسيس والمشاعر لديهم، فالإنسان مرتبط بالمكان الّذي ولد وترعرع فيه، وهو الهويّة الّتي ينتمي إليها أبناؤه.

إنّ الفلسطينيّ في جهاده ومقاومته ومقارعته للمحتلّ الصّهيونيّ، لم يترك وسيلة إلّا واتّبعها من أجل تحقيق هدفه في الدّفاع عن الأرض الفلسطينيّة، فقاوم بالسّلاح، وبالقلم، ولا أحد ينكر دور القلم في المقاومة، وفي شحذ الهمم، فقد شكّل سميح القاسم، وراشد حسين، ومحمود درويش، وتوفيق زيّاد ما اصطلح على تسميته (أدب المقاومة)، حيث لاحقتهم القوات الصّهيونيّة، وسجنتهم عدّة مرات، ما يثبت أهميّة هذا الأدب، ودور القلم في مصارعة المحتلّ.

فالصراع عند الفلسطيني في الدفاع عن أرضه مسألة عقيدة ودين، فهو مستعد لأن يفدي المسجد الأقصى بدمه وروحه، فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾[الإسراء: 1]، وقد وردت أحاديث كثيرة عن فضل المسجد الأقصى، وعن فضل الدفاع عنه، والرباط في أرض فلسطين، فالدفاع عن فلسطين واجب على كل مسلم، لكن الفلسطيني اختص بها لأنه ابن هذه الأرض، ومنها ولد وعليها يموت.

أما إسرائيل، فقد احتلت فلسطين بعد المحاولات المستمرة من (هرتزل)؛ لإيجاد وطن قومي لليهود، فاختاروا فلسطين بمساعدة بريطانيا، ثم استقطبوا اليهود في العالم عن طريق أمرين، الأول، إنشاء تاريخ مشترك بين اليهود في العالم؛ ليكون بينهم ارتباطًا يجمعهم، فلجأوا لأسطورة المحرقة التي قام بها هتلر بحق اليهود في أوروبا، والأمر الثاني، عزفوا على وتر الدين اليهودي، فنادوا بأسطورتي "شعب الله المختار"، و"أرض الميعاد" المذكورتين في التوراة، والتي اختلفت الرواية عنها بين التوراة والقرآن.

وفي ادعاء بني إسرائيل بين التوراة والقرآن، نوضح هذه المسألة ببعض النصوص من القرآن الكريم، ونصوص من التوراة، ففي التوراة مذكور أن الله تعالى أعطى إبراهيم (عليه السلام) وعدًا، بأن يعطيه الأرض من نهر النيل إلى نهر الفرات؛ لتكون أرضًا له ولذريته (لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات)[1]، وفي موضع آخر عندما يطلب بنو إسرائيل من الله أن يعطيهم ما وعدهم (أَشْرِفْ يَا رَبُّ مِنْ مَسْكَنِكَ الْمُقَدَّسِ فِي السَّمَاءِ، وَبَارِكْ شَعْبَكَ إِسْرَائِيلَ، وَالأَرْضَ الَّتِي تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً، الَّتِي وَهَبْتَهَا لَنَا كَمَا حَلَفْتَ لِآبَائِنَا)[2]، لكن ما جاء في القرآن الكريم يحرم بني إسرائيل من أرض فلسطين، كما يعرف الجميع، فإن بني إسرائيل رفضوا تنفيذ أمر الله –عز وجل– بدخول فلسطين ومقاتلة أهلها، فحرم الله تعالى عليهم الأرض، وحكم عليهم بالتيه أربعين سنة، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾[المائدة: 24–26].

[1] التوراة، سفر التكوين، الفصل 15، آية 18.

[2] التوراة، سفر التثنية، الفصل 26، آية 15.

الفصل الثّالث

المكان في الرّواية

3.1 رواية "برج اللّقلق"

صدرت رواية برج اللقلق للكاتبة الفلسطينية المقدسية ديمة جمعة السمان (عتيق، 2014، الصفحات 70-71)[1]، ونشرت الرواية عام 2016م، عن مكتبة "كل شيء"، وتقع الرواية في 466 صفحة.

تصور الرواية معاناة الشعب الفلسطيني منذ الحكم العثماني، مرورًا بالانتداب البريطاني (الإنجليزي)، وصولًا إلى الاحتلال الإسرائيلي، تحكي من خلال الرواية قصة الشعب الذي عانى وتكبد كثيرًا من الخسائر والأرواح، ولكنه يأبى إلا أن يكون عصيًّا على الانكسار أمام العدو في أي زمان، ومن أي مكان.

لقد مزجت الكاتبة الفلسطينية بين العمل الروائي والتأريخ، فقد جاءت الرواية في قالب تاريخي، تسرد على مسامع المتلقي أحداثًا تاريخية مرت بفلسطين وأهلها، وتوظف التاريخ مع عنصر التشويق؛ كي تخرج عملًا أدبيًّا مبدعًا، تنجذب إليه وأنت تقرأ، فهي تصور لنا الأحداث التاريخية بصورة مشوقة، فأظهرت الحالة العثمانية بالضعف الذي لاحظه العالم من خلال انعدام الأمن في بيت المقدس، وانتشار العصابات خارج الأسوار، وخوف الناس من الخروج خارج الأسوار ليلًا، والأمر ليس أحسن حالًا على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، فقد عمت البلاد مجاعة جعلت الناس تأكل بعضها البعض من شدة الجوع، وأظهرت شروخًا في علاقة الناس ببعضهم البعض، فكل منهم يريد مصلحته وقوت أولاده ولا يهمه غيره.

تكمل الروائية في روايتها، فتنتقل للحديث عن الثورة العربية الكبرى، ووعود بريطانيا للعرب بأن تعطيهم دولة إسلامية تضم جميع الدول العربية، ولكن سرعان ما غدرت بريطانيا بالعرب، فأبرمت اتفاقية (سايكس بيكو)

[1] ديمة جمعة السمان، أديبة وكاتبة وروائية فلسطينية، ولدت في مدينة القدس عام 1963م، حصلت على بكالوريوس لغويات من جامعة بيرزيت، ودبلوم عال في إخراج أفلام وثائقية صغيرة، أخرجت أفلاما وثائقية عدة تتحدث عن الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والتعليمي لفلسطين، وحصلت على جائزة أفضل رواية كتبت عن القدس لعام 2008 م، بمناسبة القدس عاصمة الثقافة لعام 2009م، وتم تكريمها من قبل ملتقى الأدبيات المقدسيّات عام 2009م من جامعة القدس، كما منحتها وزارة الثقافة الفلسطينية لقب شخصية القدس الثقافية للعام 2013م. ومن أعمالها الروائية: القافلة، والضلع المفقود، والأصابع الخفية، وجناح ضاقت به السّماء، وبرج اللقلق، وثنائية وجهٌ من زمن آخر، وبنت الأصول، ورحلة ضياع.

(زعيتري، 2022، صفحة 4)[1] بينها وبين فرنسا، التي جاء فيها تقسيم البلاد العربية في منطقة الهلال الخصيب على الدولتين الاستعماريتين، فتأخذ فرنسا سوريا ولبنان، وتأخذ بريطانيا العراق والأردن ومصر وفلسطين، تلاها إصدار وعد (بلفور) (النجار، 1961، صفحة 4)[2]، الذي ينص على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وهو النص الذي أملاه زعماء اليهود على بلفور (Mathieu, 1924, p. 274)، وفي بداية الانتداب البريطاني على فلسطين قامت بريطانيا بجلب الخيرات إلى فلسطين، وإغراق أهلها بالنعم، لكن هذه السراء لم تدم، فانقلبت الحال داخل البلاد، مما أدى إلى تردي الأوضاع في فلسطين، وانتشار المظاهرات، واندلاع الثورات والإضرابات؛ بسبب سياسة بريطانيا ضد الشعب الفلسطيني، واحتلال أراضيه، وتقديم التسهيلات للهجرات اليهودية، إلى أن هدأت الأوضاع قليلًا بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939م، التي أسفرت عن بدء تثبيت اليهود في فلسطين، وتجهيزهم ليكونوا خليفة بريطانيا في اغتصاب الأرض الفلسطينية.

ثم تنتقل الكاتبة –بعدها– للحديث عن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، والتدمير والقتل والمجازر التي قاموا بها، واحتلالهم لمدن الساحل الفلسطيني، ومحاولاتهم احتلال القدس عدة مرات، لكنهم فشلوا؛ بسبب صمود أبنائها، فلجأوا إلى تجنيد العملاء والخون لخدمة أهدافهم في القدس وسائر البلاد الفلسطينية، وكي يقوم العملاء بتنفيذ المهام لهم، كبيع الأراضي لليهود، ومهمات الاغتيال، وتسليم السلاح، والاعتراف على المجاهدين ... إلخ من الأعمال القذرة، وتستمر بالحديث عن نضال الشعب الفلسطيني في وجه الاحتلال الصهيوني، وما زال إلى اليوم في حالة جهاد ونضال مستمرتين.

[1] هي تفاهم سري بين فرنسا والمملكة المتحدة (بريطانيا)، بمصادقة من روسيا القيصرية، ينص على تقسيم منطقة الهلال الخصيب العربية بين الدولتين الاستعماريتين، على أن تأخذ بريطانيا العراق والأردن ومصر وفلسطين، وتأخذ فرنسا سوريا ولبنان، حيث تم التوصل إلى هذه الاتفاقية بعد مباحثات بدأت في نوفمبر عام 2015 م، وحتى مايو عام 1916م، بين ممثلي البلدين السير مارك سايكس بيكو عن بريطانيا، وجورج بيكو عن فرنسا، وسازانوف عن روسيا.

[2] هو الوعد أو الخطاب الذي أعطاه اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية على لسان حكومته للورد روتشيلد في الثاني من نوفمبر عام 1917م، جاء فيه: "يسرني كثيرا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضا والارتياح إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وإنها ستبذل خير مساعيها لتيسير الوصول إلى هذه الغاية، على أنه يجب أن يفهم فهما صحيحا أنه لن يسمح بإجراء ما من شأنه أن يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية التي تقيم في فلسطين، أو تمس الحقوق والمزايا السياسية التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى".

وتتعرض الرواية لبعض العادات التي كانت موجودة، وما زال شيئا منها إلى يومنا هذا، كالزواج التقليدي، وزواج البدل، وتقديس الأولياء الصالحين والتبرك بهم، وتبين بعض التغيرات التي طرأت على الحياة، كظهور بابور الكاز بدلا من الحطب، مما أدى إلى كساد في سوق بيع الحطب الذي كان يعمل به عبد الجبار، الأمر الذي دعا لتطوير المهن والحرف والصناعات؛ كي تتواكب والتطور الذي يطرأ على الحياة.

وفي النظر إلى الرواية، تلحظ أن الكاتبة قد أسقطت طباعها على الرواية، فالكاتبة فلسطينية مقدسية ولدت من رحم المعاناة التي يمر بها شعب فلسطين، وما يطرأ على الشعب الفلسطيني يطرأ على الكاتبة أيضًا، لذا، تجد النزعة الوطنية بارزة بوضوح في روايتها، وملامح شخصيتها تظهر من خلال شخصيات الرواية وما تحمل من أفكار.

تقدم الكاتبة روايتها إهداء لأرواح الشهداء العرب، فتقول: ""برج اللقلق" رواية أقدمها إلى أرواح الشهداء العرب، الذين تمتدّ جذورهم وتتواصل في عمق الأرض العربيّة من المحيط إلى الخليج.. وتنتشر قبورهم على مساحة هذه الأرض، لتصبح عنصرا من عظام وتراب يتعثّر فيه كلّ مستعمر استهان بالعروبة على مرّ التّاريخ" (السمان د.، 2016، صفحة 4).

1.1.1 ملخص الرواية

تدور أحداث الرواية حول آل عبد الجبار الذين تعود أصولهم إلى الحجاز في شبه الجزيرة العربية، وسكنت هذه العائلة بيت المقدس في زمن الفتوحات الإسلامية عندما جاءت مع جيوش صلاح الدين الأيوبي، واستقرت بها، وكانت العائلة تتبرك من قبر الشيخ علي عبد الجبار، الذي يعد مصدر خير وبركة للحي كله؛ فيأتونه ويطلبون منه أن يلبي لهم ما يشاؤون.

تبدأ الرواية مع الأب عبد الجبار –بطل الرواية–، وهو حفيد الشيخ علي، وكان قويا شجاعا تربى على الفضائل، وعلى الأخلاق الحسنة والإيثار، وعلى الدين الإسلامي، زوجته نفيسة، حكيمة وعقلانية، ومن

عائلة معروفة بعلمها، وورعها، وأخلاقها، ولكنها كانت تؤثر أبناءها على غيرهم، ولا تهتم بما يجري ما دام أبناؤها بخير، هناك شخصيات أخرى في الرواية كأصدقاء عبد الجبار أبي رعد وأبي الطاهر، وبعض أهل الحي، فالرواية تعج بالشخصيات. وتدور أحداث الرواية مع هذا الجيل حول أعقاب الحكم العثماني، وما أصبحت تعانيه البلاد من ظلم عثماني، وفساد، ومع دخول الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، ومشاركة الدولة العثمانية في الحرب، أصبحت البلاد تشهد نقصا في عدد الشباب؛ بسبب أخذهم للجيش، ثم ما لبثت أن شهدت مجاعة أُطلق عليها اسم (السفر برلك)، فأكل الناس فيها القطط والكلاب والزواحف، وكان عبد الجبار يجود بما عنده ليطعم أهل الحي؛ لأنه زعيم الحي وكبيره، إلى أن انتهت الحرب العالمية بهزيمة تركيا خاصة بعد قيام الثورة العربية الكبرى عام 1916م، بعد أن تحالف الشريف حسين مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية، فخرجت تركيا من البلاد تجر أذيال الهزيمة خلفها.

يبدأ عهد الانتداب البريطاني، ويكون عبد الجبار قد كبر ولكن بذرة المقاومة ما زالت فيه، فقاد الثورات، والاحتجاجات والإضرابات ضد بريطانيا، إلى احتلال فلسطين على يد اليهود، ويستشهد عبد الجبار، ويرث ابنه علي مسيرته النضالية ويكمل مشوار والده في المقاومة، فأصبح ينام في الكهوف مع الثوار، ويكبدون قوات الاحتلال الخسائر.

وتستمر المسيرة النضالية المشرفة لآل عبد الجبار، وخاصة عندما يقوم علي عبد الجبار بمساعدة رفاقه الثوار بالتصدي للقوات الصهيونية التي حاولت احتلال مدينة القدس، وتم القضاء عليهم، إلى أن يخرج من صُلب آل عبد الجبار شخص اسمه ليث، يعمل جاسوسا لدى الاحتلال الإسرائيلي، ويكون شره يعم حي برج اللقلق كاملا؛ بسبب أعماله الشيطانية التي يخدم بها الاحتلال، فيقوم بتسليمهم الشبان، وبيعهم الأراضي والبيوت، ويحاول تسليم ابن خاله ولكنه يفشل في ذلك، وتكون قد خرج عليه صيت العمالة، وحتى أخته شروق تنعته بالعميل، إلى أن يطلب منه الضابط الصهيوني قتل أمه؛ كي يبيعهم بيت العائلة، فهنا يشعر بالندم، ويتوب إلى الله –عز وجل–، ويتواصل مع أبناء خاله ويحسن علاقته بهم، ويجهز نفسه؛ كي يخرج

في عملية استشهادية، وقبل أن ينفذ العملية تقوم أمه بقتله؛ بسبب اكتشافها أنه يعمل خائنًا مع الاحتلال الصهيوني، ولكن سرعان ما تكتشف توبته ونيته عن تنفيذ عملية استشهادية، فتتحسر، وتقوم بتنفيذ العملية بنفسها؛ كي تحقق هدف ابنها الذي قتلته، وتلحق به.

3.1.2 ذاكرة المكان في الرواية

تركز الرواية بشكل كبير على مدينة القدس، حيث إنها الحيز الذي تدور فيه الأحداث، لكن هذا لا يعني عدم ذكر أماكن أخرى، بل يعني أن القدس لها الحصة العظمى في الرواية، ولعل التركيز على مدينة القدس جاء لسببين، الأول لكونها مدينة فلسطينية مقدسة تشكل رمزا دينيًّا ووطنيًّا، والثاني لكون الكاتبة مقدسية، فهي تركز على مدينتها التي تحبها.

رصدت الكاتبة بعض الأماكن الموجودة في مدينة القدس؛ كي ترسخ ذاكرة المكان وتحفظها للأجيال القادمة، فكل من يقرأ في الرواية، سيتعرف إلى الأماكن التي تطرقت إليها الكاتبة، ووظفتها توظيفًا فاعلًا في عملها الأدبي، ومن هذه الأماكن: برج اللقلق، وحارة باب حطة، وحارة باب الخليل، وبعض الحارات الأخرى، والقدس، ورام الله، وطولكرم، وبعض المدن الأخرى، وذكرت بعض القرى والأسواق، إضافة لذكرها بعضًا من الدول العربية والأجنبية، كالعراق، ومصر، وسوريا، وأمريكا، وبريطانيا، وفرنسا.

وكما أن التاريخ يُعد تسجيلًا للأحداث والمجريات، فإن الرواية التي تُعنى بالأمكنة تُعد تسجيلًا لتلك الأمكنة، فهي تصف ملامحها بشكل دقيق، ولو أن أجنبيًّا قرأ الرواية لتخيل المكان أمامه، كما أنها ترصد التغييرات التي تطرأ على المكان، فمن خلال مقارنة المكان في الرواية مع المكان الحقيقي تجد أن التغييرات الحديثة تكون ملحوظة، وذلك لأهمية الرواية في تسجيل الأماكن ووصفها، ولعل هذا ما تلاحظه كثيرًا في روايات الكاتب المصري نجيب محفوظ.

3.1.3 مدينة القدس

احتلت مدينة القدس –كما أسلف الباحث– حظّا وافرًا من الرواية؛ وذلك لأهمية المدينة التاريخية والدينية، ويعود ذلك الاهتمام لاحتوائها على المسجد الأقصى الشريف، فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأحد المساجد الثلاثة التي لا تُشد الرحال إلا إليها، والمدينة مهبط الديانات السماوية، ومن أقدم مدن العالم، هذه الأمور أكسبت مدينة القدس أهمية كبيرة لا يمكن التفريط بها.

نالت مدينة القدس مكانة عظيمة في مؤلفات الأدباء العرب، بغض النظر عن جنسياتهم، فمدينة القدس تحضر بقوة في شعرهم ونثرهم، سواء أكان أدبيًا أم اجتماعيًّا أم دينيًّا، وخير مثال على ذلك ما كتبه الشاعر تميم البرغوثي عن مدينة القدس، فقد لاقت القصيدة صدًى واسعًا بين أقطاب العالم العربي والإسلامي، وغيرها الكثير من المؤلفات الشعرية والنثرية التي تتناول عظمة القدس وقدسيتها وطهارتها وأهميتها.

تذكر الكاتبة في الصفحات الأولى الحرم القدسي وقبة الصخرة، حيث إن بيت عبد الجبار يطل عليهما، فعندما تراهما تبدأ بالتسبيح والتهليل عند رؤيتك القبة الذهبية؛ لقداسة المكان، فهو مقدس لدرجة أن يفديه أبناؤه بأرواحهم، وطاهر لدرجة إراقة دم العدو على عتباته لو أراد تدنيسه، والتركيز على اللون الذهبي هنا يعطي قيمة كبيرة أيضا، فالذهب من أغلى المعادن وأثمنها، وطلاء القبة باللون الذهبي –أي بماء الذهب– يدل على قداستها، فلولا ذلك لما وضع لها كل غال وثمين.

والناس يسعون لأداء الصلوات في الحرم القدسي ما إن سمعوا المنادي ينادي للصلاة، فهم أهل دين، يخافون الله ويتقونه، وفي ذلك تقول: "جاء البيت ليعلو قمة هضبته.. فباحة البيت تطل على ساحة الحرم القدسي الشريف من جهة الجنوب.. تغشاه ألوان الحلم وسماحة الزهد والخشوع ساعة الغروب.. حين تنعكس أشعة الشمس الأرجوانية على الصخرة الذهبية.. فيدرج اللسان بالتهليل والتسبيح والتكبير" (السمان د.، 2016، صفحة 5).

وجاء في الرواية ذكر الجبال المحيطة بالقدس، فالكاتبة تحاول رسم معالم القدس كاملة، وخاصة المعالم المحيطة بالمسجد الأقصى، وهي صورة حقيقة من داخل مدينة القدس، فالكاتبة مقدسية، وهي على معرفة كاملة بكل شبر في المدينة، فتبدأ بذكر جبل المكبر الذي وقف عنده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكبر، فسمي جبل المكبر، فالجبل يوحي بدلالة إسلامية، ويوحي بإيمان لله تعالى، وكان هذا الحدث عند استلام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مفاتيح القدس من البطريرك صفرونيوس، دون قتال أو مناوشات، ففيه عزة المسلم وشموخه، وهذا ما يميز سكان فلسطين عامة، وسكان القدس خاصة، صفتا الشموخ والعزة اللتان يكتسيان في وجه كل مقدسي شريف، يقف أمام المحتل لا يأبه به أو بعتاده وبعدته. تقول السمان: "وإذا رميت بنظرك من ناحية الجنوب أيضا فإنك ترى جبل المكبر الذي توقف عنده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. فكبر.. وكبر.. وكبر حتى أخذ هذا الجبل اسم (جبل المكبر)، وكان في استقباله بطريرك إيلياء صفرونيوس.. الذي جاءه مسالما مستسلما ليسلمه المدينة دون حرب" (السمان د.، 2016، صفحة 6).

ومن ناحية الشرق ترى جبل الزيتون، هذا الجبل الشامخ بأشجاره المباركة المعمرة، التي يفديها الفلسطيني بدمه وروحه، قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾[التين: 1]، وذكر في أحد الأحاديث، أن التين تعني مسجد نوح، والزيتون تعني بيت المقدس، فالزيتون مرتبط بالقدس ارتباطًا وثيقًا، والزيتون رمز من رموز الفلسطيني في حفاظه على أرضه وعرضه، وهو من الأشجار المعمرة، قد يصل عمر الشجرة –من بعض الأنواع– إلى أكثر من ألف عام، أي أن أصغر شجرة في فلسطين أكبر من وجود الكيان الصهيوني في فلسطين، فهي تقول في روايتها: "أما من ناحية الشرق، فإنه يطل على جبل الزيتون أخضرا يانعا يتبارك السكان من بعض أشجاره" (السمان د.، 2016، صفحة 6).

3.1.4 المكان الرئيس (برج اللقلق)

إن المكان الرئيس في الرواية يُسمى (برج اللقلق)، وهي منطقة تقع في حارة باب حطة في البلدة القديمة في بيت المقدس، وجاء اسم الرواية من اسم المكان الذي تدور فيه أحداث الرواية، وبرج اللقلق مكان حقيقي يقع

داخل مدينة القدس، وهو اسم أطلق على برج بني في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، وقيل إن البرج بُني على قاعدة لبرج آخر بُني زمن صلاح الدين الأيوبي لتحصين المدينة.

يتضح للقارئ أن السمان لم تختر اسم الرواية أو الحارة عبثًا، بل اختارته بوعي عميق عن التاريخ العظيم الذي يحمله الاسم، فهو مكان أثري وإسلامي قديم جدًّا، يوحي بقداسة وقدم المدينة المقدسة، ويصرخ بأحقية الفلسطينيين في هذه الأرض المقدسة.

وبرج اللقلق في حارة باب حطة مسكن آل عبد الجبار ومستقرهم، وقد اختارت الكاتبة أن تكون الحارة بجانب المسجد الأقصى المبارك؛ كي تزيدها تشريفًا وتعظيمًا، تقول: "هناك في الطرف الشرقي الشمالي لسور مدينة القدس العظيم. داخل عمق البلدة القديمة يقع بيت آل عبد الجبار.. في منطقة اسمها برج اللقلق من حارة باب حطة" (السمان د.، 2016، صفحة 5).

يعد هذا المكان مركز الأحداث في الرواية، ففيه تدور الأحداث وتتفاعل الشخصيات؛ لتنتج حبكة مشوقة تجذب القارئ وتحيك له الأحداث التاريخية بصياغة أدبية جميلة، فبرج اللقلق مكان آل عبد الجبار، الذين عرف عنهم الشجاعة والجرأة والوقوف في وجه الظلم والاحتلال، فمنذ مجيء جدهم الشيخ علي، كان هدفه تحرير بيت المقدس مع جند صلاح الدين الأيوبي، وفي عهد الانتداب البريطاني، خرج أبناء الأسرة يرفضون الاستعمار ويقاومون بريطانيا، وعندما بدأ الاحتلال الصهيوني، أكمل أبناء العائلة مقاومة العدو الصهيوني، ولم ييأسوا من تقديم الشهداء والجرحى والأسرى في سبيل تحرير القدس وسائر فلسطين، فبرج اللقلق كان منبع الثورة والثوار، يستعصي على العدو استئصاله واستئصال مقاوميه، فهو مثال لكل حي وحارة في فلسطين، وآل عبد الجبار مثال لكل عائلة في فلسطين أيضًا، فلا يكاد يخلو بيت من شهيد أو أسير أو جريح، وكله في سبيل تحرير الوطن.

3.1.5 أماكن أخرى داخل مدينة القدس

لساحات بيت المقدس نصيب في الرواية أيضا، فقد ذكرت ساحة باب الخليل التي تعج بالناس، وكما أطلقت عليها: "وساحة باب الخليل قلب القدس" (السمان د.، 2016، صفحة 12)، فهي القلب النابض بالحركة والنشاط، وهذه الساحة تقع في الجهة الغربية لسور القدس، وسمي كذلك نسبة لسيدنا إبراهيم (عليه السلام)، الذي لقب بخليل الرحمن، ويقال إن الغزاة إذا أرادوا غزو القدس يدخلونها من باب الخليل.

كما ورد ذكر السجن الذي قضى فيه عبد الجبار أسبوعًا بسبب الفوضى التي قام بها مع رجاله في ساحة باب الخليل، فكان السجن بمثابة كسر لهيبته وزعامته، إلى جانب أنها قضت على حريته، فمرض وتعب بسبب ما عاناه في السجن من ظروف ومعاملة من السجانين، فالكاتبة تعكس حال السجن الذي لا يتغير منذ مئات السنين، وبغض النظر عن الحكومات، فالسجن واحد، تقول الكاتبة: "حكم عليه بالسجن مدة أسبوع.. قضاها مريضًا في السجن" (السمان د.، 2016، صفحة 21).

بعد هذا الحدث وُجِد الضابط مصطفى مقتولًا في بريّة السواحرة في القدس؛ لأنه كان السبب في سجن عبد الجبار، وهذا المكان كان ذا طابع بريّ، يذهب إليه الرعيان مع مواشيهم، فهو مليء بالكهوف والطبيعة البرية، ولهذا كان مكانًا مناسبًا لفعل ما يحلو على البال من أمور خارجة عن القانون، تقول السمان: "جاء راع فأخبر عن وجود قتيل قرب بئر مهجورة في برية السواحرة جنوب شرق المدينة.. دخل عليه المساء.. فأراد أن يسقي غنمه ويلتجئ إلى أحد الكهوف فوجد القتيل" (السمان د.، 2016، صفحة 22).

ذكر الباحث في حديثه عن المكان في الفصل الأول، أن المكان يعبر عما يدور في نفس الكاتب أحيانًا، وأن تفاعل المكان مع الأحداث والشخصيات يكشف مكنونات في العمل الأدبي، فقد ذكرت الكاتبة منطقة في القدس تسمى (الهيدمية) (السمان د.، 2016، صفحة 26)، يكثر فيها القتل، والعصابات، والبطش، والتنكيل، ويسكنها الأشباح والأرواح –على حد تعبير الكاتبة–، وهذه المنطقة تقع خارج سور القدس مباشرة، وكان الناس يخافون الخروج خارج السور ليلًا، وخاصة إلى الهيدمية، ولعل في ذلك إشارة إلى سوء الأوضاع،

وتردي الأمن والأمان اللذين انعدما في نهاية فترة الحكم العثماني؛ لضعف الدولة آنذاك. لكن عبد الجبار اختار أن يعمل فيها ويستأجر أرضًا يجعلها محطبةً بعد أن صرف جميع المال الذي يملكه ولم يبق معه ما يصرفه على أبنائه. لكن الهيدمية تحولت لاحقًا إلى موقف للباصات بعد حرب النكسة عام 1967 م (السمان د.، 2016، صفحة 338).

ورد ذكر بعض الحارات الواقعة داخل مدينة القدس، فمنها حارة المغاربة التي عرفت بشجاعة رجالها، واستأجر منها عبد الجبار رجلًا يحرس المحطبة، فقالت الكاتبة: "أعرف رجلا قويا شجاعا يسكن في حارة المغاربة.. اسمه الغضبان" (السمان د.، 2016، صفحة 58)، وورد ذكر حارتين، عندما هبّ رجالهما لصوت الغضبان، فجاؤوا لمساعدته، وهاتان الحارتان هما حارة السعدية وحارة الواد، تقول السمان: "وكان قد تجمع بشر كثير من حارة السعدية وحارة باب حطة.. وحارة الواد" (السمان د.، 2016، صفحة 64)، فهذا يُظهر مدى شجاعة أهل القدس وإقدامهم، ونجدتهم للملهوف، وهذه بعض شيم أهل القدس التي لم تتغير رغم مر التاريخ.

وجاء ذكر سوق خان الزيت، الذي تقع فيه دكان أبي رعد، ودكان عبد الجبار، التي افتتحها لاحقًا بعد أن تحسن حاله في المحطبة، فأصبح في الربيع يبيع الألبان والأجبان والزيت والزيتون في الدكان، وفي الشتاء يهتم لبيع الفحم (السمان د.، 2016، صفحة 123)، وقد شهد هذا السوق تطورات عدة، ففي عهد الانتداب البريطاني دخل إلى السوق البابور والكاز (السمان د.، 2016، صفحة 227)، وفي عهد الاحتلال الإسرائيلي تطور إلى حرف جديدة لم يعرفها أهل القدس من قبل كبيع الهدايا الفلسطينية التراثية الخاصة بالسياح الأجانب وبيع بعض أنواع الحُلي المصنوعة من الفضة (السمان د.، 2016، صفحة 333)، فالكاتبة جعلت السوق يواكب الزمن، وما يطرأ عليه من تغييرات، وهذا حالنا وحال حياتنا، فنحن نغير من حرفنا مع مرور الوقت بما يتلاءم والوضع الجديد والتطور. إضافة إلى ذكر سوق آخر وهو سوق باب حطة (السمان د.، 2016، صفحة 166)، ولكن كان السوق بمثابة طريق يمر منها أهل برج اللقلق إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة فيه.

ارتبطت بعض الأماكن في الرواية بالمقاومة، فكان المكان يشتهر بإعداد العدة لحرب بريطانيا وإسرائيل، فجبال القدس الغربية اشتهرت بأنها مكان الثوار، يتخذونها مقرًا لهم يعدون الخطط لمواجهة العدو، وينظمون أنفسهم لضرب العدو ضربات موجعة، والجبال دائمًا ما كانت مكان الثوار في حربهم ضد أعدائهم، سواء كان في فلسطين أو في خارجها، تراها تقول في حديثها عن عبد الجبار: "استوطن الجبال مع الثوار.. وذاع صيته مناضلا شجاعا" (السمان د.، 2016، صفحة 233)، وفي موضع آخر تقول في حديثها عن علي بن عبد الجبار: "أخرج بدقية أبيه.. يسير على دربه.. ويلبي نداء الثورة. فسكن الكهف.. وصعد الجبل..." (السمان د.، 2016، صفحة 248). فهذا يدل على أن أبناء فلسطين يتوارثون مقاومة المحتل من جبل إلى جيل، ولا يفرطون بشبر من أرضهم، ويبذلون في سبيلها الغالي والنفيس، وأي شيء يكون أغلى من الروح؟

ومن الأماكن التي ارتبطت بالمقاومة والحرب ضد إسرائيل في مدينة القدس (حارة الشرف)، وفي هذه الحارة تعالج الكاتبة أمرين، الأول هو مقاومة أهل القدس الشديدة في الدفاع عن مدينتهم؛ بسبب الموقع المهم لهذه الحارة، والذي يطل على البلدة القديمة في القدس، وقريب جدًّا من المسجد الأقصى، وخاصة بعد أن سمع الناس بمجزرة دير ياسين، وما فعلته العصابات الصهيونية بأهلها، والأمر الثاني، محاولة الاحتلال الصهيوني تهويد المناطق والأسماء الفلسطينية، فبعد أن بدأ الحرب وسيطرت العصابات الصهيونية على حارة الشرف، حولوا اسمها إلى (حارة اليهود)، وهذا ما ذكرته الكاتبة بقولها: ""حارة الشرف" التي أصبحت تعرف باسمهم.. "حارة اليهود"" (السمان د.، 2016، صفحة 250).

لا شك أن مدينة القدس عاشت حالة مختلفة قبل حرب النكسة عام 1967 وبعده، فقبل 1967 كانت القدس تعيش حياة القمع، فقد فشل اليهود في احتلالها عام 1948، بعد معركة دارت بين الاحتلال الصهيوني والفلسطينيين في القدس، وتعرضت القدس لمضايقات وحصار من جميع الجهات، وكانت تمر بحالة فقر وضيق شديد، وكان الناس يعيشون على أمل تحرير ما احتل من فلسطين، لكنهم كانوا يؤمنون بوطنهم وبفكرة تحريره، إلى أن وقعت حرب النكسة، وتمكن الصهاينة من احتلال القدس، وسيطروا عليها، وأصبحت

تحت الاحتلال كمعظم الأراضي الفلسطينية، لكن الاحتلال انتهج سياسة الانتداب البريطاني، وفتح الحدود وأوجد فرص العمل، وسمح للفلسطينيين بالعمل في المستوطنات، وانتعش الاقتصاد، وازدهرت المصانع، وأغدق الاحتلال الأموال على الناس؛ ليصرفهم عن فكرة الوطن وتحريره، ويشغلهم بالأموال وجمعها، وبدأت تظهر بعض مظاهر الترف والانفتاح والتدهور الديني والأخلاقي عند البعض، فبدأ بعض الشبان يشربون الخمر، ويذهبون إلى الساحل الفلسطيني الذي تكثر فيه الحانات والمراقص والملاهي، هذه المظاهر لم يعهدها الفلسطيني قبل حرب 1967، فكلها من صنع الاحتلال الذي كان يعيش مرتزقته هذا النوع من الحياة في أوروبا وأمريكا، إضافة إلى تغيير بعض ملامح المدينة، كتحويل حارة الهيدمية إلى ساحة تقف فيها الحافلات لتحميل الركاب.

3.1.6 أماكن أخرى في فلسطين

ذكرت الكاتبة مدينة أريحا، التي كان فيها الشيخ متولي زيارة، وكان يفك السحر، ويكتب الحجابات للناس، وغيرها من الأمور التي يؤمن بها بعض الناس، وينكرها البعض الآخر، فأبو رعد كان يؤمن بهذه الأمور، وعبد الجبار كان يرفضها ويعتبرها خرافات وخزعبلات، والهدف من الزيارة كان كتابة حجاب لأبي رعد خوفًا من أن يمسه الجن (السمان د.، 2016، صفحة 74)، وهذه الحادثة تعكس بعض الأمور التي كانت تسيطر على عقول الناس حينها –وما زالت–، فبعضهم يؤمن إيمانًا تامًّا بأمور كهذه، كما ركزت الكاتبة أيضا على إيمان الناس بالشيخ علي رغم أنه ميت، فكانوا يذهبون لقبره ويدعون الله –عز وجل– عنده، أملًا منهم بشفاعته وكراماته عند الله تعالى، وهذا ضرب من ضروب الشرك بالله –عز وجل–، فقد ورد عند الإمام ابن تيمية –رحمه الله– قوله: "إذا كان صاحبُ القبر يُدعى، ويُسأل، ويُقسم على الله به، ويُسجد لقبره، أو يُتمسَّحُ به، فإنَّ هذا شركٌ صريحٌ" (ابن تميمة، 1422 هـ، صفحة 147). فالإسلام لا يبيح الدعاء عند الميت بقصد وساطته عند الله تعالى، أو إنارة المصابيح عند قبره، أو بناء المساجد على قبره، كما ورد في الرواية، فعن النبي (صلى الله عليه وسلم)، أنه قال: "لعن الله زوّارات القبور والمتخذين عليها السرج والمساجد" (ابن تميمة، 1422 هـ، صفحة 149)، وقد بان أن القول الذي يردده بعض الناس وينسبونه للنبي (صلى الله عليه وسلم)

ما هو إلا ضعيف، ولا أصل له من الصحة، وهو قولهم: "إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي" (ابن تميمة، 1422 هـ، صفحة 149)، حيث إن العلماء أجمعوا على أن قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يُمسح به ولا يُقبل ولا يُلمس (ابن تميمة، 1422 هـ، صفحة 149)، وهو نبي الله تعالى الأكرم من الخلق جميعًا، فكيف بالبشر؟

ذكرت الكاتبة بعض المدن الفلسطينية أثناء حديثها عن العتالين، فهم يحملون البضائع من القدس، ويوصلونها إلى باقي المدن الفلسطينية، فذكرت بيت لحم، والخليل، وغزة، ويافا، وحيفا، ونابلس، وطولكرم، وجنين (السمان د.، 2016، صفحة 12)، وكان هذا في عهد الحكم العثماني، إشارة من الكاتبة إلى أن فلسطين كانت كاملة لا يقطع أوصالها احتلال أو استعمار أو انتداب، وتذكر بحال فلسطين قبل أن يحل عليها الانتداب البريطاني، ثم الاحتلال الصهيوني.

وفي موضوع تهويد فلسطين، يُلاحظ أن الخطاب تغير في فلسطين وفي الدول العربية بعد احتلال فلسطين، فأصبح مصطلح (إسرائيل) يردد كثيرًا على الأفواه، سواء على أفواه العامة، أو أفواه الإعلاميين، أو أفواه الرؤساء والسياسيين، وهذا ما ترمي إليه الكاتبة في الرواية عندما قالت: "وبدأت إذاعة إسرائيل تتحدث عن هزيمة جيش الإنقاذ" (السمان د.، 2016، صفحة 273)، وفي موضع آخر تقول: "أمريكا تقف إلى جانب إسرائيل ... بماذا يحارب عبد الناصر ويهزم إسرائيل؟ ... الله يكسر إسرائيل" (السمان د.، 2016، صفحة 296). وحتى إقامة مناطق صهيونية على أنقاض المدن والقرى الفلسطينية، فظهرت (تل أبيب) مثلًا، التي أقيمت على جزء من أراضي مدينة يافا، وأصبحت تستقطب الشباب الفلسطيني بعد النكسة، عن طريق إغرائهم بالمال، فأصبح بعض الشباب يعملون في (تل أبيب)، ويعودون بمبالغ من المال، مما سهل على جهاز المخابرات الإسرائيلية إسقاط بعض الشباب الفلسطينيين وتشغيلهم عملاء لخدمة الاحتلال الصهيوني على حساب وطنهم وأرضهم وأبناء بلدهم، فترى الكاتبة تتطرق لهذه المسألة فتقول: "وانضم إلى شلة من العاطلين.. أغروه أن يذهب معهم ليعمل في مدينة تل أبيب.. حيث المال.. والنساء.. والبحر.. والحياة المنفتحة" (السمان د.، 2016، صفحة 397). وأما عن قضية العمالة فنراها تقول: "اشترى أراضي وباعها

للعدو.. اشترى بيوتا في البلدة القديمة وباعها للمتدينين اليهود.. أوقع خلايا وكشف أسرارها.. ابتلى أناسا شرفاء أبرياء بمصائب لا حصر لها..." (السمان د.، 2016، صفحة 415).

ومما يشهد على ألم النكبة الفلسطينية، وتبدل حالهم، ظهور المخيمات الفلسطينية بعد أن هُجر الفلسطينيون من الأراضي التي احتلت عام 1948 م، فاضطر أهلها للعيش في مخيمات اللجوء في الضفة الغربية، أو في الدول العربية المجاورة، كسوريا والأردن ولبنان، وهذه المخيمات لم تهدأ ولم تستكن، فهي بركان مشتعل، تواجه الاحتلال بشتى الطرق والوسائل، تقول السمان في حديثها عن تهريب عبد الجبار السلاح في الباص السياحي إلى منظمة التحرير الفلسطينية: "حتى اخترق قلب مدينة أريحا وواصل طريقه حتى وصل مخيم النويعمة" (السمان د.، 2016، صفحة 377). وإلى يومنا هذا فإن المخيم يُشكل بؤرة الثورة والمقاومة بوجه المحتل الصهيوني، فهو مكان يحمل مكلومين حاقدين طُردوا من بيوتهم وأراضيهم، ولا بد لهم من المقاومة لاسترجاع ما سُرق منهم كراهية، والمخيمات جزء لا يتجزأ من المكان الفلسطيني الذي يخدم القضية الفلسطينية، ويسعى للنيل بمطالب الشعب الفلسطيني، وهو شُعلة تنير طريق التحرير إلى اليوم.

3.1.7 دول عربية وأجنبية

لو خرجت قليلًا عن حدود دولة فلسطين، ترى الكاتبة تذكر أرض الحجاز في شبه الجزيرة العربية، فهي المكان الذي جاءت منه عائلة عبد الجبار في عصر الفتوحات الإسلامية مع صلاح الدين الأيوبي؛ ليدافعوا عن بيت المقدس، ويحرروها من دنس الصليبيين، وفي ذكرها إشارة إلى أن بيت المقدس، والمسجد الأقصى ملك لجميع المسلمين، وعلى جميع المسلمين أينما كانوا أن يهبوا للدفاع عن الأقصى، فهو واجب ديني ووطني، وليس على الفلسطيني فقط، وفي دفاعك عن الأقصى تنال أجر الجهاد والرباط، فإذا تغيبت عن الدفاع عن الأقصى فإنك من النادمين لاحقًا، خاصة وأن هذا الاحتلال الصهيوني لا يهدد فلسطين فقط، بل يهدد الوجود العربي بأكمله، وفي ذلك يُستحضر قول الأبيوردي في رثاء بيت المقدس، فقال (الرقب، 1993، صفحة 36):

وتلــك حــروب مــن يغــب عــن غمارهــا ليســـــلم يقـــرع بعـــدها ســـن نـــادم

وفي ذكر المكان تقول السمان: "إن أصل عائلة عبد الجبار من الجزيرة العربية.. وبالتحديد من الحجاز.. وإن الأرومة الأصلية موجودة في المدينة المنورة" (السمان د.، 2016، صفحة 7).

كان للوحدة العربية دور كبير في نفوس الشعوب العربية عامة والشعب الفلسطيني خاصة، فكانت الدول العربية تقف إلى جانب فلسطين وتحارب إسرائيل، وكان الشعب الفلسطيني متفائلًا كثيرًا بالجيوش العربية التي جاءت لنصرة فلسطين في النكبة، لكنها خسرت المعركة أمام إسرائيل، ثم حرب النكسة الذي كان العرب متأكدين من انتصار جيوشهم واستعادة ما احتل من فلسطين عام 1948م، لكن الجيوش العربية خسرت أيضًا أمام إسرائيل مما أدى لاحتلال باقي فلسطين، وجزء من صحراء سيناء المصرية، وهضبة الجولان السورية، فخابت آمال العرب بجيوشهم، ولم يتوقعوا هزيمة نكراء كهذه، وقد ذكرت الكاتبة إعداد الدول العربية لحرب عام 1967م، وأظهرت مدى الأمل المعقود على هذه الدول، فتقول: "اليوم ثلاث دول عربية كبرى.. تعيد حساباتها مع إسرائيل.. مصر، سوريا، الأردن.. إنهم أبطال المواجهة" (السمان د.، 2016، صفحة 308).

لم تنس الكاتبة دور الدول الغربية، فتذكر بريطانيا وفرنسا، ويرد ذكرهما أكثر من مرة، وفي كل مرة ارتبط اسمهما بزيادة المأساة الفلسطينية، فمرة عندما أخلفتا بالوعود التي قطعتاها للعرب بإنشاء دولة عربية مستقلة تضم جميع الدول العربية، ومرة عندما احتلتا دول الهلال الخصيب ومصر، فأخذت بريطانيا مصر وفلسطين والعراق، وأخذت فرنسا سوريا ولبنان، وهو ما جاء بمعاهدة (سايكس بيكو)، ثم وعد بلفور الذي أعطته بريطانيا لليهود، ثم احتلال فلسطين، وأخيرًا تسهيل الهجرات اليهودية واستيطانها في فلسطين، فكل ما قامت به الدولتان كان في سبيل تدمير العرب والسيطرة على بلادهم ونهب خيراتها، وأخيرًا عندما أعلنتا الحرب على مصر بعد قيام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس، فلم يعهد العرب موقفًا مشرفًا لهاتين الدولتين الاستعماريتين. أما عن تأميم قناة السويس، فقد شهد العالم العربي فرحة كبيرة بسبب فعل عبد الناصر، وهذا

يدل على أن الشعوب العربية يد واحدة لا يفرقها سوى حدود وهمية وضعتها دول الاستعمار، وما يؤكد ذلك قول الكاتبة: "وعمت العالم العربي من المحيط إلى الخليج فرحة وبهجة.. أناشيد حماسية.. وغناء ورقص.. وزغاريد.. عمت ساحات وشوارع العالم العربي" (السمان د.، 2016، صفحة 290).

3.1.8 دراسات أخرى في الرواية

3.1.8.1 محاولة طمس المكان الفلسطيني

تختلف محاولات الاحتلال الصهيوني في طمس المكان الفلسطيني وسلخ الهُوية القومية للأجيال الفلسطينية الصاعدة عن طريق تهويد المكان والثقافة والفكر والتراث ... إلخ، وقد يستخدم الاحتلال طرقًا علنية للقيام بذلك، أو يستخدم طرقًا ملتوية لتحقيق أهدافه، فهو يسعى بشتى الطرق لسرقة المكان الفلسطيني بكل تفاصيله وتاريخه، وكما ذكرت، لا يكتفي الاحتلال بسرقة المكان وتهويده، بل يتعدى لمحاولة سرقة عقول الأجيال وثقافاتهم أيضًا.

لقد عمل الاحتلال الصهيوني جاهدًا لطمس المكان الفلسطيني؛ فبطمس المكان يطمس الهُوية والتاريخ والثقافة والأحقية، وهذا ما يسعى إليه الاحتلال منذ سرق الأرض، وقد حاول الاحتلال الصهيوني طمس المكان الفلسطيني بطرق شتى، منها: قيامه بتدمير القرى الفلسطينية ومسحها كليًّا عن الخريطة، فقد دمر الاحتلال أكثر من 500 قرية فلسطينية في النكبة، أو بإقامة بلدات ومدن صهيونية على الأراضي الفلسطينية بمسميات كنعانية مسروقة ينسبونها لأنفسهم، كتل أبيب وغيرها، أو إطلاق أسماء كنعانية مسروقة على المناطق الفلسطينية لتهويدها وطمس تاريخها وهُويتها.

إن الاحتلال الصهيوني يوجه هجمة شرسة أخرى إلى جانب حربه العسكرية في فلسطين، هي بالتأكيد حرب سرقة الأرض والهوية، فعندما قدم اليهود بالفكر الصهيوني الغربي وخاصة مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، وعليه ظهرت أسطورة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بمساعدة بريطانيا، ومع رفض السكان الأصليين (الفلسطينيين) التخلي عن أرضهم، قابلت العصابات هذا الرفض بالسلاح والقوة وارتكاب المجازر؛

لأن أسطورة إنشاء وطن قومي لليهود لن تقوم إلا بالعنف، وهذا العنف تمثل في شكلين: الأول، ارتكاب شتى أنواع العنف والقتل لتحقيق هدف إنشاء الدولة المزعومة والوطن الأسطوري، والثاني، طمس الهوية الفلسطينية، ومحاولة محوها، والقضاء عليها وعلى من يتفوه بها.

إن فكرة طمس الهوية الفلسطينية لا تقوم إلا بالقضاء على من يتلفظ بأي شيء يخص فلسطين، فهذا ما يعكر صفو الصهيونية التي تعمل جاهدة لمحوها، ومن هنا ظهرت سياسات جديدة انتهجتها قوات الاحتلال الصهيوني، كسياسة الحصار، وسياسة الاغتيالات، وسياسة التدمير، وغيرها، وبدأت إسرائيل تغتال شخصيات مهمة ومرموقة في الساحة الفلسطينية، منهم أدباء، وشعراء، وفنانين، ولا ننسى اغتيال ناجي العلي، وراشد حسين، وسميح القاسم، وغيرهم من الهامات المؤثرة في الفكر الفلسطيني، والتي كانت تُشعل البراكين في الأرض الفلسطينية، وتقض مضاجع الاحتلال وصهاينته.

ولا بد من التنويه لقانون "القومية اليهودية" (الدنان و ربيع، 2018، الصفحات 6-8)[1] العنصري الذي صادق عليه الكنيست الإسرائيلي في 19 تموز للعام 2018م، والذي ينص على يهودية الأراضي التي تم احتلالها، وأحقية اليهود في تقرير مصير الدولة، ومحاولة استقطاب اليهود في جميع أنحاء العالم ومنحهم الجنسية مباشرة، واعتبار القدس كاملة عاصمة لإسرائيل، وجعل اللغة العربية لغة ثانوية في الدولة، وكثير من البنود التي تحاول تهويد الأراضي الفلسطينية المحتلة (الدنان و ربيع، 2018، صفحة 5).

[1] هو قانون أساسي صادق عليه الكنيست الإسرائيلي يوم الأربعاء بتاريخ 2018/7/19 م، ونص على عدة بنود، منها: 1) المبادئ الأساسية: أ- أرض إسرائيل الوطن التاريخي للشعب اليهودي. ب- دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي، وفيها يمارس حقه الطبيعي، والثقافي، والديني، والتاريخي. ج- ممارسة حق تقرير المصير في إسرائيل لليهود فقط. 2) رموز الدولة: أ- اسم الدولة "دولة إسرائيل". ب- علم الدولة أبيض، وعلى جانبية العلوي والسفلي خطان باللون الأزرق، وفي الوسط توجد نجمة داود باللون الأزرق. ج- شعار الدولة هو الشمعدان الذي يحمل سبع شمعات، وعلى جانبيه الأيمن والأيسر غصنان من الزيتون، وفي قاعدته كلمة "إسرائيل". د- النشيد الوطني هو "هتكفا". هـ- تفاصيل رموز الدولة تحدد في القانون. 3) عاصمة الدولة: مدينة القدس كاملة موحدة عاصمة إسرائيل. 4) اللغة: أ- لغة الدولة هي اللغة العبرية. ب- اللغة العربية لغة ثانوية في الدولة. 5) لم الشتات: تكون الدولة مفتوحة أمام اللاجئين اليهود من كل دول العالم. 6) العلاقة مع الشعب اليهودي: أ- تكون سلامة أبناء الشعب اليهودي الأهمية في الدولة. ب- تعمل الدولة على إبقاء التواصل بين الشعب اليهودي في الدولة واليهود في الشتات. ج- تحافظ الدولة على الميراث الثقافي، والديني، والتاريخي لدى اليهود القابعين في الشتات. 7) الاستيطان اليهودي: تدعم الدولة الاستيطان، وتشجعه، وتعمل على تطويره. 8) التقويم الرسمي: يكون التقويم العبري هو التقويم الرسمي في الدولة، مع استخدام التقويم الميلادي كتقويم ثانوي. 9) يوم الاستقلال ويوم الذكرى: أ- يكون يوم الاستقلال عيدا قوميا في الدولة. ب- يكون يوم ذكرى الجنود الذين سقطوا في الدفاع عن إسرائيل، ويوم ذكرى الكارثة والبطولة يومي الذكرى الرسميين في الدولة. 10) أيام الراحة والعمل: تكون أيام العطلة في الدولة أيام السبت وأيام الأعياد عند اليهود، أما عند غير اليهود فلهم الحق في العطلة أيام أعيادهم. 11) نفاذ القانون: يلزم تصويت أغلبية أعضاء الكنيست لأي تغيير في هذا القانون.

لقد ظهرت محاولات طمس المكان الفلسطيني في الرواية في مواضع عدة، فعندما احتلت العصابات الصهيونية الساحل الفلسطيني في النكبة عام 1948م، حاولت التسلل إلى مدينة القدس؛ لاحتلالها كاملة، لكن المقاومة الشديدة من أهل بيت المقدس حالت بين العصابات الصهيونية وهدفهم في احتلال كامل القدس، بعد معركة شرسة دارت بينهم وبين أهل القدس في حارة الشرف، التي احتلتها العصابات وأطلقت عليها اسم "حارة اليهود"، وفي هذه إشارة واضحة لمحاولتهم طمس معالم المكان باحتلاله وتغيير اسمه وبعض ملامحه الشكلية، وفي ذلك تقول السمان: "بالأمس قتل رجل في رأس العامود.. قتله قناصة "حارة الشرف" التي أصبحت تعرف باسمهم "حارة اليهود"" (السمان د.، 2016، صفحة 250). حيث تشكل القدس أهمية كبيرة بالنسبة لليهود، وذلك يعود لزعمهم بوجود هيكل سليمان فيها، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم للسيطرة عليها، والاستيطان فيها، ولعل من شجع الاستيطان في القدس واستقطاب اللاجئين اليهود إليها هو ديفيد بن غوريون (شرغائي، 2000، صفحة 1).

ذكرت الكاتبة مستعمرة "مشمار هعيمق"، التي تقع جنوب شرق حيفا، وهذه المستعمرة طمست الأرض الفلسطينية هناك، حيث تأسست عام 1926م، وبعد النكبة سيطر الصهاينة الذين يسكنون المستعمرة على أراضي قرية "أبو شوشة"، التي تبعد عن المستعمرة كيلو متر واحد فقط، وهذه المستعمرة التي هُزم فيها جيش الإنقاذ، وفي ذلك تقول السمان: "فشل القاوقجي في هجومه على مستعمرة مشمار هعيمك.. وتكبد خسائر فادحة في العتاد والأرواح" (السمان د.، 2016، صفحة 275). وكذلك مستعمرة "نيفي يعقوب"، أو "نيفي يعقوب"، وفي العربية تعني مستعمرة "النبي يعقوب"، والتي أقيمت على جزء من أراضي بيت حنينا في مدينة القدس (السمان د.، 2016، صفحة 353).

بعد أن كانت القدس موحدة تسير من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، أصبحت مقسومة إلى جزئين، القدس الشرقية والقدس الغربية، بحسب التقسيم المتفق عليه بعد حرب 1967، حيث أصبحت القدس الشرقية مع الفلسطينيين، والقدس الغربية مع الاحتلال الصهيوني، وقام الاحتلال بقطع أوصال المدينة من

خلال فصلها وبناء المستعمرات والبنايات، كمستعمرة "النبي يعقوب" التي بنيت بعد النكسة في القدس الشرقية التي اتفق على أن تكون مع الفلسطينيين، وأن تخلو من كل ما يتعلق باليهود والعبرية، إلا أن خطة المحتل كانت تهويد القدس، مكانيًّا، وزمانيًّا، وحتى من ناحية اللغة، فقد بدأت المستوطنات تكثر في القدس الشرقية وتأخذ الأسماء العبرية بالازدياد بدلا من الأسماء العربية، فضلًا عن هداسا، والجامعة العبرية التي فصلت غرب المدينة عن شرقها، هذه السياسة كانت من أجل السيطرة على القدس كاملة وتهويدها، ومنع الفلسطينيين من البقاء فيها، وجعلهم يصلون إلى قناعة واحدة، وهي ترك القدس والخروج منها إلى أماكن أخرى؛ لتبقى لليهود فقط.

ولم يكن طمس الأرض الفلسطينية بسرقة الأرض فقط، بل امتد لتغيير ملامح الأرض والحياة والعادات، فقد جلب الاحتلال معه مظاهر الانحلال الأخلاقي التي كان يعيشها في أوروبا إلى فلسطين، وخاصة في المدن المحتلة عام 1948، كيافا وحيفا، فانتشرت فيها البارات والمراقص والسكر والخمر، وهذا ما لم يعتد عليه الفلسطيني، وتغيرت ملامح الحياة من ناحية العمل أيضا، فلم تعد تجارة الألبان والأجبان تصلح، فاضطر الناس إلى تغيير حرفهم وتجارتهم، ومنه تغييرهم إلى صناعة التحف والسلاسل والمجوهرات.

وقد وصل التغيير والطمس في حياة الفلسطيني إلى تغيير عاداته وفكره السويّ، خاصة بعد حرب 1967، فبدأت عادة تعاطي المخدرات وشرب الخمور تظهر عند بعض الشباب الفلسطيني، كما حصل مع ليث في أحداث الرواية (السمان د.، 2016، الصفحات 406-408)، ومنهم من صار يعمل مع الاحتلال الصهيوني؛ فيبيع الأراضي والبيوت الفلسطينية لليهود ويعمل على تسريبها لهم، إضافة إلى فكرة التمسك بالأرض التي بدأت تتلاشى عند البعض ممن عمل عند اليهود وبدأ يرى المال والترف ومظاهر الانحلال، فأغرته وجعلته يفرط بدينه وأرضه ووطنه، ويرى أن المال والمنصب أهم من الحجارة التي يتمسك بها الفلسطينيون، ويرى الاحتلال نعمة جلبت له المال الوفير.

وقد وصل التغيير في حياة الفلسطينيين إلى حد كبير، فبعد أن كان الفلسطيني يأكل ويشرب ويستخدم ما يصنعه وينتجه، أصبح يأكل ويشرب ويستخدم كل ما تنتجه المصانع الإسرائيلية، فالاحتلال شدد قبضته على جميع نواحي الحياة الفلسطينية، ولكن بعد التطور الصناعي الذي حدث بعد 1967، بدأت الأصوات تعلو بالاستغناء عن المنتجات الإسرائيلية، واستبدالها بمنتجات فلسطينية، خاصة بعد ظهور عشرات المصانع الفلسطينية التي بدأت تنتج منتجات محلية بدلًا من الإسرائيلية.

كل هذه الأمور انتشرت بعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين، الذي عمل على نشرها بين الشباب الفلسطيني والأجيال؛ لكي يؤثر على فكرهم الوطني، ويربي عبيدًا لا يهمهم الوطن أو الأرض إذا ما قورن بالمال والمناصب والحياة المترفة، لكن الكاتبة اختارت أن يعود ليث إلى رشده في النهاية وينضم إلى المقاومين؛ لتثبت أن فكرة التمسك بالوطن لا يمكن أن يتخلى عنها الفلسطيني مهما حصل، وإن انحرفت البوصلة عن مسارها الصحيح، فلا بد لها أن تُعدل وتعود لتتوجه للأرض والوطن.

3.1.8.2 السخرية في الرواية

إن السخرية ليست أسلوبًا حديثًا أوجده الكتاب الحاليون، بل إن جذورها تمتد لما قبل الإسلام عند العرب، وقد بحث الكتاب والنقاد عنها في أدب المصريين، وغلّبوا أن تكون أصولها من الأدب اللاتيني، وقد استُخدمت للنيل من الخصوم، واسترداد الحقوق، لكنها اختلفت من أمة لأخرى حسب الدوافع والأساليب.

تُعد السخرية من الأساليب الشهيرة في الأدب الحديث، فقد لجأ إليها الكتاب للتعبير عما بداخلهم في قالب من التهكم والاستهزاء، ومن الممكن أن تكون السخرية مباشرة في النص واضحة أو غير مباشرة، فتحمل العبارات عند بعض الكتاب دلالات مخفية مبطنة بالتهكم تكون المقصودة في الغالب.

لقد طالت السخرية الأدب والفنون بمختلف أنواعهما، فلا تقتصر على النصوص النثرية فقط، أو على أشعار الذم مثلًا، أو على الفن فقط، بل اتسعت رقعتها لتشمل معظم الفنون إن لم يكن جميعها، وجميع نواحي

الحياة، فنجدها في الآداب النثرية، وفي الشعر، وفي الرسم، وفي الغناء، وفي المسرح، وفي كلام العادي، وفي الأمثال الشعبية.

لا شك أن استخدام السخرية بكثرة يعني حاجة الناس إليه، خاصة وعامة، فهي موجودة عند الطبقة الخاصة من الناس، كمتعلمين وأصحاب مراكز، وكتاب، ونقاد، نجد ذلك في مؤلفاتهم وفي كلامهم، ونجدها أيضًا عند عامة الناس، فلا يخلو كلامهم من ضروب السخرية والتهكم، فقد يطلقونها على شكل كلام عادي، أو على شكل أمثال شعبية، كقولهم مثلًا: "حيرتنا يا أقرع من وين نبوسك"، ولعل الأمثال الشعبية من أكثر الأنواع التي تحمل طابعًا من السخرية والاستهزاء.

أما في معنى كلمة سخرية، فيذكر في لسان العرب: سَخِرَ مِنْهُ وبِهِ سَخْراً وسَخَراً ومَسْخَراً وسُخْراً، بِالضَّمِّ، وسُخْرَةً وسِخْرِيًّا وسُخْرِيًّا وسُخْرِيَةً: هَزِئَ بِهِ" (ابن منظور، ب. ت، صفحة 1963)، وفي تعريفها اصطلاحًا، ذكرت (Cutler) أن السخرية هي لفظ يعبر عن معنى مغاير للمعنى الحقيقي أو المعنى الحرفي (Lwin, 2020, pp. 1-2)، ويعرفها الدكتور نعمان بأنها "النقد الضحك أو التجريح الهازئ" (طه، 1987، صفحة 14).

كانت الرواية تزخر بالسخرية بمختلف أنواعها، فقد تمثلت السخرية في الكلام العادي والحوار بين الشخصيات، وجاءت على شكل أمثال شعبية تطلقها الشخصيات تهكمًا على الشخصيات الأخرى أو على أحداث تمر بها، وأحيانًا كانت السخرية بتسمية الأشخاص أو الأشياء في غير موضعها، ومما جاء في الرواية من ضروب السخرية، استهجان نفيسة لعمل زوجها عتّال رغم أنه زعيم الحيّ، فقالت: "زعيم وعتال؟!" (السمان د.، 2016، صفحة 8)، حيث تحط السخرية هنا من القيمة الاجتماعية التي وصلت إليها الشخصية، ولكنها تكشف لنا عن سوء الأوضاع المعيشية والاقتصادية التي وصلت إليها البلاد آنذاك.

ومما يثبت ذلك، سخرية عبد الجبار من حاله، بعدما عمل عتالًا وصار الناس يستأجرونه لنقل حاجاتهم بعدما كان كبير قومه، فقد أحس بالخيبة والذل، ويظهر هذا في قوله: "يستأجرني الناس أنا والبغل كأننا

شخص واحد، بل أشعر أحيانا أنهم يفضلون البغل عني" (السمان د.، 2016، صفحة 33)، فلولا ضيق الحال لما عمل عتالا، ولكن الضرورة جعلته يرضى بالقليل ليعيش، ويأتي بقوت أبنائه.

وفي مكان آخر في الرواية، يسخر حسام من غضنفر وخوفه المستمر، فهو جبان يخاف أي شيء حوله، وليس له من اسمه نصيب، فيخاطبه حسام ويقول: "إذا كان نباح كلب يجلب لك عزرائيل.. فبئس ما أنجب آل عبد الجبار على شاكلتك من الرجال" (السمان د.، 2016، صفحة 42)، وهذه سخرية لاذعة من الاسم، فصفاته منافية لاسمه، ولم يحصل شيء بسيط من دلالة اسمه، وهذا يصدف كثيرا في حياتنا اليومية.

أما النوع الثاني، فكان استخدام الأمثال الساخرة في الرواية بهدف انتقاد حدث أو كلام معين، وقد كثر هذا في الرواية، ومما جاء فيها قول أبي رعد يتهكم على جيش الإنقاذ الذي جاء لتحرير فلسطين في النكبة، وهزم عند أول مستعمرة، فهو يقول: "يا خوفي أن ينطبق عليه المثل من أول غزواته كسر عصاته" (السمان د.، 2016، صفحة 274)، في إشارة على ضعف وانكسار جيش الإنقاذ أمام العصابات الصهيونية، وتدلل السخرية هنا على ضعف الإمكانيات العربية، وقلة العتاد والمعدات التي يملكها الجيش العربي، فقد هُزم من أول معركة، ولم يستطع تحرير شيء من الأراضي المحتلة.

وفي موضع آخر يستخدم عبد الجبار مثلًا ساخرًا يتهكم فيه على غضب أبي رعد وانفعاله وثورته على عبد الجبار وأبي الطاهر، فيقول: "خذوهم بالصوت لا يغلبوكم" (السمان د.، 2016، صفحة 279)، إشارة منه إلى أن غضب أبي رعد وصراخه ما هو إلا فارغ لا يسمن ولا يغني من جوع، وما صراخه إلا هرب من وطأة الحق، وكناية عن ضعف حجته.

ومما جاء من سخرية الكاتبة في اختيار الأسماء، اختيارها اسم غضنفر لأحد سكان برج اللقلق، لكنه في الحقيقة كان جبانًا والخوف يتملكه، وظهر ذلك في خوفه من الجن والوحوش عندما دخل الغابة ليلًا للبحث عن عبد الجبار (السمان د.، 2016، صفحة 40)، ومن سخريتها في اختيار الأسماء أيضًا، اختيارها اسم (أبو العناتر) لرجل فقد عقله خوفًا عندما ظن أنه رأي شبحًا، بعدما عُرف بقوته وصلابته ورجولته وهيبته،

فقد أضحى مجنونًا يتدلى لسانه من فمه (السمان د.، 2016، صفحة 28)، على الرغم من أن الاسم يوحي بالقوة أيضًا، فهو يستمد دلالته من الشاعر الفارس عنترة بن شداد، إلا أن الاسم كان فضفاضًا جدًّا عليه، لا يمت لواقعه بصلة، وما كل هذا إلا سخرية من الكاتبة.

تتنوع أساليب السخرية عند السمان في روايتها، فلا تكاد صفحة تخلو من سخرية بغض النظر عن نوعها، وإن دل هذا على شيء، إنما يدل على أهمية السخرية واعتمادها عند الكاتبة لإيصال أفكارها، ودحض الأفكار المناهضة، وهي تُكسب العمل جمالًا ومدلولات متنوعة، وتُضفي على النص حركة ومعنى، وقد ظهر لنا أن الكاتبة تلجأ إلى السخرية بأساليب متنوعة، وتكثر منها، وما ذكرنا نبذة بسيطة مما جاء في الرواية، ويستطيع الدارس أن يخصص بحثًا كاملًا عن السخرية في الرواية، ويدرسها دراسة بعناية شديدة، ولكننا هنا نكتفي بما جئنا به للتوضيح.

وفي ختام الحديث عن رواية برج اللقلق، لوحظ بشكل جلي أن الرواية لم تكن عملًا أدبيًا خياليًا، ولم تخل منه أيضًا، لكنها كانت رواية أدبية تاريخية، وظفت الأحداث التاريخية التي حلت بفلسطين بشكل رائع، جسدت فيها الكاتبة ذاكرة المكان الفلسطينية، وما للأمكنة من دلالة في نفس الفلسطيني، فالمكان لا بد له أن يرتبط بدلالة نفسية، توحي بها طبيعته، وهذا ما لاحظناه في حديثنا عن الرواية، فهناك أمكنة مرتبطة بالمقاومة كبرج اللقلق، وأخرى توحي بالنكبة الفلسطينية كمخيم النويعمة، وأخرى توحي بالتآمر على الفلسطيني والعرب كبريطانيا وفرنسا، وأخرى توحي بالأمل والأمجاد العربية كمصر وسوريا ولبنان وغيرها.

3.2 رواية (الطريق إلى عين حارود)

صدرت رواية (الطريق إلى عين حارود) للكاتب العبري عاموس كينان، ونشرت عام 1984م.

تقوم الرواية على أحداث انقلاب يميني قام به ضباط في الجيش الإسرائيلي ضد الحكومة، وأغلقوا الشوارع وفرضوا حظر التجول، وعاثوا في الأرض الفساد، وحاول الكاتب نشر بعض أفكاره وبعض الحقائق من

خلال هذا العمل الأدبي، فقد ذكر عددًا من القرى التي دمرها الاحتلال الصهيوني في فلسطين، إضافة إلى سياسة القتل التي انتهجتها العصابات الصهيونية، وميله في إثبات الأحقية لليهود في فلسطين من خلال آثار وهمية وجدها البطل في كهف تحت الأرض، مع العلم أن الفلسطينيين أقدم من اليهود في فلسطين، فهم يعودون لأجدادهم الكنعانيين.

تظهر عدم الموضوعية في رواية عاموس كينان من خلال رسمه لشخصية محمود الفلسطيني، حيث ركز على جعل الشخصية عديمة الرأي والمبدأ، سهلة الخضوع والانصياع، ليس له شخصية مستقلة، تظهر عليه علامات التأخر الحضاري والفكري.

ولا شك أن كينان لم يصرح حول موقفه من الحركة الاستعمارية الصهيونية في فلسطين، فلن تجد في الرواية ما يدل على موقفه، أهو مع الحركة الاستعمارية أو ضدها؟ لكن هذا لا يعني أن الرواية منحازة للاستعمار، فقد كشف الكاتب بعض المخططات الاستعمارية الصهيونية، وبعض الحقائق التي ارتكبها جنود الاحتلال.

إن المعروف عن كينان أنه يساري، ينادي بالسلام والتعايش بين الفلسطينيين والإسرائيليين، على الرغم من مشاركته في حرب النكبة عام 1948 وقتله عددا من الفلسطينيين، إلا أنه نادى بعدها بفكرة التعايش وإنهاء الحرب، وعمل على كشف الجرائم الصهيونية التي ارتكبت بحق الفلسطينيين، والرواية بأفكارها لا يكتبها يميني موافق على أفكار الصهيونية، بل يكتبها يساري يقف ضد هذه الأفكار ويحاول فضحها، وقد حصل محاولة من طالب يُدعى (كاتس) كتب بحثا يوضح فيه ما حصل في مجزرة الطنطورة، لكن الجامعة عاقبته بحرمانه من الشهادة، وطرده من الجامعة.

يُلاحظ أن كينان متناقض في ذاته وقراراته، فتارة يدافع عن الفلسطينيين بكشف بعض الحقائق والمجازر التي ارتكبها الاحتلال الصهيوني، ويظهر اليهودي بأنه سفاح متعطش لسفك الدماء، فحتى بطل الرواية الذي يريد السلام ويهرب من الحرب، لم ينجُ من سفك الدماء، بل تورط بقتل عدد كبير من الشخصيات، وتارة نراه يدافع عن اليهود من خلال محاولته إثبات الحق اليهودي في فلسطين، على الرغم من كونه من

أنصار معسكر السلام، الذين يبحثون عن التعايش والسلام، إلا أنه يقف إلى جانب اليهودي وظلمه؛ ليثبت عكس ذلك، وهذا يعود لكون والده يعقوب ليفين كان أحد رجال العصابات الصهيونية (كتيبة العمل) عام 1922م، حيث إنه ذكر ذلك في روايته (كينان، 1984، صفحة 201)، إضافة إلى إظهاره الفلسطيني بصورة غير موضوعية، كما وُضح سابقًا.

3.2.1 ملخص الرواية

تبدأ الرواية مع البطل (رافي) اليساري الذي لا يعترف بأفكار المنقلبين اليمينين، فيقوم بقتل مجموعة من الجنود التابعين لحركة الانقلاب اليمينية التي حصلت في البلاد، فقد انقلب الجنود على الحكومة؛ لأنهم يرونها يسارية وليست كما يريدونها يمينية متطرفة، ففرضوا منع التجول على المواطنين، وأصبحوا يقتلون ويأسرون ويختطفون كما يحلو لهم، فتورط (رافي) بقتلهم، وكي يهرب من فعلته، قرر أن يسافر إلى (عين حارود) التي تنعم بالأمن والسلام والاستقرار، وفي طريقه للهرب يتعرف على فتاة، فيطلب منها أن توصله لأقرب نقطة، لكن الجنود يقتلون الفتاة التي كانت تصحبه، فيستمر برحلته سيرا إلى أن يلتقي بمحمود، وهو فلسطيني هارب، ولكن لم يصرح بالمكان الذي يهرب إليه، في نهاية الأمر يوافق محمود على صحبة (رافي)، ويسيران معا، ويكون محمود تابعا لرافي في الرحلة، ينفذ ما يطلبه منه، إلى أن يختطفا ضابطا كبيرا في الجيش ومرافقه، ويأخذانهما إلى كهف تحت الأرض؛ كي يفاوضا عليهما، ويكتشفا في الكهف أمورا عجيبة، منها رسوم ونقوش، ينسبها الكاتب لليهود –ولا صحة في ذلك–.

يخرج (رافي) ومحمود ومعهما الضابط بعد أن أطلقا سراح مرافقه، ويتفقان مع الضابط المسؤول عن استلام الضابط المختطف معهما على اللقاء في مكان محدد، فيحاول (رافي) أن يكون ذكيا ويذهب لمكان آخر، لكن الجيش يلحق بهم بعد أن شك بأمرهم، وتوقع ما سيقومون به، يُقتل محمود، ويؤخذ (رافي)، وفي النهاية ينوي (رافي) على الانتقام لموت محمود؛ لأنه ليس له علاقة فيما حصل، فيقتل عددا من الجنود انتقاما لذلك.

3.2.2 ذاكرة المكان في الرواية

يعد عنوان الرواية ذاكرة حية للمكان الفلسطيني، فالعنوان يدل على مكان، وهذا المكان فلسطيني تم تهويده على يد المحتل الصهيوني، وفي ذكر أصل المكان، يقول سميح القاسم في تعليقه على الرواية: "أما اختيار هذه الرواية "في الطريق إلى عين حارود" (هي عين جالود أو عين جالوت عندنا)" (القاسم، العدد 13، 1984، صفحة 199)، حيث ذكر في الرواية أماكن عدة، منها تل أبيب، ويافا، وعين حارود، وغيرها من الأماكن.

3.2.2.1 المكان المعادي (تل أبيب)

تبدأ الرواية بمحاولة البطل (رافي) الهروب من تل أبيب؛ كي يتخلص من حالة الفوضى والانقلاب الذي قام به بعض الضباط على الحكومة آنذاك، فأصبح الوضع في المدن خارجًا عن السيطرة، الناس تُقتل في الشوارع، ومنع التجول مفروض على الشعب، وعدم السماح بالتنقل من مكان لآخر، فلم يبق هناك أي رحمة في القلوب، والمسلحون يطلقون النار على أي شيء يتحرك، وتستطيع أن تصف الوضع في تل أبيب من خلال ما جاء في الرواية، يقول الراوي: "يتم بنيران الرشاشات حصد روح كل من قرر وضع روحه على راحته وحاول المرور" (كينان، 1984، صفحة 202)، إضافة إلى إغلاق جميع الطرق، سواء أكانت برية أم بحرية، فالطائرات تجوب الأجواء، والقوافل تجوب الشوارع، والجنود منتشرون في كل مكان وعلى قمم الأبراج العسكرية، يرصدون أي حركة؛ ليقتلوا صاحبها، فيقول القاص يصف حال الشوارع في المدينة: "فطريق اليابسة غير واردة في الحسبان. الحواجز منصوبة في كل الشوارع المؤدية إلى خارج المدينة" (كينان، 1984، صفحة 202). والحقيقة أن البحر لم يكن أفضل حالًا من اليابسة، فهو مليء بالمخاطر والحراس أيضًا، ولا يستطيع أحد أن يقترب من البحر أبدًا، ولو تمكن من ركوب البحر، فلن يتمكن من الوصول إلى أي مكان، فالطائرات والقوارب العسكرية سترصده وتقضي عليه، فيقول السارد: "لم تبق إذًا سوى طريق البحر، إلا أن طريق البحر أيضًا مليئة بالمشاكل، أولًا الشاطئ "محروس جيدًا" ليل نهار" (كينان، 1984،

صفحة 202). تفهم من خلال هذا الوصف الحال التي آلت إليها مدينة تل أبيب بعد اندلاع الانقلاب، والمشاكل التي حصلت على الحكومة.

بعد أن وصل حال تل أبيب إلى هذا الحد، اختار البطل الذهاب إلى مدينة يافا التي تمثل البقية الباقية من الفلسطينيين في إسرائيل؛ لوجود صديق له فيها، ووجود زوجته عند أصدقائها في يافا أيضًا، فالصبغة التي اصطبغت بها تل أبيب هي الفوضى العامة والانقلاب، ولهذا يبحث عن طريقة للخروج منها على حسب قول الراوي: "إنما يشغل بالي في هذه اللحظة كيف أتسلل إلى خارج تل أبيب" (كينان، 1984، صفحة 202)، فقد أصبحت تل أبيب مكانًا معاديًا ينفر الناس منه، ويبحثون عن مكان آمن يلجؤون إليه.

لطالما كان البيت هو المكان الآمن الذي يأوي إليه الإنسان للراحة والنوم وقضاء حاجاته، وفي حالات الحرب والفوضى، لا يتخلى الإنسان عادة عن بيته، ولو خرج منه غصبًا لن ينساه وسيعمل جاهدًا للعودة إليه مهما كلف الأمر، وهذا ما يطمح إليه الفلسطينيون ويعملون عليه، فهم يريدون العودة إلى منازلهم وأراضيهم التي هُجروا منها، واليوم، وبعد مرور أكثر من 75 عامًا على النكبة، لم يتخل الفلسطينيون عن حلم العودة الذي حرمهم منه الاحتلال الصهيوني، لكن عند بطل الرواية (رافي)، فإن الأمر يختلف عما ذكرنا، فبعد أن ساءت الأوضاع في تل أبيب، وبدأ الجنود المنقلبون على الحكومة يقتلون ويعذبون كيفما شاؤوا، وفي أحد الأيام، وصل عنصران إلى منزل (رافي) وأرادا أن يقتحما المنزل عن طريق خداعه بابنة الجيران، التي جعلاها تطرق باب المنزل عليه؛ كي يطمئن ويفتح الباب لها، لكنه لاحظهما وقام بقتل أحدهما بسكينه، ورش الفلفل على الآخر فغاب عن وعيه (كينان، 1984، الصفحات 203–204)، هذه الطريقة ذاتها التي يستعملها الاحتلال الصهيوني أثناء اقتحامه للمنازل الفلسطينية والمخيمات والقرى والمدن، حيث يستخدمون دروعا بشرية من الفلسطينيين، لكنهم في الرواية استخدموا فتاة إسرائيلية، وهذا التصرف يكشف عن فكر اليمين المتطرف، الذي لا يؤمن بوجود الفلسطيني أو اليساري داخل إسرائيل، وأن إسرائيل لليمين فقط، وبعد هذه الحادثة أصبح المنزل يمثل خطرًا (لرافي)، ولا يمكنه المكوث في المنزل بعد هذه الحادثة،

أضف إلى ذلك الوحشية التي أظهرها في قتله الضابط، وتقييده مع زميله المغمى عليه، ومن بعدها، بدأ العنف يسري في دمه، والوحشية تسكن في عقله.

يلتقي الفكر اليميني المتطرف مع الفكر الديني التوراتي في ارتكابهم للمجازر بحق الفلسطينيين، فهم لا يأبهون في قتلهم لرجل أو امرأة أو طفل أو حيوان، وهذا ما جاء في التوراة في سفر يشوع "وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُل وَٱمْرَأَةٍ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ"(يشوع 6: 21)، وفي تبريرهم القتل يستندون إلى توراتهم، وهذا ما حصل مع نتنياهو عندما وعد بتحقيق نبوءة إشعياء خلال الحرب.

وفي العودة إلى الرواية، بعد تورط (رافي) بالقتل في منزله، قرر أن يفر إلى (عين حارود) بعد أن سمع في الإذاعة أنها ما زالت تحت السيطرة، ولم تستطع يد الانقلاب من العبث فيها، أو الوصول إليها، فهي المكان الأنسب له؛ كي يكون بعيدًا عن الضباط والجنود في تل أبيب، فمن المستحيل أن يتركوه وشأنه بعد أن قتل جنديًا منهم وقيد آخر في منزله، فعين حارود أصبحت تشكل الأمان والاطمئنان بالنسبة لرافي، على العكس من تل أبيب وما تمثله من وحشية ودمار، لهذا نراه يقول: "لكن لا خيار أمامي سوى الذهاب إلى هناك. إذا كانت عين حارود قائمة فهناك مكاني" (كينان، 1984، صفحة 204).

يكشف لنا الراوي عن نوايا اليمين الخبيثة، فهم يسعون لتفريغ إسرائيل من الفلسطينيين والإسرائيليين اليساريين، فهم عائق أمام اليمين لتنفيذ نبوءة إسرائيل الكبرى التي يتوهمون بها، ووجود الفلسطينيين واليساريين يعيقهم عن ذلك، فقتل الطرفين عند اليمين حلال وواجب بموجب تعاليمهم المتطرفة، والتي يستمدونها من التوراة كما سبق.

3.2.2.2 المكان المسالم (عين حارود)

لقد شكلت عين حارود المكان المسالم بالنسبة لرافي، فهي بر الأمان الذي يريد اللجوء إليه من نار تل أبيب، حيث كان يكابد طوال الرحلة من أجل الوصول إليه مهما كلفه الأمر، فهي المكان الوحيد الذي يخلو من

الانقلاب والحرب، حيث إن الحكومة استطاعت حماية المنطقة من هجمات الجنرالات الذين انقلبوا عليها، وأفشلوا جميع محاولاتهم في دخول المنطقة، لذا قرر رافي أن يخاطر ويحاول الوصول إلى المنطقة (كينان، 1984، صفحة 204)، فلم يبق أي خيار أمامه للنجاة بحياته، وكأن عين حارود أصبحت جنة النعيم للفارّين والمطلوبين، بينما تل أبيب أصبحت الجحيم أمام سكان إسرائيل.

يصل رافي أخيرًا إلى ما يظن أنها (عين حارود)، لكنه يتفاجأ بعدم وجود ما يدل على الحياة في المنطقة، إذ لا أثر لإنسان ولا لبناء، ولا لأي شيء سوى بعض آثار أقدام الحيوانات (كينان، 1984، صفحة 258)، يتضح لرافي أن عين حارود اختفت عن الوجود حسب ظنه، ولم يبق سوى الأرض التي بقيت شاهدة على وجود قرية فيها سابقًا، فالقرية يبدو عليها أنها فرغت من أهلها منذ زمن بعيد، إذ لا يوجد فيها ما يدل على وجود الإنسان، ولا آثار للنباتات التي يزرعها الإنسان أيضًا، مما يعني أن الأرض ليس فيها حياة منذ وقت ليس بالقصير. ومع هذا فقد ظل المكان يمثل أمانًا للكاتب وطمأنينة وراحة، إذ شعر فيه وكأنه أصم وأعمى، فلا ضجيج فيه ولا دمار، وكأنه معزول عما يحدث في إسرائيل وفي مدنها من دمار وخراب وحصار ومنع تجول، ومن هنا نجد المفارقة بين تل أبيب والمكان الذي يظن أنه عين حارود، فتل أبيب أصبحت غير آمنة للعيش فيها، ومكانًا للذبح والقتل، أما عين حارود، فكأنها بعيدة كل البعد عما يحصل في تل أبيب، أو كأنها خارج العالم الذي فرّ منه في تل أبيب، فهي تنعم بالأمان والاطمئنان كما ذكرت سابقًا، فأينما حل اليهود حل الدمار، ولو أنهم وصلوا عين حارود لما بقيت هادئة هكذا.

لكن هل حقًّا توجد منطقة اسمها عين حارود؟ أم أن رافي اخترعها في مخيلته منذ البداية للفرار من الموت؟

لا يمكن الجزم بوجود القرية أو عدم وجودها من الأساس، أو ربما تاه رافي عن طريق القرية ووصل إلى مكان آخر، وسيتم ذكر أدلة على كل فرضية من هذه الفرضيات.

لا بد أن الأمر بقي شائكًا للقارئ، فلم يعلم ما إذا كانت عين حارود قائمة واختفت بفعل الحرب، أم أنها مكان خيالي من نسج رافي فقط، لكن الأرجح أنها موجودة، وهناك إشارات تُلمح لهذا الخيار، ففي بداية

الرواية تجد رافي يتعجب من عدم ذكر عين حارود في قنوات الإذاعة على الراديو سوى إذاعة واحدة تُسمى باسم المنطقة، فهو يقول: "إن أشد ما يثير القلق أن الراديو الرسمي لم يذكر عين حارود ولا بكلمة واحدة ... هل هي حقًّا غائبة؟" (كينان، 1984، صفحة 204).

هناك حالة من الشك في تهميش عين حارود من البداية عند رافي، لكنها كانت الأمل الوحيد له من الموت، فقد كان مطلوبًا على قائمة قوات العسكر، وكان لا بد له من أن يخاطر ويسافر لها، فتراه يقول: "ولكن لا خيار أمامي سوى الذهاب إلى هناك. إذا كانت عين حارود قائمة فهناك مكاني" (كينان، 1984، صفحة 204).

وفي موضع آخر من الرواية، نجد رافي يسأل الضابط عن عين حارود فيجيبه بأن أهلها استسلموا، فهذا يدل على وجودها إذن، وقد دار هذا الحوار بينهما عندما سأل رافي القائد قائلًا: "لماذا تقول إن عين حارود لم تعد قائمة؟

- لأنها غير قائمة.
- ماذا فعلتهم بها؟
- لا شيء. هم استسلموا" (كينان، 1984، صفحة 223).

ربما كان القائد صادقًا، وأنهم وصلوا إلى القرية وقتلوا أهلها، وربما كان القائد كاذبًا بشأن القرية، وأراد بهذا الكلام أن يثني عزيمة رافي ويجعله يعود في قرار هروبه إلى عين حارود.

إن عين حارود في مخيلة رافي الهارب شكلت المكان الذي ينبع بالأمن والأمان وإنهاء الشتات والفرقة، يشبه كثيرًا لجوء اليهود قبل النكبة إلى فلسطين بعد ظنهم بأنها ستكون الوطن القومي الذي يضمهم جميعًا إلى حضنه، وينهي شتاتهم، ويمثل ملاذًا لهم بعد أن كانوا أشتاتًا لمئات من السنين في دول العالم الغربي، ولكن سرعان ما اكتشفوا أن فلسطين كابوس لهم يؤرق راحتهم، بعدما ظنوا أنهم وجدوا أرضًا يعيشوا فيها بسلام

أخيرًا، فنسجوا الأحلام في خيالاتهم وهم يحملون أشياءهم ويغادرون بلاد الغرب إلى فلسطين، وهذا بالضبط ما حصل مع رافي، فقد ظن أنه سيجد عين حارود تنتظره كالأم الحنون فاتحة ذراعيها له، فصفعه الواقع بعدم وجود شيء في المكان الذي جاهد للوصول إليه، فما أقرب اليوم بالأمس!

في النهاية، لم يتم التصريح إن كان البطل وصل عين حارود فعلًا، أم أنه لم يصلها، وتاه في طريقها، فالراوي لم يذكر أية إشارة تدل على أن المكان الأخير الذي وصله البطل هو عين حارود، وترك الأمر محيّرًا للبطل وللقارئ، والنهاية مفتوحة تعبث بها عقول القراء ومخيلاتهم، والشيء الوحيد الذي صرح به أن رافي لا يستطيع الوصول إليها إلا بمساعدة من عربي.

لكن هناك بعض الإشارات التي تدل على وجود ما يُسمى بعين حارود، ومنها طلب رافي من محمود أن يوصله إلى عين حارود، وموافقة محمود على طلبه، فلو لم تكن موجودة من الأساس لأخبره محمود بذلك، والشيء الآخر، هو حوار رافي مع الضابط، الذي أخبره أنهم استولوا عليها وهجروا أهلها وقتلوا من لم يستسلم منهم، وبذلك لم تعد القرية موجودة؛ لأنهم قتلوا من رفض الاستسلام منهم وهجروا من استسلم ومحوا آثار القرية، فأصبحت وكأنها لم تكن، إضافة إلى ذلك، قول رافي في نهاية الرواية بأنه كان يأتي إليها سابقا وأنه يحفظ الطريق جيدا، ومن المستحيل أن يكون قد تاه عنها، خاصة وأنه لم يجد بعض القرى الأخرى كبلفوليريا، ومرحافيا، ومدينة العفولة، وهذا يدل على أن اليمين بعد انقلابهم دمروا القرى والمدن العربية ودمروا المستوطنات والقرى التي سكنها اليسار بعد قتلهم، فوصلوا أخيرا إلى مبتغاهم.

وأخيرا، لعل عين حارود رمز للخلاص عند اليهود حسب وجهة نظر البطل والراوي، وخاصة اليسار منهم، ويرمز لعين حارود بالتعايش مع العرب والعيش بسلام واطمئنان دون حرب أو احتلال، وأنه من المستحيل أن يعيش اليهود دون سلام مع العرب، فكلا الطرفين لا يعيش دون الآخر، وهذه الفكرة التي تحملها فكرة التعاون المشترك بين محمود ورافي.

3.2.2.3 يافا

إن تل أبيب من أهم المدن الإسرائيلية والحيوية، التي أصبحت رمزًا للحرب والعصابات والفوضى وانعدام الأمان، وتورط رافي في قتل جنرال، فأصبح مطلوبًا لدى قوات العسكر المنقلبة في تل أبيب، فأراد الهرب إلى يافا، يقول: "لدي صديق يقطن في يافا العتيقة، قررت أن أصل إليه" (كينان، 1984، صفحة 202)، لكن يافا –بحسب وصف السارد– يسكنها المفكرون اليهود، الذين يُفترض بهم أن يكونوا أصلح الناس وأعرفهم، وينشرون الفكر السليم بين الناس، ويأمرونهم بإعطاء الحقوق والابتعاد عن كل ما هو محظور، لهذا قرر بطل الرواية أن يترك تل أبيب ويهرب إلى يافا، لكن لو نظرت إلى حقيقة المفكرين في يافا، ترى أنهم يقبلون السكن في منازل هُجر منها أهلها الفلسطينيون قسرًا عام 1948م، هؤلاء يثق بهم الراوي، ويثق بهم اليهود، فقط لأنهم سكنوا في بيوت الفلسطينيين المهجرين، وهذا الفعل ما هو إلا شذوذ بحد ذاته، فكيف للمفكر العاقل الذي يدرك حقائق الأمور أن يقبل بمثل ذلك، خاصة وإن كان قد عانى من الظلم نفسه في الدول الغربية، وتحديدًا في ألمانيا في حكم النازيين، ويُفهم من كلام (رافي) –الذي يعكس وجهة نظر الكاتب نفسه– أن الفكر الصهيوني فكر عنصري، قائم على البطش والقتل والغصب، فكيف لشخص أن يثق بإنسان يغتصب شيئًا ليس من حقه؟ فهذا لا يمكن إلا إذا كان الإنسان نشأ على فكر متطرف، يبيح المحظور، ويرتكب الممنوع، ولا يأبه لأي حق، فهي طبيعة تربّى عليها، وتشربها منذ صغره من أناس متطرفين أيضًا. فترى الراوي يقول في الرواية: "ورجال الفكر الذين لم يتورعوا عن امتلاك بيوت كانت عامرة بأهالي يافا السابقين، الذين هربوا منها بالقوارب عام 1948. وعلى ذلك يمكن الاعتماد على الذي يستطيع أن يقطن في بيت أصبح صاحبه لاجئًا. فهو لن يخون. والمصيبة أنني أنا أيضًا أستطيع الاعتماد عليه" (كينان، 1984، صفحة 202).

3.2.2.4 بيارات الشارون

اختار (رافي) أن يتسلل إلى منطقة سيدنا علي، ثم إلى منطقة أطلق عليها اسم (بيارات شارون)، لكن هذه المنطقة من المناطق التي تم تهجير سكانها، وتهويدها، حيث غير الاحتلال الصهيوني اسمها إلى (بيارات شارون)، بعد أن كان اسمها (تَبْصُر) (أبو مايلة، 2002، صفحة 83)[1] أو (خربة عزون) وهي منطقة تعد من قضاء طولكرم، وتقع بالقرب من يافا، يقول الراوي: "وفيما وراء الشارع السريع تمتد مملكة بيارات الشارون الطيبة" (كينان، 1984، صفحة 206). وجاءت تسمية يافا بالبيارات مشابهة لما جاء عند (بنيامين تموز)، في قصته (سباق سباحة) أو (مباراة سباحة)، حين وصف منطقة يافا بالبيارات أيضا، وللمكان الفلسطيني حضور كبير عنده.

إن منطقة بيارات الشارون تشكل مكانًا هامًّا في الرواية، فقد صورها رافي بأنها مملكة ضخمة مبنية بكثافة، فالبطل خلال رحلته وصف مدينة ساحلية يهودية تسمى (منطقة الشارون)، امتدت من تل أبيب شمالًا إلى ما لا نهاية، حيث قال: "وبالنسبة لي فإن المكان الأكثر سوءًا هو منطقة الشارون المبنية بكثافة، تلك المدينة الساحلية الضخمة الممتدة من تل أبيب شمالًا والتي لا تنتهي أبدًا" (كينان، 1984، صفحة 206)، فهو يلمح إلى المخطط الصهيوني الذي يهدف إلى جعل منطقة الساحل مدينة صهيونية من شمال تل أبيب إلى الحدود مع لبنان وربما أبعد، فهو يعتبر لبنان ضمن حدود الدولة المزعومة، وهذه الإشارة توحي بأمرين، الأول، هو جعل المنطقة مدينة واحدة ضخمة لا يفصلها أي قرية أو مدينة فلسطينية، والثاني، إخلاء هذه المنطقة كاملة من السكان الفلسطينيين، والدليل على ذلك، أن البطل صرح بأنه لا يستطيع إيجاد عربي واحد في المنطقة بحسب قوله: "لا أمل لي هنا بإيجاد عربي" (كينان، 1984، صفحة 207)، إضافة إلى سؤال البطل في الرواية: "والقضية أين ينوجد العرب وماذا جرى لهم في غمرة هذه الفوضى الكبرى" (كينان، 1984، صفحة 206)، فسؤاله هنا يفيد التعجب الذي يوضح أن العرب غير موجودين في المنطقة.

[1] تَبصُر أو خربة عزون، تبعد عن قلقيلية 9 كيلو متر، وترتفع عن مستوى سطح البحر 50 مترًا، وبلغت مساحتها 5250 دونمًا.

لكن بما أن العرب كانوا موجودين، فأين ذهبوا؟ لا شك أن إجابة هذا السؤال تكون بفكرة التهجير القسري التي امتهنتها ميليشيات الاحتلال الصهيوني منذ حرب النكبة، فهم سعوا إلى إفراغ الأرض من السكان الأصليين الفلسطينيين، وإحلال سكان جدد هم يهود أوروبا والعالم الغربي، ومن يرفض ترك أرضه تتم تصفيته وأسرته بدم بارد، وهذا ما حدث في مجزرة الطنطورة، ومجزرة دير ياسين، وغيرها من المذابح الفظيعة التي ارتكبها الاحتلال لهدف واحد، وهو بث إفراغ الأرض من الفلسطينيين.

3.2.2.5 في الطريق إلى عين حارود

كانت خطة رافي في الهرب حسب رؤيته من تل أبيب إلى منطقة سيدنا علي على أطراف هرتسيليا عن طريق البحر، يقول: "إنه مكان اكتنفه النسيان في موقع القلب من حدود هرتسيليا ... كان عليّ أن أصل إلى هناك قبل طلوع الفجر" (كينان، 1984، صفحة 205)، ثم إلى بيارات الشارون (تَبْصُر)، ثم إلى تلال المثلث، ثم إلى مجدو عن طريق وادي عارة، ثم إلى عين حارود. هذه خطة المسير التي رسمها (رافي) في مخيلته وبدأ بتنفيذها، لكن خطته كان ينقصها عنصر، وهو العنصر العربي، فالطريق من بعد بيارات الشارون ذات طابع عربي، وكان يسكنها الفلسطينيون، ولهذا فهو يحتاج عربيًا؛ كي يدله على الطريق ويساعده في عبور الطريق بأمان، وفي أثناء تفكيره يتذكر المجازر التي ارتكبها والعصابات الصهيونية في حق الفلسطينيين، فقاموا بقتلهم وطردهم من أراضيهم واستيطانها، ويشهد على هذا قرية تبصر الواقعة في طريقه، والتي دُمرت وهُجر أهلها؛ ليقام على أراضيها مستوطنة (رعنانا)، وهذه القضية لو ذُكرت في حضور أي إنسان لأبكته وأحزنته، لكن (رافي) كان يراها قصة مضحكة وكأنها نكتة، وهذا يعبر عن العنف والبطش وحب سفك الدماء عندهم، فنراه يقول: "في أوقات أخرى كنت سأستلقي على ظهري ضاجًا بالضحك من هذه النكتة"(كينان، 1984، صفحة 206). إضافة إلى سخرية (رافي) من العرب وعاداتهم، فهو يذكر أنه لو لم يحتلوا الأرض الفلسطينية، وخاصة منطقة بيارات الشارون لوجد فلسطينيًا هناك أو وجد فتاة تدعى فاطمة تسقي القطيع، وبسبب الاحتلال لم يبق أحد من الفلسطينيين في المنطقة، الذين تغيرت عاداتهم وأشكالهم، فما عادوا يلبسون اللباس العربي، أو يضعون الكوفية، وهو يشير إلى تغير حال الفلسطينيين والعرب وتشبههم

بالأجانب في لبسهم وبعض عاداتهم. وهنا إشارة إلى صورة العربي الدنيا في نظر الصهيوني، فهو يراه متخلفا يعيش حياة البادية ويرتحل بحثا عن الطعام والشراب ويهتم لماشيته فقط.

ويثبت المخطط الصهيوني تأثيره على القلة الباقية من الفلسطينيين في الداخل، وخاصة يافا، من خلال تغيير عادات العرب وتقاليدهم ولباسهم ونمط حياتهم، وهذا التغيير مطلوب ومقصود من المؤسسة الإسرائيلية لتهويد الأرض وطمس المكان الفلسطيني، وهكذا سينسى الفلسطيني ماضيه وتراثه، وبالتالي ينسى أرضه ووطنه.

يقنع (رافي) امرأة يهودية لتوصله إلى أقرب نقطة من القرى العربية التي تقع ضمن قرى المثلث، وهي (الطيرة، الطيبة، قلنسوة)، ولكنها تموت برصاصة طائشة، فيدخل (رافي) بيارة قرب هذه القرى، والبيارة تشكل تطورًا في حياة (رافي) ففي البيارة يتعرف إلى محمود، الشاب الفلسطيني الذي هرب من قرية الطيرة؛ بسبب الأوضاع الأمنية فيها، فيتعاونان رغم الكره الذي يضمرانه لبعضهما البعض، ويسيران مع بعضهما ليخرجا من البيارة ويصلا لمنطقة آمنة بعيدة عن جنود الاحتلال الذين يحرسون المنطقة (كينان، 1984، صفحة 211)، وخلال سيرهما، كان محمود يسير في الأمام؛ لكونه يعرف المنطقة بشكل جيد، ويعرف المناطق التي الخطرة، والأماكن الآمنة لعبورهما، أما (رافي) فكان يسير خلف محمود بمسافة ليست بالقصيرة، ويحمل المسدس بيده، فهو خائف من محمود، لكن محمود يسير بشجاعة وثبات رغم المسدس الذي يحمله (رافي) في يده. والراوي يعترف على لسان رافي بوجود قرى فلسطينية، كقرى المثلث ويافا، ووجود العرب في يافا، وهي بدورها تدل على الوجود الفلسطيني في الأرض.

في بيت قرب البيارة، كان يُستخدم لحفظ صناديق الحمضيات، هناك سرداب تحت البيت، تهبط إليه عن طريق رفع إحدى البلاطات في أرضية البيت، اختاره محمود ليكون مكانًا آمنًا لهما لوقت قصير، يرتاحان فيه، ويرسمان خطتهما القادمة، لكن خوف (رافي) جعله يضرب محمود ويفقده وعيه؛ خوفًا من أن يؤذيه في ظلمة السرداب، ليدل فعله على استعداد اليهود الدائم للاعتداء والقتل والعنف في سبيل تحقيق أهدافهم

وغاياتهم، وقد كان السرداب مخزنًا للسلاح، استخدمه اليهود في حربهم ضد الإنجليز (كينان، 1984، صفحة 212)، حسب ما جاء على لسان (رافي)، فهو يحمل فكرة بأن اليهود قاوموا للدفاع عن أنفسهم أمام الإنجليز، الذين كانوا –في حقيقة الأمر– يقفون مساندين لليهود، فهم من سهل هجرتهم لهذه البلاد، وهم من دربهم، وهم من سلحهم.

أثناء سيرهما تجاه وادي عارة المؤدي لمجدّو، دخلا بيارة اتضح أن كمينًا كان معدًّا فيها، فأطلقوا عليهما النار وأصيب (رافي)، لكنه قتل واحدًا منهم وأعطى سلاحه لمحمود، وبدأ الاشتباك بين الطرفين (كينان، 1984، صفحة 216)، وقاتل محمود بجانب (رافي)، وكأن كينان يحاول أن يصنع سلامًا مؤقتًا بين الطرف الإسرائيلي والطرف الفلسطيني في روايته، وأنه ليس مستحيلًا أن يكون الطرفان إلى جانب بعضهما البعض، فالمخطط الإسرائيلي أن يجعل العرب أتباعًا، ومن هنا تبدأ هذه الفكرة في الظهور في علاقة محمود و(رافي) في الرواية.

يمثل الشارع في الحياة مصدرًا رئيسًا لطلب الرزق، والسعي، والتغيير، فكل شيء يتم في مكان ما إنما يبدأ من الشارع، فهو ملتقى الناس، وهو ملتقى الأعمال والأفكار، لكن في الرواية، كان الشارع يمثل خطرًا كبيرًا؛ بسبب حالتي الفوضى والانقلاب اللتين سادتا على المجتمع الإسرائيلي، وهو المكان الذي خطف منه القائد وسائقه من الجيش على يد رافي ومحمود، ونكتشف أن القائد والسائق اسمهما رافي أيضًا، فنلحظ تكرار اسم (رافي) كثيرًا في الرواية، لعله يرمز إلى (حزب رافي) الذي أنشأه بن غوريون عام 1965، ويتعلق بفضيحة لافون، التي ارتبطت بتأسيس جماعة إرهابية في مصر من أجل التخريب؛ حتى لا تستطيع مصر السيطرة على القواعد البريطانية الموجودة في سيناء بعد انسحاب الجيش منها في العدوان الثلاثي.

تتضح للقارئ فكرة إنكار أحقية الفلسطينيين بأرضهم في بعض المواضع من الرواية، والاعتراف بها في مواضع أخرى بطريقة غير مباشرة، فمن باب الإنكار تسمية أرض فلسطين "أرض إسرائيل"، أي أرض سيدنا يعقوب (عليه السلام)، وليس الإنكار في نسبها إلى سيدنا يعقوب (عليه السلام)، بل لأنهم ينسبون سيدنا

يعقوب (عليه السلام) لأنفسهم؛ لأنه كان نبي بني إسرائيل، وأنهم من نسله، فبالتالي إن الأرض من حقهم أيضًا، وهذا تصريح مباشر بأن أرض فلسطين حق لبني إسرائيل، جاء في الرواية: "الماء كان دائمًا مشكلة في "أرض إسرائيل"" (كينان، 1984، صفحة 221).

ومن الإشارات التي دلت على إنكار أحقية الفلسطينيين بأرضهم، ومحاولة إثبات الرواية الصهيونية بأن فلسطين الأرض الموعودة لليهود، يطالعك في الرواية بئر يتصل بخنادق وأنفاق وغرف تحت الأرض، يشبه –على حسب وصف الرواية– مدينة صغيرة تحت الأرض، وفي الكهف تظهر العنصرية الصهيونية والفكر الإجرامي، فمثلًا، ترى البطل (رافي) يقول في العرب: "فعلى نسق العربي الجيد هو العربي الميت، تأتي مقولة اليهودي السيء هو اليهودي الميت" (كينان، 1984، صفحة 223)، وفي موضع آخر ترى القائد (رافي) يخاطب البطل (رافي) عن قتل العرب دون إبداء أي ردة فعل تدل على إنكار ذلك، بل على العكس يخاطبه وكأنه يفخر بذلك، فيقول: "يخيل لي أنك واحد من أولئك الذين حظوا بقتل عرب" (كينان، 1984، صفحة 223)، ويظهر العنف والقتل في أغانيهم أيضًا، فمن الأمثلة عليها، غناء (رافي) يقول: "في المتاريس نلتقي. وفي المتاريس نرفع بالدم والنار لواء الحرية" (كينان، 1984، صفحة 226). أما الكهف فكان خيارًا جيدًا لهم للاختباء فيه، فبعد اختبائهم في الكهف ببضعة أيام هطلت الأمطار ومسحت آثار أقدامهم، فلن يقدر أحد أن يتبع الأثار ويعرف مكانهم، وفي هذا الموضع يتناص كينان مع قصة سيدنا نوح (عليه السلام)، في إخبار محمود عن هطول الأمطار، يقول محمود (لرافي): "اشهد، قال، ها هي ذي الحمامة تعود إلى السفينة. في الخارج طوفان" (كينان، 1984، صفحة 225).

تستمر محاولة إثبات حق لليهود في فلسطين من خلال محاولة رسم طبيعة المكان تحت الأرض، فأثناء بحث رافي عن مخرج آخر للمغارة، يجد كنيسًا وبركة ماء للتطهير وشمعدانًا بسبع شمعات (كينان، 1984، صفحة 234)، فهو يشير إلى وجود آثار يهودية تحت الأرض أيضًا في فلسطين، وما هذا إلا ضرب من ضروب الخيال في الرواية، ومحاولة لإثبات الرؤية الصهيونية. إضافة إلى ذلك، ذكر وجود اليهود في

فلسطين قبل أكثر من 1800 سنة، في منطقة أطلق عليها اسم (صحراء يهودا)، وهي المنطقة الممتدة من شرق القدس إلى البحر الميت، فكما تعلم، أطلق اليهود اسم يهودا والسامرة على منطقتين في فلسطين، يهودا جنوبًا وخاصة في الخليل، والسامرة شمالًا وخاصة في نابلس، ولكن الجميع يعرف أن وجود اليهود في فلسطين كان عبارة عن احتلال لها منذ الأزل، فهم احتلوها في عهد يوشع بن نون، بعد أن قتلوا جميع أهلها (عرابي، 2006، صفحة 182)، وبعد الأسر البابلي عادوا إلى فلسطين، وحاولوا أن يقيموا دولة لهم، وهو ما سبب الحروب والثورات بين اليهود والرومان، التي تكمن الرومان من قمعها والقضاء عليها (كينان، 1984، الصفحات 242-243).

تشكل الأحراش في العادة ملجأ للفدائيين والمقاومين، فهي مساحة من الأرض تغطيها الأشجار في كل الاتجاهات، فكان الثوار والفدائيون يأوون إليها من أجل الحماية والتخطيط، إضافة إلى أنها تشكل مكانًا هادئًا للتنزه أحيانًا، ولرعي المواشي، وللأحراش مكان في الذاكرة الفلسطينية في مقاومة الاحتلال الصهيوني، فلا أحد ينسى الشهيد محمد زقوت الذي اغتالته قوات الاحتلال عام 1966 م، وكان يتخذ من أحراش مدينة رفح ملاذًا له بعد كل هجوم يقوم به ضد قوات الاحتلال.

ولا يختلف الأمر كثيرًا في الرواية، فالبطل رافي قرر أن يهرب مع محمود الطيراوي والقائد وليئورة من السراديب الموجودة تحت الأرض؛ حتى لا تتمكن منهم قوات الاحتلال، ولهذا خرجوا إلى أحراش البلوط متخذين منها وسيلة حماية (كينان، 1984، صفحة 236)، ومن أحراش البلوط إلى الأودية المنخفضة؛ كي لا يراهم قائد منطقة الشمال وكتيبته، إلى أن وصلوا لمنحدرات في نهايتها حرش في شق صخري، شكل لهم الأمل الذي يحتاجونه، لكن سرعان ما اكتشفوا أن الأمل كان مجرد حلم وخيال، إذ قطع أحلامهم وتخيلاتهم صوت قائد منطقة الشمال وهو يطوقهم (كينان، 1984، صفحة 242)، فعرفوا أن نهايتهم قد حانت، إلى أن وصلوا إلى مشارف مجدّو، فاطمأنت سريرتهم إلى حد ما، وفرحوا بالمناظر الطبيعية الخلابة، وبالحياة التي تبدو هادئة في مجدّو، وليست كما مر عليهم في رحلتهم، لكن استوقف رافي شيئًا في الطريق، وهو أن

القرى التي مروا عنها لم يشاهد فيها عربيًّا واحدًا، فتذكر المجازر التي ارتكبوها سابقًا في القرى الفلسطينية عند احتلالهم لفلسطين عام 1948م.

وصلوا إلى نقطة عسكرية، كانت مركز شرطة مجدّو، ينعم بالأمن والأمان؛ لتمركز قوات كبيرة فيه، وهذا ما كان يخافه رافي كثيرًا، فهو يعلم أن مجدّو خطرة جدًّا عليه، وكان سيمر منها في طريقه إلى عين حارود، لكنه كان خائفًا من هذه المغامرة، ومجبورًا عليها في الوقت ذاته، وأثناء وصولهم جاءت الأخبار بمحاولة انقلاب جديدة لكن قُبض على قادتها وسيُحاكمون، ونعلم بعد ذلك أنهم تمكنوا من الفرار وتحريض الجميع ونجحوا بالانقلاب على الحكومة (كينان، 1984، صفحة 252). أُدخل رافي زنزانة محصنة أيضًا، كان السجن مما بقي من الإنجليز، شيّدوه عام 1936م (كينان، 1984، صفحة 250)، وكان يقضي وقته في السجن بين النوم والتفكير والمشي داخل الزنزانة، بينما أُعدم رافي الضابط ورافي السائق ومحمود الطيراوي، فتهمة رافي الضابط هي الخروج عن الأوامر العسكرية، ورافي السائق مساعدة الضابط في تنفيذ ما أراد، أما محمود فأُعدم لأنه حاول قتل الضابط بسكين يخبئها في ملابسه (كينان، 1984، صفحة 253)، وهذا يعكس بعض ملامح الشخصية الفلسطينية، التي لا ترضى بالذل والهوان، ولا تسكت عن حقها ولو كلفها ذلك حياتها.

في آخر محطة وصل إليها قائد منطقة الشمال مصطحبًا معه (رافي وليئورة)، كانت قاعدة عسكرية تحت الأرض لإدارة الحروب، محكمة الإغلاق، تتكون من أنفاق محصنة بالباطون الصلب، تفصل بينها أبواب فولاذية مصفحة، ينتهي بك الأمر إلى قاعة كبيرة مليئة بالشاشات والتكنولوجيا، التي اتضح أنها قاعة لتنظيم الحروب كما ذكرت، وللمراقبة (كينان، 1984، الصفحات 253–254)، وهي أشبه بالحصن والملجأ تحت الأرض، وهذه الملاجئ مشهورة في بلاد الغرب وعند اليهود الذين يحبون الحياة ولا يفرطون بها، على العكس تمامًا من العرب والمسلمين، الذين يقبلون على الموت بعزيمة وثبات لا يرهبون له جانبًا. كانت خطة قائد الشمال أن يقصف نينوى، وبابل، وهدفه من قصف نينوى أن يقضي على (سنحاريب وشلمنصر) ملكي

آشور وبابل بسبب احتلال القدس (أورشليم) (كينان، 1984، الصفحات 255–256)، والهدف الثاني قصف بابل؛ كي ينتقم من (نبوخذ نصر)، ويمحو بابل كاملة عن الوجود، إضافة إلى ضرب إسبانيا للقضاء على طيطوس (كينان، 1984، صفحة 256)، وهنا يثبت القائد مدى حقد اليهود على غيرهم من الأمم، والمخططات الخفية للوصول إلى باقي البلاد العربية بهدف إقامة ما يُسمى (إسرائيل الكُبرى) من البحر إلى النهر، لكن حلم القائد لم يتحقق، إذ قُتل على يد (رافي) وقُتل حارساه أيضًا، وتمكن رافي من أن يخرج من القاعدة بصحبة ليئورة التي ملّت الحياة أخيرًا وقررت الانتحار (كينان، 1984، الصفحات 257–258).

3.2.2.6 وصف الطريق إلى عين حارود

ذكر الباحث سابقا خطة الطريق التي وضعها البطل (رافي) للسفر من تل أبيب إلى عين حارود، وقد كانت من تل أبيب إلى منطقة سيدنا علي على أطراف هرتسيليا عن طريق البحر، ثم إلى بيارات الشارون (تَبْصُر)، ثم إلى تلال المثلث، ثم إلى مجدو عن طريق وادي عارة، ثم إلى عين حارود.

بدأ البطل رحلته متخفيًا من بيته عبر ساحات البيوت التي تجاوره إلى شاطئ تل أبيب، ثم شق طريق البحر سباحة إلى منطقة سيدنا علي، ولم يخلُ الجو من الطائرات العمودية العسكرية التي تبحث عن فريسة تصطادها، ثم خرج من البحر وسلك منطقة مستوية تنذر ببدء السهل الساحلي، سار إلى أن وصل للشارع الذي يفصله عن بيارات الشارون، لكن عبوره كان صعبًا؛ لوجود الدبابات عند العبارة والجسر، ووجود برج للمراقبة، ومع هذا فإن البطل نجح في عبور الشارع من العبارة ليصل إلى بيارات الشارون بأمان، ومنطقة الشارون مليئة باليهود، ولا يمكنه العبور منها إلا بمساعدة عربي، وطالما أنه لن يستطيع العثور على عربي في المنطقة يقرر أن يجد يهودية تعبر به المنطقة، وبالفعل، فإنه يعثر على امرأة يهودية في حي يهودي مليء بالفيلات، تنقله لأقرب نقطة من منطقة المثلث العربية، يدخل عندها إلى بيارة فيلتقي فيها بمحمود الطيراوي.

تبدأ رحلة البطل بصحبة محمود الطيراوي، لم تكن الرحلة يسيرة، بل كانت عسيرة، فالطريق مليئة بالنقاط العسكرية، وأبراج المراقبة، والسياج الفاصل، والكمائن التي نصبها جنود الاحتلال في البيارات، أدت إلى اشتباكهما مع كتيبة وإصابة رافي في كتفه، وبعض المشاهد المؤلمة التي وقعت أمامهما كإعدام مجموعة من الناس، يضعان خطة للرحلة، فيخرجان من البيارة ليختطفا القائد (رافي) وسائقه، يقرران بعدها أن يأخذا الأسيرين ويهبطوا جميعًا إلى ما شبهها رافي بمدينة تحت الأرض، يختبئ الأربعة فيها لبضعة أيام، ثم يقرر رافي أن يخرجوا جميعًا منها؛ خوفًا من غدر قوات الاحتلال، خرجوا إلى حرش بلوط، وبدأوا بصعود مرتفع مسطح، ثم سلسلة من الهضاب، إلى أن انتهوا إلى حرش بلوط آخر، مكثوا فيه وقتًا للراحة، وشاهدوا الصواريخ وسمعوا صوت الرشاشات واشتموا الدخان من اقتحام الجيش للمدينة تحت الأرض، قرر رافي أن يكملوا الطريق إلى عين حارود، وأن يسرعوا، بعد أن طلب من قائد منطقة الشمال أن يجهز لهم سيارتين مصفحتين بعد تهديده ببعض المعلومات الحساسة التي عرفها عنه من القائد رافي، والتي تمس وظيفته وسمعته، كانت الطريق هذه المرة نحو مجدّو، لكن محمود أوقفهم وطلب أن يسيروا عكس الاتجاه؛ لأن قائد منطقة الشمال سيتوقع طريقهم وسيحاصرهم، وافقوا جميعًا على خطة محمود وساروا معه نحو الجنوب الشرقي، واستمروا في الركض إلى أن وصلوا لمنطقة مستوية، تمكن قوات الجيش يترأسها قائد منطقة الشمال أن يطوقهم فيها ويأسرهم.

بدأت رحلتهم هذه المرة أسرى في مصفحة مع قائد منطقة الشمال، استمروا في السير إلى أن وصلوا لمشارف مجدّو، التي امتازت بالطبيعة الجميلة الساحرة، كروم العنب، وأشجار الزيتون، وسلاسل حجرية، وجداول ماء، وجبال، وحيوانات تسعى لرزقها، لكن هذه الطبيعة صاحبها مظاهر دلت على وقوع المجازر فيها، وشهدت على وحشية الاحتلال، فالجداول كانت تمتلئ بالمياه شتاء، وبالدم صيفًا، والحقول شهدت المجازر والقتل، والكهوف في الجبال مملوءة بجثث المتمردين على الحكومة. وهنا يتناص الكاتب مع الأساطير، فهذه الطبيعة ذكرت البطل بإله الحب عشتار، والدم والجثث ذكرته بالإله بعل الذي كانت تُذبح لأجله القرابين.

استمرت رحلتهم بالسير إلى أن وصلوا مركز شرطة مجدّو، وكانت هذه المحطة الأخيرة لهم في الرحلة، حيث سُجنوا في زنازين، وفي الصباح أُعدم محمود، ورافي القائد، ورافي السائق، وبعد حصول انقلابات معاكسة في البلاد، أخذ قائد منطقة الشمال البطل رافي وليئورة إلى قاعدة إدارة الحروب المنشأة تحت الأرض بإحكام، والتي تمكن رافي فيها من قتل قائد منطقة الشمال، وحارسيه، وخرج من القاعدة بصحبة ليئورة؛ ليكمل طريقه إلى وجهته منذ بداية الرواية، وهي عين حارود، التي لا يُعرف –كما أُسلف– إن كان وصلها حقًّا أم أنه لم يصلها.

3.2.3 دراسات أخرى في الرواية

3.2.3.1 الشراكة اليهودية الفلسطينية

سعى رافي منذ بداية خطته في الهرب إلى إيجاد عربي يهرب معه، وكانت خطته قائمة على العرب على حد قوله: "يتعين علي أن أجد عربيا، دون عربي لن أنجح في الوصول إلى وادي عارة" (كينان، 1984، صفحة 206)، من هنا بدأت فكرة الشراكة بين رافي وشخص عربي فلسطيني، فهو أعلم منه بالطرق، وما تخفيه من مخاطر، فهو من سكان المنطقة، بينما رافي لاجئ إليها لا يعرف شيئًا عن المنطقة، فبدون الفلسطيني سيفشل في الوصول لهدفه، حيث بدأت رحلة رافي ومحمود منذ اللحظة التي سارا فيها معًا، فرافي يريد أن يظهر أنه من غير المستحيل إقامة شراكة يهودية فلسطينية، ولكن مع الحذر من الفلسطيني، فاليهودي لا يشعر بالأمان مع الفلسطيني نهائيًا، ونلحظ هذا من استغراب محمود فعل رافي، فقد طرح عليه السلام وهو يوجه إليه مسدسًا (كينان، 1984، صفحة 211)، فرافي يؤمن بإمكانية عقد شراكة مع الفلسطيني، لكنه لا يأمنه أبدًا، فعلى الرغم من رغبته في البقاء معه إلا أنه يتعامل معه بعنف ممزوج بالخوف والرهبة، فقد قام بشد وثاقه تارة، ورشه بغاز مسيل للدموع تارة أخرى، وضربه بالمسدس على رأسه أخيرًا، وهذه حالة من التوتر أصابت رافي؛ لخوفه الكبير من الفلسطيني على الرغم من امتلاكه للسلاح، بينما محمود أعزل.

تستمر الشراكة بين رافي ومحمود إلى نهاية الرواية، فقد خلُصا إلى عقد اتفاق بينهما بإكمال الرحلة معا إلى أن يصلا لوجهتهما، ولاحظنا الانسجام بينهما مع مرور الأحداث، وكيف أصبحا يدافعان عن بعضهما البعض أمام المخاطر التي تواجههما في الطريق، ومع هذا فإن الكراهية المتبادلة بين الطرفين لا يمكن أن تختفي، فقد ظهر ذلك في كلام محمود مخاطبًا رافي: "حسبتم أنكم جففتم كل المستنقعات، ولم تعرفوا أنه سيظل دوما مستنقع واحد ... وهذا يعني أنكم في خاتمة المطاف ستغرقون في هذا المستنقع" (كينان، 1984، صفحة 215)، فمحمود يرمز في المستنقع إلى الفلسطينيين الذين بقوا بعد التهجير، وأنهم سينهون ما يُسمى دولة إسرائيل في نهاية الأمر مهما طال.

ومع استمرار الرحلة بينهما تتوطد العلاقة والشراكة، فهما يعملان معًا وكأنهما صديقان، وهذا ما يريد رافي أن يلفتنا إليه، وفي نهاية المطاف تنتهي الشراكة بإعدام محمود، فيغضب رافي لإعدامه ويشفق عليه وعلى خسارته، وهذا ما عبر عنه في قوله: "ما كان ينبغي أن يموت محمود" (كينان، 1984، صفحة 251).

يطارد رافي الشعور بالحنين لمحمود والندم لبعض تصرفاته معه، وكأنه فقد صديقًا حميمًا له، ويتمنى لو أنه غنى معه وقضى معه وقتًا ممتعًا (كينان، 1984، صفحة 251)، ويعبر رافي عن شدة شوقه لمحمود والشعور بفقده، عندما قال: "والآن، ومحمود قد غاب عني، لمن سأنقل بشرى عين حارود؟" (كينان، 1984، صفحة 251)، فهر يريد أن يشاركه اللحظات السعيدة كما شاركه اللحظات الصعبة التعيسة، لكن يد الموت طالته قبل ذلك، مما يدفع رافي لأخذ قرار الانتقام من قتلة محمود، فيقول: "لا غفران ولا نسيان لموت محمود ... ولو كان آخر عمل أقوم به هو الأخذ بثأره، فسأفعل" (كينان، 1984، صفحة 251).

لقد نقل رافي تجربته الصعبة، ومفادها أن الشراكة بين الفلسطيني واليهودي ليست مستحيلة، قد تكون صعبة، لكنها ستحصل في النهاية، وقد خرجت الشراكة هنا لدلالة أخرى، وهي إمكانية التعايش بين الفلسطينيين واليهود بسلام، إذ لا يمكن لطرف أن يعيش دون الآخر، فالوصول إلى عين حارود شكل الأمن والأمان والاستقرار، فهي الفردوس بعد أن تحولت كل البلاد إلى جحيم، تعكس صورة الواقع، فبعد العنف والعنصرية

والقتل والتدمير بسبب الفكر الصهيوني الذي زُرع في عقول الأجيال واللاجئين اليهود، وجدوا أنه لا فائدة منه ولن يحصلوا على الأمن والاستقرار بالعنف، فيريد رافي أن يخرج عن هذه الصهيونية ويُظهر لنا فكره المسالم بعقد شراكة فلسطينية يهودية للعيش في سلام في فلسطين.

إن فكرة التعايش بين الفلسطينيين واليهود لا تأتي إلا بعد التخلي عن الفكر المتصهين الذي يقوم على الكراهية والعنف والقتل، ولا يعترف بوجود الفلسطيني أو العربي بشكل عام، وبعد أن فشل الفكر الصهيوني في تحقيق مساعيه، لا بد لليهود أن يتوجهوا لفكرة التعايش بحسب موقف رافي، فقد تخلى عن يهوديته؛ بسبب ما رآه منهم من قتل وتنكيل وتدمير، وشعوره بالذنب تُجاه ما ارتكبه من مجازر بحق الفلسطينيين، وهذا ما يلمحه القارئ من خطاب البريغادير ورافي، فعندما قال البريغادير: "اليهود هم أنا" (كينان، 1984، صفحة 223)، يجيبه رافي بتهكم: "أنا أيضا كنت ذات مرة" (كينان، 1984، صفحة 223)، فهو يسلخ نفسه عن أبناء قومه لما يحمله من فكر مغاير، وخاصة اليمين منهم.

3.2.3.2 القرى المهجرة والآثار العربية في المكان

كشف رافي بطل الرواية من خلال شهاداته المستمرة وجود الآثار التي تعود للقرى الفلسطينية التي هجرها الاحتلال ودمرها إبان النكبة، فقد شهد تهجير بعضها، ومر من بعضها الآخر بعد تدميرها، وقد لجأ الاحتلال لهذا من أجل بث الرعب في قلوب السكان الأصليين الفلسطينيين، وإجبارهم على الخروج، وتهويد المكان الفلسطيني وتحويله إلى قرى جديدة ومدن تعج باللاجئين اليهود الذين جاؤوا من الشتات.

إن أول ما يطالعه الدارس في بداية الرواية تذكر رافي قرية فلسطينية في طريقه إلى منطقة هرتسيليا، تم مسحها بالكامل، فتراه يقول: كانت هناك قرية عربية طواها النسيان، ومحطة رادار لا تزال قائمة" (كينان، 1984، صفحة 204)، لكنه لم يصرح باسم القرية، على عكس ما حصل في طريقه إلى مجدو مع محمود، حيث مر الاثنان من قرية مدمرة أقيمت على أراضيها مستعمرة تُسمى "عين هجوريش" (كينان، 1984، صفحة 216)، كان الاحتلال قد دمرها، فهو يذكر أن القرية تحولت إلى غبار، فلم يبق بيت ولا خزان مياه

ولا غرف طعام، كلها سويت بالأرض وتناثرت غبارًا، وبقي المكان شاهدًا على وحشية المحتل في تدمير تفاصيله وتشويه صورته، وما هذا إلا غيض من فيض قام به الاحتلال الصهيوني في فلسطين بهدف تدمير القرى وتهجير سكانها.

3.2.3.3 مؤشرات مستقبلية في الرواية

تظهر بعض التلميحات التي قصد إليها الكاتب على لسان الراوي بشأن السياسات الصهيونية، حاول من خلالها استشراف المستقبل من خلال الماضي والحاضر، خاصة وأنه واحد منهم، وشارك معهم في مجازرهم بحق الفلسطينيين العُزّل عام 1948 م، فهو يتطرق إلى سياسة الإبادة التي ارتكبها الصهاينة في القرى الفلسطينية بحق المواطنين الفلسطينيين العزل، فتراه يقول: "يأمرهم واحد يبدو أنه القائد أن يقفوا صفًّا واحدًا. بعد ذلك يستل ورقة ويقرأ منها أمرًا ما. ثم يبتعد جانبًا. أمر قصير_ نار. الناس يهوون" (كينان، 1984، صفحة 216). يدل المشهد على وحشية الاحتلال المستمرة، والتي تسعى للإبادة الجماعية للفلسطينيين حتى لا تبقي منهم أحدًا، فالكاتب يعطي بعض التلميحات للمخططات الصهيونية في المستقبل، وهي حقيقة لا ينكرها أحد، فإسرائيل تسعى بشتى الطرق إلى إفراغ الأرض من الفلسطينيين، وهذا ما لمح إليه أيضًا عندما سأل الضابط عن العرب الذين كانوا يسكنون القرى، فأجابه الضابط قائلًا:

"بعثنا بهم جميعًا من هنا.

– إلى أين؟

– إلى مكة. إلى المكان الذي قدموا منه. الآن بمقدورهم أن يركبوا هناك على الجمال في الصحراء وأن يغنوا ما يشاؤون" (كينان، 1984، صفحة 248).

تستنتج من قوله أمرين، الأول هو المخطط الصهيوني القائم على تهجير الفلسطينيين خارج البلاد، وهو ما يُعرف بخطة (الترانسفير) أي تهجير الفلسطينيين، التي كان يلمح لها (شارون) كثيرًا، وإن كان بطريقة غير مباشرة، والثاني، الاستهزاء بالعرب والعادات العربية، والنظرة الدونية لهم، والاستهتار بحياتهم، وهذا ما يراه

القارئ في تصريح الضابط حول عدم وجود العرب في القرى، ووجود الحمير والماعز والحيوانات فيها، فهذه الحيوانات برأيه تملك الحق في العيش لسببين، الأول، ليس ذنبها أنها امتلكت من الفلسطينيين، والثاني، أنها تعود إلى سلالة الحيوانات العائدة للعبرانيين. فهو يعطي للحيوانات حقوقًا لا يُعطيها الفلسطينيين، بل يسلبها منهم، وليس العالم الغربي بأفضل منه، فهم دائمًا ما يتغنون بحقوق الإنسان ولا يأبهون لقتل الإنسان.

وفي الحديث عن القرى الفلسطينية وتهويد الأرض بعد احتلالها، يقول رافي الضابط: "لدينا خطة. سنصعد عليها جميعها بالبلدوزر، وبعد شهر أو شهرين على الأكثر لن تكون أية علامة تشير إلى أنها كانت قائمة هنا" (كينان، 1984، صفحة 248). هذه حال القرى والمنازل الفلسطينية بعد طرد أهلها، وشوهد مثل هذه المشاهد كثيرًا، لطالما رأى الفلسطيني البلدوزرات الإسرائيلية وهي تسوّي المنازل بالأرض وتخفي آثارها، وهذه السياسة ما زالت موجودة إلى اليوم، فقد شهدت بعض المدن الفلسطينية كنابلس، وجنين، وطولكرم، وقصف غزة، وهي سياسة تدميرية تهدف لمحو الوجود الفلسطيني كله.

إن المشروع الصهيوني الاستيطاني لن يتوقف ولن يهدأ حتى يحقق مطامعه، فإسرائيل لن تقبل بأرض فلسطين فقط، وإن العربي الذي يظن أن إسرائيل لن ترغب في بلاده فإنه مخطئ جدًّا، فاليهود يريدون أن يعيدوا ما يسمونه (إسرائيل التاريخية)، وهي تشمل بقعة أوسع من فلسطين، ويجب أن تكون إسرائيل بنظرهم من نهر النيل إلى نهر الفرات، وهذا ما ذكره هيرتزل في تصريح له قائلًا فيه: "المساحة: من نهر مصر إلى الفرات. لا بد من فترة انتقالية لتثبيت مؤسساتنا يكون فيها الحاكم يهوديًّا ... وما أن تصل نسبة السكان إلى الثلثين حتى تفرض الإدارة اليهودية نفسها سياسيًّا" (كيالي، 1966، صفحة 61)، يُلحظ من تصريحه الحدود التي تسعى إليها الصهيونية، بالإضافة إلى زيادة السكان اليهود في المنطقة، وسيحدث ذلك بطريقتين، الأولى، استقطاب اليهود من كل أنحاء العالم؛ ليهاجروا إلى فلسطين ويستقروا فيها، كما أسلفنا عند الحديث عن قانون القومية اليهودية، حيث يسعى القانون لجلب اليهود الشتا في كل أنحاء العالم وحشدهم في فلسطين، والثانية، بتهجير السكان الفلسطينيين والعرب من دولهم ومدنهم؛ للوصول إلى النسبة المنشودة. وهذا ما أكده

(مناحيم بيغن) في تصريح له قائلًا فيه: "منذ أيام التوراة وأرض إسرائيل تعتبر الأم لأبناء إسرائيل. وقد سميت هذه الأرض فيما بعد فلسطين، وكانت تشتمل دومًا على ضفتي نهر الأردن" (كيالي، 1966، صفحة 99).

3.2.3.4 بعض التناقضات في إسرائيل

حاول كينان أن يُقدم الرواية بقالب متكامل، بحيث يُظهر للقارئ عملًا يخلو من المتناقضات الفكرية والشخصية، خاصة وأن الكاتب من مناصرين معسكر السلام –كما أُسلف الذكر–، أي أنه يسعى للدفاع عن الحقوق الفلسطينية والعربية داخل فلسطين، لكن إلى أي حد كان مسالمًا؟ يُبدأ أولًا بالحديث عن "إسرائيل".

منذ أن قامت إسرائيل على الأرض الفلسطينية وهي تسعى إلى ترسيخ دعاية الديموقراطية للعالم، وأن إسرائيل تكفل جميع الحقوق داخل أراضيها، وأنها دولة الأمان والسلام، لكن هل هذه الدعاية صحيحة؟ سيرد بعض الأمثلة التي تُظهر حقيقة إسرائيل، ففي بداية الرواية ترى الأبطال أمام انقلاب عسكري على الحكومة القديمة، يفرض منع التجول على السكان، ومن يخالف الأوامر تتم تصفيته، ويُلاحق كل من كان من أنصار الحكومة القديمة، أو من ينوون الخروج عن الحكومة الجديدة، وهذا ما رأيناه في مطاردة البطل (رافي)، فقد حاول عناصر الحكومة الجديدة تصفيته، وطاردوه إلى أن وصلوا إليه، وبذلوا في ذلك ما بذلوا، وعندما حصلت محاولة انقلاب جديدة نفذها قادة من أتباع القائد (رافي)، اعتقلوا وكانت النية تصفيتهم، كما تمت تصفية القائد (رافي) وسائقه. إضافة إلى عدم المبالاة في قتل الفلسطيني، فإسرائيل لا تضع وزنًا للدماء الفلسطينية، ولمسنا هذا في الرواية من خلال خطاب رافي مع البريغادير، عندما أراد البريغادير إقناع رافي بقتل محمود، وأنه لن يحاكم بسبب قتله لمحمود، فهو في النهاية عربي (كينان، 1984، الصفحات 222–223)، وهذه الأفعال تنفي صفة الحرية والديموقراطية التي سوقت إليها إسرائيل.

وفي سبيل الأمن والأمان اللذين تدّعيهما إسرائيل؛ لاستقطاب اليهود في أوروبا، فما هذه الدعاية إلا أكذوبة كبرى أيضًا، فالتاريخ في الواقع لم يخلُ من الحروب والانتفاضات، وهذا ما عاشه الفلسطيني وما زال يعيشه إلى يومنا هذا، وفي العودة إلى الرواية، تجد الرواية تتحدث عن الانقلابات المستمرة والفوضى والدمار والقتل

في إسرائيل، خاصة وهو يصف الحال التي آلت إليه تل أبيب، فالأمن والأمان ما هو إلا كذبة كما وضحنا، ولو كان هناك أمن لما اضطر (رافي) أن يترك تل أبيب؛ ليهرب إلى عين حارود؛ بحثًا عن الأمان.

لا شك في أن إسرائيل تسعى دائمًا لإظهار نفسها فتاة مدللة بريئة تدافع عن حقوقها أمام الفلسطينيين، لكن الفلسطينيين –في الحقيقة– يُدافعون عن أنفسهم من وحشيتها، فهي تُظهرهم كالمعتدي عليها والإرهابي دائمًا، فالسياسات الإسرائيلية ليست إلا محاولات للدفاع عن مواطنيها، هذه الدعاية التي تظهرها لدول العالم الغربي، بيد أن الحقيقة غير ذلك، وقد أظهر البطل ذلك على لسانه في الرواية عندما وصف مشاهد قتل الفلسطينيين الذين شاهدهم البطل وهو مختبئ في البيارة، إضافة إلى تذكره للمجزرة التي شارك فيها وقتل بها عددًا من الأبرياء، واعتراف القائد بتهجير الفلسطينيين وإبادة قراهم، وإقامة قرى ومدن يهودية مكانها؛ كي لا يبقى أي علامة تدل على وجود قرية فلسطينية في المكان.

3.2.3.5 بعض التناقضات عند كينان

كون كينان من مناصري معسكر السلام، فهو يرفض السياسات الصهيونية في حق الفلسطينيين، وقد حاول أن يعكس هذا المظهر على شخصية البطل (رافي)، بحيث يجعله غير عنصري، ويحاول الوقوف مع الفلسطينيين ومساعدتهم، لكن كينان لم يتقمص هذا الدور جيدًا، فقد أظهر تناقضات في الرواية سواء على لسان السارد، أو في تصرفات الشخصية (رافي)، فكينان يحاول أن يكون منصفًا مسالمًا في شخصية محمود، لكنه لم ينجح في ذلك، إذ أظهر محمودًا بصفته إنسانًا مظلومًا يحاول أن ينجو بنفسه من ظلم الاحتلال بعد أن عاث فسادًا في الطيرة، لكنه في المقابل جعل شخصيته تابعة لرافي، لا يملك رأيًا محددًا، يتملكه الضعف والتردد، ففي طريقهما كان محمود ينفذ أوامر رافي دون تردد أو رفض، إضافة إلى جعله إنسانًا فاسقًا على الرغم من كونه مسلمًا، فهو يتنازل عن مبادئ دينه بسهولة، ففي البداية يمارس الزنا مع يهودية، وفي نهاية الرواية يشرب الخمر، أو هذا ما صوره لنا رافي في الرواية.

أما التناقض الأكبر في شخصية كينان، والذي يمس بمبادئه التي ينتسب إليها في معسكر السلام، فقد حاول الدفاع عن حقوق الفلسطينيين، لكنه في المقابل لم يكف عن التغني ببعض ما جاء في التوراة، على لسان رافي البطل، فرافي يفخر بالأمجاد اليهودية والتوراة ويتغنى بها، على الرغم من أن أصوله أجنبية، ويتضح هذا من اعترافه بأن جدته من أصول أوكرانية، فيقول: "ولا أدري لماذا رحت أدندن بلحن أغنية أوكرانية كانت جدتي تغنيها لي" (كينان، 1984، صفحة 205)، وعلى الرغم من محاولته أن يظهر مسالمًا، إلا أنه اعترف بالمجازر واحتلال القرى في الرواية ومشاركته فيها، ومن الأمثلة على ذلك يقول: "بدأت أفكر أنني أنا هو الذي طرد العرب من هنا... وكل الآخرين، طردناهم، ونحن احتللنا "واهب"" (كينان، 1984، صفحة 206). وفي الوقت نفسه يتغنى بالأحلام التوراتية، فنراه يقول: "وأودية أرنون نظرنا إليها من قبالتها لكننا لم ندخل إلى هناك" (كينان، 1984، صفحة 210)، وفي هذا تناص مع التوراة، والنص في التوراة يقول: "فإنك ستنظر إلى الأرض من قبالتها التي أورثتها بني إسرائيل، وأما أنت فلا تدخلها"[1]، يظهر أن كينان لم يستطع أن يكون من المدافعين عن حقوق الفلسطينيين تمامًا، فالمبادئ التي ترعرع عليها ما زالت تؤثر على فكره ونفسه، ولم يستطع التخلص منها.

3.2.3.6 الشخصيات في الرواية

تكونت الرواية من شخصية رئيسة وشخصيات ثانوية، فالشخصية الرئيسة هي البطل (رافي)، والشخصيات الثانوية كثُرت وتعددت، ولكن أهمها محمود الطيراوي، والقائد (رافي)، والسائق (رافي)، وقائد منطقة الشمال، و(ليئورة)، وفي هذا الموضع، سيتم البحث في هذه الشخصيات، لمحاولة معرفة حقيقتها، وأبعادها.

- البطل رافي: تنعكس شخصية عاموس كينان على شخصية البطل في الرواية، فهو يحمل أفكاره ومعتقداته، مما جعلنا نلحظ تقاربًا بين البطل (رافي) في الرواية والكاتب كينان في الواقع، وقد ورد في الرواية بعض الإشارات التي تدل على ذلك، وتعكس شخصية رافي القريبة من شخصية كينان، ومن

[1] التوراة، سفر التثنية، الفصل 32، آية 52.

هذه الفواصل المشتركة السكن في تل أبيب، فكينان وُلد وتوفي في تل أبيب، ورافي وُلد في تل أبيب، لكن لم يذكر الكاتب أين توفي، وكينان شارك في الحرب عام 1948 م، وارتكب مجازر مع عصابة (شتيرن)، والبطل شارك في الحرب أيضًا، وارتكب مجازر بحق الفلسطينيين، كما أن البطل في الرواية حمل لواء معسكر السلام أيضًا كما كينان في الواقع، فقد لوحظ من خلال تصرفات البطل وكلامه أنه يُبدي تعاطفًا مع العرب، وندم على ارتكابه للمجازر بحق الفلسطينيين، ويحاول أن يخلق سلامًا بينه وبين محمود الطيراوي، وإن كان سلامًا زائفًا، كل هذه الإشارات تجعلنا ندرك الشبه بين البطل (رافي) وكينان.

- محمود الطيراوي: جاءت شخصية محمود لتعكس الشخصية العربية الفلسطينية من وجهة نظر الكاتب، فقد حمل محمود بعض الأفكار التي تجعلك تتأكد من أنه نشأ في فلسطين وكبر على أحداث الحرب والقتل، حيث كان يحمل في قلبه كرهًا كبيرًا للإسرائيليين، هذا ما قاله لرافي عندما التقى به في البيارة بعد هروبه من الطيرة، فقد عبر عن كرهه له وأنه مستعد لقتله لو سنحت له الفرصة، وهذه عقيدة يحملها كل فلسطيني أو عربي شريف، يعكسها كينان على شخصية محمود؛ ليعبر لنا عن الفكر العربي تُجاه الإسرائيلي، لكنه كان ظالمًا في رسم ملامح الشخصية كما وضحنا سابقًا، فقد جعله عديم الرأي، تابعًا، يسهل السيطرة عليه، يتخلى عن مبادئه بسرعة.
- القائد رافي: حاول كينان أن يُظهر مفارقة بين الشخصية اليهودية العامة والشخصية اليهودية السياسية التي تترأس المناصب في الحكومة، فالشخصية العامة المتمثلة برافي تتعاطف مع الفلسطينيين، ولا تنوي الشر، وتحاول أن تكون مسالمة قدر المستطاع، أما الشخصية اليهودية السياسية، فقد كانت شخصية مستبدة ظالمة، تنظر للعربي عامة وللفلسطيني خاصة نظرة دونية وتستحقره، وترى أنه لا يستحق العيش، بل يجب عليه أن يموت بأبشع الطرق، وقد ظهرت هذه الدونية في نظرتهم من خلال إطلاقهم لفظة (العربوش) على الفلسطيني أو العربي، وهي لفظة ساخرة بهدف الاستحقار والتقليل من العربي،

ولم يكن التحقير والعنصرية تطالان العربي وحده، بل إن الرواية أثبتت أن العنصرية قد تطال ابن جلدتهم إذا خرج عن معتقداتهم وأفكارهم، فهم يطلقون عليه اسم (يهودون) من باب التهكم والاستحقار.

- قائد منطقة الشمال: لم يصرح الكاتب باسمه، بل اكتفى بأن يذكر قائد منطقة الشمال بدلًا من اسمه، وربما لأنه يمثل قادة منطقة الشمال في الحقيقة، فقد لاحظنا أن قائد منطقة الشمال في الرواية شديد العنصرية والإرهاب، ومتعطشًا لسفك الدماء، فقد طارد أبناء جنسه بوحشية، وأراد تصفيتهم، فقصف مخبأهم بالصواريخ لدرجة لم يبق حجر مكانه، فكيف سيتعامل مع العرب الذين يعادونه ويحاربونه، ولو نظرنا في واقعنا المرير، نجد أن منطقة الشمال كثيرة المشاكل والاضطرابات، ودائمًا ما يظهر فيها المجموعات المقاومة، والعمليات المسلحة، وعادة ما تكون بركانًا ثائرًا ينفجر في وجه الاحتلال وجنوده، كمدينة نابلس، وجنين، وطولكرم، وغيرها، ونرى أن مدن الشمال تكون شرارة انفجار الأوضاع الأمنية في فلسطين باستمرار، وهي التي تنذر بالانتفاضات والعمليات، ولهذا تلجأ قيادة الاحتلال لتعيين قائد متوحش لمنطقة الشمال، لأن الأوضاع دائمًا ما تكون عكس ما يأملون.

3.2.3.7 الانقلاب العسكري والفكر اليميني المتطرف

صور كينان أحداث روايته منذ البداية على انقلاب عسكري يقع في إسرائيل، ينفذه قادة عسكريون ضد الحكومة الموجودة، وينتزعون الحكم منها، ثم يعيثون في الأرض الفساد، فيقتلون ويحرقون ويدمرون ويفرضون منع التجول كما ظهر في تل أبيب خاصة، فهل ما يحدث اليوم في إسرائيل هو ما توقعه كينان في روايته؟ وهل ما تعيشه إسرائيل اليوم يعد انقلابًا؟

إن ما شهده العالم منذ فترة قصيرة في الشارع الإسرائيلي ليس هينًا، فقد خرج الآلاف من المتظاهرين ضد حكومة (نتنياهو)، وكانت ردود الفعل العربية ميتة، بل اكتفوا فقط بالشماتة من الشأن الإسرائيلي، أو كما يكرر الناس في الأمثال الشعبية: "الله يدق الظالمين، ونطلع من بينهم سالمين"، وكذلك الشعوب العربية، فمنهم من قال إنها نهاية إسرائيل، ومنهم من قال انقلاب عسكري، ومنهم من قال أن هذه الأزمة ستهدأ بعد

أيام وتعود الأمور لسابقتها، ومنهم من قارن بين ردة فعل الحكومة في إسرائيل، وردود فعل الحكومات العربية عندما يحدث أمر مشابه، لكن ما سبب ما يحدث في إسرائيل؟

لا شك أن ما يحدث من مظاهرات كانت ردود فعل طبيعية ظهرت بعد قرارات الحكومة الجديدة، حكومة (نتنياهو) التي يتحكم فيها اليمين المتطرف على يد (سموتريتش) و(بن غفير) وغيرهما، حيث شهدت إسرائيل قبل فترة مظاهرات اندلعت في الشوارع تندد بالحكومة وبقراراتها، ولم تقتصر ردة الفعل على الشعب فقط، بل امتدت لتصل الجيش أيضًا، فامتنع بعض الجنود من المشاركة ومن حمل السلاح، وكان موقفهم مساندًا لموقف الشعب في الشوارع، وهذا ما توقعه (غالانت)، ولكنه خاف من أن يتطور الأمر أكثر ليصل لجميع وحدات الجيش والحكومة، فقرر التصريح أمام وسائل الإعلام بعدم رضا قوات الدفاع الإسرائيلية، مما دفع رئيس الوزراء لإقالته.

هذه الأحداث جميعها جاءت ردًّا على قرار الحكومة الأخير، والذي أقره الكنيست الإسرائيلي، إذ وافق على قرار يتيح للكنيست التغلب على قرارات المحكمة القضائية العليا، ووافق على قرار آخر يمنع تنحي رئيس الحكومة إلا بأسباب نفسية أو مرضية صعبة، تجعله عاجزًا عن الاستمرار في منصبه، وتنفيذ مهامه.

لقد عد كثير من السياسيين والمحللين هذين القرارين بمثابة بداية انقلاب في الحكومة الإسرائيلية الجديدة، وظهرت تخوفات من تطور الأوضاع لتصل لانقلاب كامل، يطيح بالحكومة ويجعل الشارع الإسرائيلي مشابهًا لما قرأت في رواية عاموس كينان، الأمر الذي ينذر بانفجار حتمي من الداخل إن لم توضع الحلول الجذرية لهذه الأزمة، حيث إن ما هدّأ من الأحداث في الداخل هو الانشغال بتصفية المقاومين الفلسطينيين، ومحاولة إنهاء المجموعات الفدائية الفلسطينية التي ظهرت في مناطق الشمال، كنابلس، وجنين، وطولكرم، وأريحا، ومحاولة استعادة الأمن في مدن الداخل المحتل بعد نشاط العمليات الفلسطينية ضد الصهاينة، ونأمل من الله ألّا يكون حل الأزمة الإسرائيلية على حساب الدم الفلسطيني والأرواح الفلسطينية.

لا ينفك الفكر اليميني المتطرف عن إسرائيل، فحكوماتها يُسيطر عليها اليمين ويُغذيها بأفكاره العنصرية المعادية للفلسطينيين، فلا بد أن تجد أحزاب اليمين تحمل أفكارًا متطرفة، فهي لا تتخلى عن فكرة أرض إسرائيل الكبرى، وحرمان الفلسطينيين من مقوماتهم وحقوقهم (شعبان، 2014، صفحة 102)، فهو قائم على أساس تصفية القضية الفلسطينية، وإنهاء الوجود الفلسطيني في المنطقة، ولا يقتصر وجود اليمين في إسرائيل فقط، بل إنه يسيطر على العالم الغربي بعدما تراجعت قوة اليسار، وأصبح يدير العالم، ويكسب تعاطفًا وإجراءات تفيد سياساته المتطرفة، ويقلل من دعم القضية الفلسطينية، والأصوات التي تنادي بها، حيث قام اليمين المتطرف في إسرائيل بعقد تحالفات مع اليمين في أوروبا بهدف دعم الاستيطان في الضفة الغربية، ومعاداة المشروع الوطني الفلسطيني بحجة الإسلاموفوبيا (عوف، 2018، صفحة 231).

لقد شهد القارئ هذه الأحداث في الرواية، فقد أوضح رافي الانقلاب العسكري اليميني الذي حصل في إسرائيل، مما دفعه للهرب من تل أبيب إلى عين حارود، وهو الدافع لأحداث الرواية، ومن هنا تظهر الأفكار الشيطانية التي يحملها اليمين المتطرف الذي يهدف إلى إقامة دولة يهودية، وطرد الفلسطينيين منها؛ لأنهم يشكلون خطرًا عليهم كما يزعمون، فبالتالي لوحظت إشارات على تطرف اليمين في إسرائيل، وبعض الأفكار التي يحملها، وسيتم تعزيز هذا الكلام بالأمثلة.

من الإشارات التي وردت في الرواية وأخبر بها رافي، منها ما شاهده، ومنها ما مر به بشخصه، ومن هذه الإشارات، قوله في بداية الرواية: "ففي الأسبوعين الأولين أطلقوا النار فورًا، ودون أدنى حساب، على كل من اشتبه به" (كينان، 1984، صفحة 202)، فهم متعطشون للدماء والقتل، وإذا انتابهم الشك بأحد يطلقون عليه النار دون التأكد من شكهم، وهذا يشير إلى مدى تطرفهم وحبهم لسفك الدماء، وفي موضع آخر يخبر رافي عن إعدام الجنود مجموعة من الناس يبدو أنهم أُمسِك بهم وهم يهربون، فتم إعدامهم ووضع التراب فوقهم بدم بارد (كينان، 1984، الصفحات 215-216)، فالقتل وسفك الدماء من أطباعهم، وكأنهم يتغذون

عليهما، ومما يثبت ذلك في أفعالهم، ما اعترف به البريغادير بإعدامهم كل من لم يستسلم في عين حارود، وقتله (كينان، 1984، صفحة 234).

لم يكونوا متطرفين بأفعالهم فقط، بل بكلامهم وأفكارهم أيضًا، فلا تصدر الأفعال إلا من عقول تنبع بالتطرف والعنصرية، خاصة وأنهم نشأوا على أفكار زُرعت في عقولهم منذ الصغر، إضافة إلى صب جام عضبهم لما تعرضوا له في أوروبا على الفلسطينيين، وكأنهم ينتقمون من تاريخهم في الأرواح البريئة في فلسطين، فهم ينظرون للفلسطيني نظرة دونية، ولا يهتمون لحياته أو لموته، بل إنهم يفضلون موته على حياته، فبموته ينتهي شغبه بنظرهم، وهذا ما يُلمح في كلام الجنرال الذي أمسك بهم، واتضح أنه رئيس الأركان، وقد أمر جنديًّا معه بضرب محمود حتى لو شج رأسه، وهو يناديه بالعربوش، تقليلًا من قيمته (كينان، 1984، صفحة 243).

وقد ظهرت شدة تطرف اليمين تُجاه العرب والفلسطينيين وكرههم عندما دار حوار بين رافي والجنرال، وأخبره بأنهم قاموا بطرد جميع العرب من فلسطين إلى مكة، وهو يسخر من العرب ومن حياتهم (كينان، 1984، صفحة 248)، وهذا الحوار يكشف عن مخطط متطرف لليمين لتهجير العرب من بلادهم، وسيطرتهم على البلاد.

إن ما توقعه كينان بدأ يحصل في إسرائيل بالفعل، فقد حصل فيها انقلاب زاحف عام 2023 م، ونجح اليمين المتطرف في الوصول إلى الحكم عن طريق نتنياهو وأتباعه، وبدأ اليمين يقوم بمحاولات ناجحة لتغيير سياسات إسرائيل وقوانينها، ووصل الانقلاب إلى مؤسسة القضاء والمحكمة العليا والجيش، ورويدًا رويدًا بدأ اليمين يحتل مؤسسات الدولة، ومع هذا التمدد السريع لليمين المتطرف داخل المؤسسات الإسرائيلية، بدأت الحريات في إسرائيل بالتراجع بسرعة، وهناك محاولات ناجحة في لجم المحكمة العليا التي تعتبر المعقل الأخير للدفاع عن الحريات.

ولا شك في أن اليمين لا يُعادي الفلسطيني فقط، بل يعادي اليهودي الذي لا يؤمن بأفكاره ويقف ضده، لذلك يقوم كثير من الإسرائيليين بشراء عقارات خارج إسرائيل، كقبرص، وألمانيا، والبرتغال، ودول شرق أوروبا؛ لأن المستقبل في ظل سيطرة اليمين خطر جدا، وذلك يعود للسياسات العدوانية التي اتخذها اليمين ضد الفلسطينيين فور وصوله للحكم، والاعتداءات الكثيرة التي يقوم بها الجيش في المناطق الفلسطينية، وقد ازداد الأمر حدة بعد العدوان على غزة في أواخر عام 2023، مما جعل الإسرائيليين يرون أن إسرائيل لم تعد مكانا آمنا للعيش فيه؛ وبدأ كثير منهم يفكرون بالهجرة إلى أوروبا وأمريكا، إضافة إلى من هاجروا بالفعل.

3.2.3.8 الأبعاد الاجتماعية والسياسية والتاريخية في الرواية

يلاحظ القارئ للرواية أنها ذات أبعاد اجتماعية وسياسية وتاريخية، فهي لا تخلو من الإشارات التي تدل على تفكك الحياة داخل المجتمع الإسرائيلي، فالبعد الاجتماعي كان واضحًا في الرواية، أظهر المجتمع الإسرائيلي على حقيقته، فعلى سبيل المثال، هو مجتمع عنصري، يتقبلك ما دمت تؤمن بأفكاره، ويرفضك ويضطهدك ما دمت ترفض أفكاره، إضافة إلى أنه مجتمع متفكك، لا يملك روح التعاون، فالبطل عندما هرب كان يبحث عن عربي يساعده؛ لأنه خاف أن يُخبر عنه يهودي للحكومة، وهذا ما جعله يلجأ لامرأة؛ كي يسهل السيطرة عليها.

أما فيما يتعلق بالبعد السياسي، فإن الأمور سيئة جدًّا، وقد لوحظ هذا من الانقلاب العسكري، والحواجز الموجودة بين المدن والقرى، والسياج الفاصل، والجنود، وأبراج المراقبة، والطائرات العسكرية، كل هذه الأمور توحي بفساد الحكومة، والاضطرابات السياسية العميقة، التي وصلت إلى حدوث ثلاث محاولات للانقلاب على الحكومة خلال فترة قصيرة، ما يدل على وجود إسرائيل في وضع سيء أثر على مناحي الحياة كافة، وليس هذا بعيدًا عما يحدث في الواقع في أيامنا، فلا تخلو مدينة من الشرطة وقوات الأمن طوال الوقت، ووجود إجراءات صارمة في التنقل، إضافة إلى الاضطرابات التي تحدث في إسرائيل حاليًا، والتي ترفض الحكومة الجديدة وتريد إجلاءها.

ولو تنتقل للحديث عن البعد التاريخي، فإن الرواية مليئة بالإشارات التاريخية، جميعها تخدم العمل الأدبي، والفكر اليميني العنصري، ومن الإشارات التاريخية التي وردت في الرواية، حيث جاء على لسان الجنرال قائد منطقة الشمال ذكر نينوى وبابل، فهو يذكر قصة سنحاريب، الذي لجأ إلى نينوى بعد أن أصاب الطاعون جيشه، وأشار إلى نبوخذ نصر وبابل، في تلميح منه لقصة –نبوخذ نصر عندما قام بأسر اليهود وأخذهم إلى بابل، وهذا مما يدل على عدم نسيان اليهود، وحقدهم المستمر رغم تتابع الزمن، والسعي نحو الانتقام ولو بعد قرون.

3.2.3.9 السخرية في الرواية

لم يعفِ كنان روايته من السخرية في بعض سطورها، فهي وسيلة التزمها كي يتهكم على بعض الآراء في الرواية، أو ليظهر للمتلقي الرأي المعاكس لها بطابع أدبي، فقد يبصر القارئ بعضًا من سخريته محملًا أفكارًا تكشف ملمحًا من ملامح الشخصيات، وربما من ملامح المجتمع ككل، ففي بعض الأحيان تتناول الشخصيات أفكارًا عنصرية بسخرية لاذعة، وفي أحيان أخرى قد تسخر الشخصية من واقعها الذي تعيشه، وما هذا إلا ليعكس لنا واقعًا مريرًا تمر به إسرائيل، سيؤدي إلى هلاكها في النهاية.

إن مما جاء في روايته من سخرية تعددت أساليبه وأغراضه، ومنه ما ورد عند رافي عندما أخبرنا عن سكان يافا المفكرين الذين استوطنوا بيوتًا ليست بيوتهم رغم أنهم من نخبة المجتمع، والمصيبة أنه يعتمد عليهم أيضًا رغم أفعالهم المتطرفة (كينان، 1984، صفحة 202)، فهو يسخر من طبقتهم الراقية في المجتمع الإسرائيلي، ويسخر من تعليمهم وتفكيرهم، ويسخر من نفسه بقبوله مثل هذا الأمر، ولكن لا خيار أمامه، فهو أمام مجتمع يعج بالتطرف.

وفي موضع آخر يسخر رافي من نفسه، فبعدما كان يزحف لقتل الفلسطينيين ليلًا، أصبح يزحف هاربًا (كينان، 1984، صفحة 205) من أبناء جلدته الذين قتل وارتكب المجازر من أجلهم، فهو في موقف لا يُحسد عليه، ويرى الزمان أمامه يدور وتنقلب الأدوار.

ومما يعكس العنصرية والسخرية معًا حوار رافي والبريغادير وهو يحاول إقناع رافي بقتل محمود، ويخبره بسخرية أنه سيُحكم بالمؤبد لقتله محمود، فيسأله رافي: "لأنني قتلته؟!" (كينان، 1984، صفحة 223)، فيجيبه الأخير قائلًا: "كف عن المزاح. بسببه لن تسجن يوما واحدا" (كينان، 1984، صفحة 223)، وهنا تظهر سخرية البريغادير من العرب، فهو لا يعدهم بشرًا يُحاسب على قتلهم القانون في دولته، وهذه النظرة جاءت من تطرف إسرائيل التي جعلت العدائية للفلسطينيين قبلتها، والنظرة العنصرية والدونية من اليهود للفلسطينيين التي أتت من فكرة "شعب الله المختار" التي يتغنون بها، وهناك سخرية مبطنة في العبارة، وهي سخريته من القوانين والأنظمة المعمول بها في الدولة، فهي لا تجرم من اعتدر على فلسطيني، فالعنصرية والتطرف طالتا المحكمة والقانون أيضًا.

3.2.3.10 سمات متشابهة بين القدس ويافا وعين حارود

لا تختلف المدن الفلسطينية فيما بينها من حيث الأهمية، بل إن جميع تراب الأرض الفلسطينية موحد عند أبناء فلسطين، لا يفرقون بين مدينة وقرية ومخيم من حيث قربها إلى قلب الفلسطيني، ولا يتخلى عن شبر واحد من أي مكان فيها، والمدن الفلسطينية بشكل عام، يغلب عليها طابع حياتي متشابه، والعادات والتقاليد بين سكانها لا تكاد تختلف، وأنماط الحياة في جميع المدن تتقارب إلى حد كبير.

إن صورة المدينة الفلسطينية وطبيعة الثقافة المهيمنة فيها لا تختلف نوعًا من مدينة إلى أخرى، بل يكون الاختلاف في الكم، فقد تزيد مدينة على أخرى من حيث الكم الثقافي لموقعها، أو لنوعية السكان بداخلها، أو بعض العوامل التي تؤثر فيها، فالسياحة مثلًا، تجعل في المدينة اهتمامًا ثقافيًا لمواكبة السياح وتطوراتهم، وللمقدرة على جذب انتباههم، والتفاهم معهم.

أما فيما يتعلق بالتشابه بين القدس ويافا وعين حارود، فينبغي أن تتيقن أولًا من كون الأماكن الثلاثة فلسطينية، وأنها تقع تحت الاحتلال الصهيوني، فالقدس احتلت عام 1967م، ويافا وعين حارود احتلتا عام 1948م، إضافة إلى الأهمية الدينية والتاريخية والاقتصادية للأماكن الثلاث، فالقدس محضن الديانات

السماوية الثلاث، ويافا وعين حارود لا تقل أهمية عن القدس، وتاريخيًا، شكلت القدس مكان صراع مستمر ودائم بين جميع الحضارات للسيطرة على القدس، وكذلك يافا شهدت عدة حروب ومعارك، وعين حارود أو عين جالوت –كما جاء–، دارت فيها أهم معركة فيها هزم صلاح الدين الصليبيين، وآخر الحروب في المدن كان حروبها مع المحتل الصهيوني الذي احتلها وفرض سيطرته عليها. وفي الأهمية الاقتصادية، فهي أماكن سياحية تدر أموالًا على قاطنيها بفعل التبادل التجاري، والحركة السياحية فيها.

تشترك الأماكن الثلاثة بسمات متشابهة بينها، رغم وجود مميزات تميز كل مكان منها، إلا أنك لا تفتأ تجد سمات متشابهة بينها، تتمثل في الآتي:

1. التاريخ: الأماكن الثلاثة لها تاريخ طويل، ومر عليها حضارات متنوعة وبقيت صامدة في وجهها لم يتأثر وجودها بهذه الحضارات رغم اندثارها، وعاصرت فترات تاريخية عديدة.
2. المكانة الدينية: تحتل الأماكن الثلاثة مكانة دينية عظيمة، فالقدس مهبط الديانات السماوية الثلاث، وفيها أماكن دينية مقدسة تخص المسلمين والمسيحيين، وكذلك الأمر بالنسبة ليافا وعين حارود، فهما لا تقلان أهمية دينية، بالإضافة لوجود تنوع ديني فيهما، وأماكن دينية مختلفة.
3. الموقع الجغرافي: تقع القدس ويافا وعين حارود في فلسطين، وكلها أماكن فلسطينية خالصة، ولكنها تختلف في وجودها الجغرافي داخل فلسطين، فالقدس تقع في مركز فلسطين، ويافا تقع إلى الغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وعين حارود تقع إلى الشمال، وهذه المناطق الثلاث هي النسبة السكانية الأكبر في فلسطين، حيث يتركز النشاط السكاني في فلسطين في الوسط والشمال والغرب.
4. تأثيرها على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي: تلعب هذه الأماكن دورًا هامًّا في صراع الفلسطينيين مع إسرائيل على أحقيتهم في أرضهم، وحتى قبل لجوء اليهود إلى فلسطين، كانت هذه الأماكن تشهد صراعات مع مختلف الحضارات التي وصلت فلسطين.
5. الثقافة: تتنوع الثقافة في القدس ويافا وعين حارود، فقد مر عليها كثير من الثقافات والحضارات التي عاشت فيها، مما أكسبها تنوعًا ثقافيًا مميزًا.

6. المكانة الاقتصادية: تلعب هذه الأماكن دورًا هامًّا في المجال الاقتصادي، فإلى جانب النشاطات التجارية المختلفة والاستيراد والتصدير فيها، فهي تعج بالحركة السياحية كما ذكر سابقًا، وهذه الحركة من شأنها أن ترفع من المستوى المعيشي، وتحسن المستوى الاقتصادي فيها.

لقد شكلت القدس ويافا وعين حارود أماكن رئيسة في الروايتين، ففي رواية برج اللقلق، كانت مدينة القدس المحور الأساس والخاصرة للأحداث، فيها جرت أحداث الرواية، ومنها انطلقت الشخصيات، وداخلها تفاعلت العناصر جميعها، وفي رواية الطريق إلى عين حارود شكلت يافا التي أقيمت على أراضيها تل أبيب، وعين حارود مكانين أساسيين لا تقوم الرواية إلا بهما، فمن تل أبيب –التي تأسست في ضواحي مدينة يافا وعلى جزء من أراضيها– انطلق البطل يبحث عن النجاة، وفي عين حارود يلقى هذا الهدف ويستعيد الحياة والأمن والأمان.

تنبع الأهمية العظمى للأماكن الثلاثة من كونها محط اهتمام الشخصيات، ففيها وقعت الأحداث التي نسجت مع الشخصيات الأخرى العمل المتكامل، وكون هذه الأماكن واجهت نزاعات وحروب، فالقدس مر عليها عدة حروب كما جاء في الرواية، وحاول اليهود احتلالها عام 1948 ففشلوا، ولكنهم تمكنوا من السيطرة عليها عام 1967، ويافا احتلت عام 1948، وتعرضت لانقلاب عسكري بعدها، أدى إلى تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها، وعين حارود احتلت وتمت السيطرة عليها من الحكومة، وعندما وقع الانقلاب تعرضت لهجمات عدة في محاولة للسيطرة عليها، فجميع الأماكن تشاركت الهم ذاته، وهو الألم والمعاناة بفعل الحروب والنزاعات، ما أدى إلى جعلها أماكن غير آمنة.

وقد اشتركت الأماكن الثلاثة بفكرة الخلاص، فالأبطال كانوا على ثقة تامة بأن الخلاص لا يكون إلا فيها، وأن الأمان والاطمئنان يستقر فيها، ومهما كلف الأمر يجب أن تتواجد الأبطال داخلها، ففي برج اللقلق، كانت الشخصيات تبذل الغالي والنفيس من أجل البقاء داخل القدس وعدم الخروج منها حتى لو كان الثمن أرواحهم، ووقفوا أمام المحتل يواجهون ليحافظوا على وجودهم في المكان، وفي الطريق إلى عين حارود،

كان البطل يعتبر يافا المكان الآمن والمعتمد عليه، وكانت خطته أن يصل إلى يافا بأي وسيلة، وعين حارود كانت تشكل الجنة بالنسبة للبطل، فقد كابد من أجل الوصول إليها، وتحمل في سبيلها ما تحمل من معاناة وألم، لكنه كان يؤمن أنها ستخلصه مما هو فيه، لذلك كان العامل المشترك والتشابه بين الأماكن هو فكرة الخلاص أو الأمان التي ستحصل عليها الشخصية ما إن حافظت على وجودها فيه.

ومن السمات المشتركة بين الأماكن، وجود العرب (الفلسطينيين) فيها، ففي القدس يقطن الفلسطينيون ويصارعون المحتل على البقاء وعدم الرحيل، وفي يافا، يعيش جزء من الفلسطينيين المتبقيين في إسرائيل، وعين حارود يسكنها الفلسطينيون أيضا، ولهذا أراد رافي عربيا ليستطيع الوصول إلى عين حارود، فهم يعرفونها جيدا، ويعرفون طريقها، التي تمر من مناطق فلسطينية.

هناك عنصر مشترك بين القدس ويافا وعين حارود، وهو التهجير، حيث قام الاحتلال الصهيوني بتهجير السكان الفلسطينيين من هذه المناطق، وبدأ التهجير عام 1948 وما زال مستمرا حتى اليوم، والدليل على ذلك، أن محمود كان يعيش في الطيرة، لكنه هاجر منها مجبرا بسبب وحشية اليمين المتطرف بعد سيطرته على الحكومة، ففكرة التهجير لم تحدث في عامي 1948 و1967 فحسب، بل ما زالت مستمرة وستستمر، لأن هدف اليمين ما وضح سابقا، إفراغ الأرض الفلسطينية من الفلسطينيين واليهود اليساريين؛ لتحقيق مساعيهم الخبيثة. وفي العودة إلى القدس ويافا وعين حارود، فإن القدس في رواية "برج اللقلق" تعرضت لمحاولة احتلال عام 1948، وسيطر اليهود على جزء منها وطردوا سكانه وحولوها لحارة لهم وأطلقوا عليها اسم "حارة اليهود"، وفي يافا، قام الاحتلال بتهجير معظم سكانها العرب وأحل مكانهم اليهود الأوروبيين، وخاصة المثقفين اليهود، الذين وصفهم رافي بأنهم لا يبالون بالسكن في بيت عربي هجر سكانه منه، وفي عين حارود، قام اليمين بعد السيطرة على الحكم بإجبار أهلها على الرحيل، وقتل من رفض الهجرة من أرضه، فلا مكان آمن للفلسطيني، لا في يافا، ولا في الطيرة، ولا في القدس، ولا في عين حارود.

الفصل الرّابع

المكان في الشّعر

4.1 قصيدة (الحب والجيتو) للشاعر راشد حسين

هي إحدى قصائد راشد حسين، التي كتبها في العام 1963 م، وتعد نموذجًا من نماذج رثاء المدن، وهذا النوع من الرثاء عرفه الشعر العربي قديمًا، وقد كثر استخدامه بعد سقوط الأندلس على يد المسيحيين في إسبانيا، وهي ما تعرف بحروب الاستعادة في المصادر الإسبانية، حيث قام المسلمون في الأندلس بكتابة قصائد رثاء لمدنهم التي تسقط واحدة تلو الأخرى، كقصيدة أبي البقاء الرندي، التي كتبها في رثاء الأندلس، يقول في مطلعها (الشامي ع.، ب. ت، صفحة 29):

لِكُـــلِّ شَـــيءٍ إذا مـــا تَـــمَّ نُقصـــانُ فَـــلا يُغَـــرَّ بِطيـــبِ العَـــيشِ إنســـانُ

لا يختلف الأمر كثيرًا في بلاد –فلسطين– فأهلها يبكون البلاد كما بكى بلاده غيرهم، ويتحدث الشاعر في قصيدته عن مدينة يافا التي أصبحت رمزًا للمدن الفلسطينية كافة، وعن سقوطها في النكبة عام 1948 م، وما حل بها وبأهلها من مآسي وآلام، حيث يقيم في القصيدة مفارقة بين المحرقة التي حصلت لليهود في ألمانيا (الهولوكوست)، وبين ما حل بالفلسطينيين في النكبة.

4.1.1 التعريف بالشاعر

هو شاعر وصحفي فلسطيني، ومترجم من اللغة العبرية إلى العربية، ولد عام 1936 م في قرية مصمص التي تقع ضمن منطقة المثلث، وتلقى تعليمه في أم الفحم، والناصرة، وحيفا، ظهرت موهبته الشعرية في سن مبكرة، حيث أصدر ديوانه الأول وهو في العشرين من عمره، تأثر خلال مسيرته بالشاعر العربي أبي العلاء المعري، والشاعر إيليا أبو ماضي، وعُرف بشعره المناهض للاحتلال الصهيوني، فكان من أبرز من كتبوا في أدب المقاومة، الذي يهدف إلى التحريض ضد المحتل وعصاباته، وعرف بنشاطه السياسي، فهو من مؤسسي حركة الأرض في الداخل المحتل عام 1948 م، والتي تُعنى بالكفاح ضد الاحتلال الصهيوني،

فسجن في السجون الإسرائيلية هو ومؤسسو الحركة، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي سُجن فيها، بل سُجن ما يقرب من عشر مرات، عمل في مجال التدريس، لكنه فُصل بعد مدة بسيطة؛ بسبب نشاطه السياسي المستمر، وعمل محررًا لمجلة الفجر، والمرصاد، والمصور إلى أن ترك البلاد متّجهًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1967م، وتوفي سنة 1977م جراء نشوب حريق في شقته في نيويورك. من دواوينه الشعرية: مع الفجر (1957م)، صواريخ (1958م)، أنا الأرض لا تحرميني المطر (1976م) (شاهين، 2000، الصفحات 283–285).

4.1.2 ذاكرة المكان في القصيدة

تزخر قصائد راشد حسين بالأمكنة الفلسطينية، فقد كتب قصائد عدة عنونها بأسماء المدن، وفي قصائد أخرى يكثر ذكره لأسماء القرى والمدن الفلسطينية، فهو يعيد إحياءها بتوظيف أسمائها في شعره، وكتب عشر قصائد تحمل في عناوينها أسماء المدن والأماكن الفلسطينية، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على ارتباط الشاعر وتمسكه بأرضه الفلسطينية التي يحاول الاحتلال سلبها منه، ومن النماذج على ذلك، قصيدته التي نحن بصدد دراستها، والتي اتخذ فيها مدينة يافا رمزًا للكارثة الفلسطينية والمأساة التي حلت بالشعب الفلسطيني، فما حل في يافا حل في البلاد الفلسطينية كلها. لكن لماذا يافا؟

تعد مدينة يافا من أهم المدن الساحلية في فلسطين وأجملها، فهي عروس البحر، وهي الجميلة من الأصل الكنعاني (يافو)، ومركز الاستيراد والتصدير في فلسطين قبل الاحتلال، فقد اشتهرت ببيارات البرتقال الممتدة إلى اللد والرملة وغزة وطولكرم، الأمر الذي أدى إلى استقطاب العمال الفلسطينيين والعرب، من مصر وسوريا ولبنان والأردن والعراق واليمن، فهي تُشكل ذاكرة سياسية وتاريخية وطبيعية للفلسطينيين، مما شكل عندنا ما يُعرف بـ "فلسفة المدينة"، أي تفاعل السكان مع المكان والأشجار وكل ما فيه من مكونات، وهذا ظاهر في مدن فلسطين كافة، وفي المدن الساحلية خاصة، لكن يافا حظيت بمزيد من الاهتمام لما لها من مكانة خاصة عند الفلسطينيين، تعود لكونها مدينة جميلة، وتشتهر بالتجارة والصناعة والتصدير فقد ذكر الباحث

نبيل الأغا أن يافا كانت تشتهر بالصناعة أيضًا إلى جانب الزراعة، فقال: "ومثلما ازدهرت التجارة والزراعة في يافا، فكذلك نهضت الصناعة. وقبيل عام 1948 كانت تقوم بها مصانع عديدة للصابون والبلاط والنسيج والورق، والزجاج والسجائر والصابون والقرميد وطحن الغلال" (الآغا، 1993، صفحة 155)، وكانت مركزًا للنشاط الثقافي، فهي من أولى المدن التي ظهرت فيها الجرائد، وكانت جريدة "القدس الشريف" أول جريدة تظهر في فلسطين سنة 1903م، ثم توالت بعدها الجرائد في مختلف مدن فلسطين (الآغا، 1993، الصفحات 155-156).

لم تكن يافا حاضرة فقط في شعر راشد حسين، بل حضرت في أشعار شعراء كثر أيضًا، فتراها عند محمود درويش المدينة التي كان يحج إليها، وكتب قصيدة بعنوان "عائد إلى يافا"، وعند نزار قباني، وعند غسان كنفاني في روايته "أرض البرتقال الحزين"، وكثيرًا ما يرتبط اسم يافا بالبرتقال؛ لكثرة بيارات البرتقال والحمضيات في يافا، ولأن برتقالها وصفه البعض بأن مذاقه من الجنة، كما وترى يافا حاضرة عند الجواهري الذي زارها وأُعجب بها جدًّا، وظل يستحضرها في شعره؛ لشدة إعجابه بجمالها وطبيعتها وعمرانها.

يبدأ القصيدة من خلال نسب مدينة يافا إلى نفسه، وكأنها قطعة منه وهو قطعة منها، حيث إن راشد حسين شديد الحب ليافا، فقد ذكر الدكتور نبيل طنوس في دراسته أن مفردة يافا ذكرت في كتاب "أنا الأرض لا تحرميني المطر" لراشد حسين 37 مرة (طنوس، 2020، صفحة 11)، وهذا يدل على حب كبير من الشاعر لمدينة يافا، لكن المطلع على تاريخ الشاعر يدرك أنه لم يعش في يافا ولم يسكنها، بل زارها وهو صغير وأعجب بجمالها وبهائها، وبقيت ملتصقة في ذاكرته، وبعد النكبة، رأى ما اعتراها من تغيرات بسبب الحرب، التي أذهبت عنها الجمال والبهاء وجعلتها صماء تشكو من الخراب والدمار والهجرة، فقرر أن يكتب قصيدة "الحب والجيتو"؛ ليعبر لنا عما حل في يافا بعد النكبة.

مداخن الحشيش تعبأ في الشوارع فتخدر الناس، والطرق فارغة من البشر، يملؤها الذباب والضجر من فعل العصابات الصهيونية التي هجرت أهلها، فأفرغتها من سكانها، وقلب يافا صامت لا يصدر صوتًا أو حركة،

فقد أسكته الهلع الذي لاقاه من بطش الاحتلال، والحجر الذي أغلق قلب يافا هو الاحتلال الصهيوني الذي أجبرها على الصمت بمجازره وحواجزه، الذي عمل على تقسيم المكان والزمان في أرض يافا، فصمتت للحفاظ على ما تبقى لها من أرضها وسكانها، لدرجة أن القمر الذي كان يطلع يتغزل بيافا محبوبته الجميلة، مات حزنًا على حبيبته، فشيعوا جثمانه في السماء، فأصبح الظلام دامس على يافا، وحل البطش والخراب فيها، ولم يعد فيها بصيص أمل. فالكاتب في المقطع الأول من القصيدة يجري مفارقة بين حال يافا قبل النكبة وحالها بعد النكبة، فالمدينة الجميلة "عروس البحر" التي زارها في طفولته تحولت لمدينة فقيرة يملؤها الدمار والفساد والمخدرات والحشيش، الأمر الذي آلم الشاعر وآلم الفلسطينيين جميعًا، بأن أجمل مدينة ساحلية تشتهر ببيارات الحمضيات وتصدير البرتقال وتجتذب العمال من كل العالم تحولت إلى مدينة فقيرة هُجر سكانها، مغمورة في المخدرات والتعاطي، وربما هذا ما أرادته حكومة الاحتلال الصهيوني، فقد عملت على إغراق يافا في تجارة الحشيش وتعاطيه؛ كي تجعل منها بؤرة ميتة، لا يفكر أهلها إلا بكيفية الحصول على كمية الحشيش التي يحتاجونها، ولا يبقى لأحدهم طموح بالحرية أو بتحرير البلاد من الاحتلال. وفي ذلك يقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، صفحة 205):

يافا مدينتي

مداخنُ الحشيشِ في "يافا" توزِّعُ الخدر

والطُرُقُ العجافُ حُبلى.. بالذبابِ والضجرْ

وقلبُ يافا صامتٌ ... أغلقهُ حجرْ

وفي شوارعِ السماء ... جنازةُ القمرْ

يبدأ الشاعر المقطع بثلاثة أسئلة، ويُكثر فيه من أساليب الاستفهام التي تفيد التعجب، فهو يسأل متعجبًا لما حل في يافا، يافا التي فقدت قلبها وقمرها ونورها وأملها وانتشر الدم في أرجائها، الدم فيها على حجر، لكن الحجر هنا يختلف عن الحجر في المقطع السابق، فالحجر هنا يدل على ما دُمر في يافا، فالمنازل والبنايات والعمار أصبح حجارة مدمرة بعد قصفها وحرقها، واصطبغ الحجر باللون الأحمر، الذي اكتسى به من دماء

الشهداء، ويافا التي كانت جنة على الأرض، أصبحت مدينة الحشيش والخدر، حيث وصفها (غاليوم) إمبراطور ألمانيا حين أرسل برقية للسلطان عبد الحميد سنة 1898م، يقول فيها: "لقد دخلت الجنة قبلك" (الآغا، 1993، صفحة 155).

هذه المدينة التي رضع الشاعر من خيرات برتقالها، فهي قبلة الناس في البرتقال اليافوي، الذي كانت تصدره لكل أنحاء العالم، من عرب وترك وغرب، كيف تعطش بعد أن روت الأرض بخيرها، وكانت تحجب عين الشمس ببياراتها وأشجارها وبرتقالها، شُلت وانكسر ظهرها بعد النكبة، فأصبحت كالعجوز تشتاق لأيام شبابها، وكالأم التي فقدت أبناءها، تشتاق لهم ولأيامهم، ولذهابهم وإيابهم حولها وفي أرجائها، أصبحت اليوم مدينة يملؤها الحشيش الذي يخدر الناس، ويعيد الشاعر ذكر الحشيش؛ ليؤكد على ما أصابها بعد النكبة، وليبين المخطط الاستعماري الخاص بالأرض والسكان، وأي طريقة أفضل من جعل الأشخاص أشبه بالدمى بفعل الحشيش؟ فنجده يقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، الصفحات 205-206):

يافا بلا قلب اذنْ؟!

يافا بلا قمرْ؟!

يافا.. دمٌ على حجر؟!

يافا التي رضعتُ من أثدائها حليبَ البرتقالْ

تعطشُ؟!! .. وهي من سقتْ أمواجُها المطرْ!

يافا التي حطمت الأيام فوق هذه الرمال ...

ذراعها شُلّتْ؟

وظهرُها انكسَرْ؟!

يافا.. التي كانتْ حديقةً أشجارُها الرجالْ ...

قد مسخت محششة توزع الخدر؟!

يقف الشاعر على أطلال يافا، يافا التي كانت تنعم بالخيرات والأمان والاطمئنان، أصبحت خاوية على عروشها مدمرة، كانت تصدر البرتقال للعالم أجمع، وأصبحت تصدر اللاجئين الفلسطينيين للعالم، عجبًا كيف تبدل حالها! تبدل من الخير للشر، ومن الأمان للحرب، ومن الرخاء للشقاء. وفي المقطع إشارة تُظهر كذب الرواية الصهيونية، ففلسطين ليست صحراء كما يدعون، وليست أرض بلا شعب، وليست فارغة، فهي رائدة في زراعة الحمضيات وتصديرها، ويأتي إليها الناس من جميع أنحاء العالم للشراء والتجارة والعمل.

وفي الحديث عن البرتقال، فإن الشاعر أكد على البرتقال اليافوي، الذي تشتهر به المدينة، مدينة البرتقال، أو كما سمّاها غسان كنفاني في عنوان كتابه "أرض البرتقال الحزين"، حيث إن البرتقال أصبح رمزًا من رموز الفلسطيني، ويدل على عمق ارتباط الفلسطيني بأرضه، فقد كان الفلسطيني يبذل كل جهد وعناء من أجل أشجار البرتقال، هذا البرتقال الذي اشتهرت به يافا وفلسطين، فكان يُصدر للعالم العربي والأوروبي كذلك، يقول الأغا: "ويتمتع البرتقال اليافي "الشموطي" بشهرة عالمية وبخاصة في الأسواق العربية والأوروبية، وقد استغل العدو الصهيوني هذه الشهرة في تسويق منتجاته في السوق الدولية" (الآغا، 1993، صفحة 154).

وعند شعراء "أدب المقاومة"، كان للبرتقال حضور في شعرهم، الذين وصفهم عز الدين المناصرة قائلًا: "خمسة شعراء ملأوا الأرض المحتلة غناء جميلًا وحملوا جراح شعبهم منذ العام 1948" (مناصرة ع.، 1999، صفحة 5)، ففي شعر محمود درويش، البرتقال هو الرمز الفلسطيني الشهير، الذي عُرفت فلسطين به، واشتهرت بين دول العالم، ففلسطين تزينها بيارات الحمضيات وخاصة البرتقال، الذي يحمل بدوره دلالات رمزية كثيرة تعبر عن الأرض، أحيانًا يعبر عن دلالة حسية، وأحيانًا يعبر عن دلالة غير حسية، فالبرتقال خرج في دلالته عن كونه فاكهة تزرع في فلسطين فحسب، بل أصبح رمزًا فلسطينيًّا يعبر عن الوطن المغتصب، كما قال المناصرة: "حين حملت الصهيونية سكينها وشقت البرتقالة الفلسطينية إلى نصفين" (مناصرة ع.، 1999، صفحة 5)، وقد أكثر درويش من استخدام البرتقالة رمزًا، ففي قصيدته "أحمد الزعتر"

يربط بين اللاجئ الفلسطيني والبرتقال من خلال تسميته باسم البرتقالة، فيقول (درويش، ديوان محمود درويش، 1987، صفحة 606):

يا أحمد اليومي!

يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء

يا اسم البرتقالة

وعند توفيق زياد، تراه يخاطب إخوته الفلسطينيين في قصيدته "أشد من المحال"، فيجعل عبير زهر البرتقال أمنية مسكرة كلما تذكرها، هذا العبير الذي ينتشر في أجواء فلسطين يستحيل على الشاعر أن ينسى رائحته ولو طال به الزمن، فيقول (زياد، كلمات مقاتلة، 1994، صفحة 45):

وصبري للشدائد، واحتمالي

زيتهُ.. من ماء قلبي

زيتهُ.. ذوب اللآلي

ومن الأماني المسكراتِ

عبير زهر البرتقال

وفي قصيدة أخرى نقلها من الأغاني الشعبية الفلسطينية إلى الفصحى، والقصيدة بعنوان (حرام)، ورد فيها البرتقال برائحته الفواحة، تضعها فتاة عطرًا لها، يقول في ذلك (زياد، كلمات مقاتلة، 1994، صفحة 112):

قلت: ما طيب غزالك

قال: عطرُ البرتقال

لو ألقيت نظرة في شعر سالم جبران، سترى أن البرتقال لم يغب عن شعره هو الآخر، ففي قصيدته "يوم وليلة في المدينة"، يخرج للبحث عن عمل في المدينة، فيسمع أمه تقول لإخوته: إنه سيعود بيده سلة البرتقال،

ولم يختر الشاعر البرتقال عبثًا، بل ليؤكد على أهمية البرتقال بالنسبة للفلسطيني، فهو لا يخلو من بيته أبدًا، ويجعله الفلسطيني في قائمة أولوياته؛ لشدة ارتباطه به، فيقول (جبران، 2012، صفحة 53):

وقولها لإخوتي:

سوف يجيء من هناك بعد أسبوعين

في يده سلة برتقال

هذه النظرة التي اختصرت كل حياة الفلسطيني عند جبران، وهي تحمل معاناة الفلسطيني، رسمها كنفاني بطريقته في "أرض البرتقال الحزين"، حيث يجد القارئ أن كنفاني جعل البرتقال معضلة عند أبطال قصته، وأملًا يتمسك به الفلاح الفلسطيني طامحًا للعودة إليه، ودرسًا يعلم الصبر والجلد، فالبرتقال ارتوى من دماء الشهداء وأصبح شاهدًا حيًّا على التضحيات الفلسطينية في سبيل الأرض والوطن، فالبرتقال مرتبط بالأرض الفلسطينية، والفلسطيني مرتبط بكليهما، حيث أشار في قصته لبعض الإشارات، مثل مشاهد بيارات البرتقال التي شاهدتها الأسرة طوال الطريق إلى رأس الناقورة، فهي تدل على المساحات الشاسعة للبيارات في فلسطين وفي يافا، وبكاء الفلاح الذي يحمل سلة البرتقال والنسوة اللاتي اشترين منه على بيارات البرتقال، وانتهت القصة على مشهد الوالد وبجانبه المسدس وحبة البرتقال التي جفت ويبست، دلالة على عمق الألم الفلسطيني، وشدة الحزن الذي عاناه الفلاح الفلسطيني بعد أن فارق رمزًا من رموز فلسطين، ألا وهو البرتقال، كما أن مشهد الفلسطينيين المهاجرين قسرًا إلى لبنان في رأس الناقورة وهم ينظرون إلى سلة البرتقال نظرة أخيرة يملؤها الحزن والألم تدل على المعاناة والارتباط القوي بالأرض، وهذه النظرة الأخيرة هي نظرة ما قبل الموت، فالهجرة تعني الموت بالنسبة للفلسطيني.

والقارئ لأبيات راشد حسين يلحظ أنها توحي بحال اليهود في أوروبا والفلسطينيين وتبدل الأدوار بينهم، فاليهود كانوا أشتاتًا في كل أرجاء العالم، لا تجمعهم أرض ولا لغة ولا عادات ولا تقاليد ولا تاريخ، أما الفلسطينيون، فكانوا مستقرين في أرضهم فلسطين، تجمعهم الأرض واللغة والدين والعادات والتقاليد والتاريخ

المشترك بين كل سكانها، كانوا مواطنين مستقرين آمنين في منازلهم وأراضيهم وبياراتهم، بعد النكبة كانت نقطة التحول، فاليهود أصبحوا في فلسطين تجمعهم الأرض وحاولوا إيجاد تاريخ مشترك ولغة مشتركة، والفلسطينيون أصبحوا لاجئين موزعين في كل أنحاء العالم، يعيشون على أمل العودة إلى أرضهم، ويصبّرون أنفسهم بوعود جوفاء بينما تكتوي الذكريات أجسادهم وعقولهم. فيقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، صفحة 206):

يافا –لمن يجهلها– كانت مدينةً

مهنتُها تصديرُ برتقالْ

وذات يومٍ هُدمَتْ.. وحوّلوا

مهنتَها.. تصديرَ لاجئينْ

يافا مدينة مشردة مثلها مثل أي لاجئ فلسطيني شُرّد عن وطنه وبيته، يجلس في بلدة غريبة ينتظر الوعود الكاذبة التي قُطعت له ووعدته بالعودة إلى حضن وطنه، وما زال ينتظر إلى اليوم، يزيل الشاعر الجرذان عن جبهتها التي تشير إلى المحتل الصهيوني، الذي بدأ ينهش بلحم المدينة ويغير ملامحها، تُرفع الأنقاض عن شهداء النكبة من الفلسطينيين، فترى العجاب! منهم من فقد بعض أعضائه، فلم يرتح في مماته كما في حياته، ولم يسلم شيء في المدينة من وحشية الاحتلال، هذا المحتل الذي جاء محملًا بالحقد والغدر والخيانة والوحشية، همه إفراغ الأرض من سكانها الأصليين وإحلال اليهود مكانهم بأي وسيلة كانت، فلا يهتم لحياة الفلسطيني ولا يأبه لروحه، بل إن قتل الفلسطيني عنده أمر مسلٍ كمشاهدة فيلم في أوقات الملل، فالاحتلال لا يُفرّق بين رجل وامرأة، أو بين كبير وصغير، فترى أشلاء الرجال والنساء والأطفال مرمية في شوارع المدن الفلسطينية؛ بسبب وحشية الاحتلال الصهيوني وبشاعته وتعطشه لسفك الدماء، هذه الصفة التي لم تتغير منذ النكبة وإلى يومنا هذا، مما جعل الشاعر يضطر لأخذ جديلة فتاة كانت إحدى القتلى في النكبة، يدخنها سيجارة؛ كي يرتاح قليلًا من المشاهد الأليمة التي رآها في شوارع يافا، وكأنه يتجرع ألم النكبة كله مع الدخان في داخله، فيبقي مشاهد القتلى والفوضى جزءًا من مكوناته الداخلية، فالنكبة أصبحت حدثًا ملتصقًا به لا

يفارقه أبدًا، والأحداث التي رآها ستظل وصمة عار على المحتل إلى قيام الساعة. فهو يقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، صفحة 207):

"يافا" ... المشردة!

وكنت في يافا ... ألمُّ عن جبهتِها الجرذانْ

وأرفعُ الانقاض عن قتلى

بلا روسٍ بلا رُكَبْ

وأدفنُ النجومَ في رحمِ الرمالِ

والأشجارِ

والجدرانِ

وأسحبُ الرصاص من عظامِها

وأمتصُّ الغضبْ

وأنتقي جديلة قتيلة أفرُمها

ألفُها سيجارةً

أشعلها .. وأجرعُ الدخانْ

لأستريحَ لحظةً .. بلا سببْ!

بعد أن لقي الشاعر فتاة تدعى يافا كاسم المدينة، يسيران معًا حتى يصلا للفرن، فيدور حوار بينهما وبين الفرّان، وهو الاحتلال الصهيوني الذي حرق يافا وحولها لمدينة ميتة لا حياة فيها، فهو يرفض أن يمدهم بما يعينهم على الحياة، حتى الدفء، سرقه وجعله وقفًا لليهود الذين استوطنوا يافا، ويحرم الفلسطينيين من حقوقهم، ويجبرهم على الانصياع لقوانينه التي وضعها، فالحب عنده لم يعد له مكانًا، بل المكان للكراهية، الكراهية التي يكنها العدو الصهيوني للفلسطيني، فهو لم يكفيه الدمار والإحراق ليافا، بل يحاول أن يخرس

أفواه الفلسطينيين عن التعبير والكلام. فهو يقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، الصفحات 211-212):

الفران

قالَ لنا الفرانْ:

"هذا الفرنُ لي

ودفئُهُ وقفٌ على شعبي"

قُلنا له:

"ما نحنُ إلا تائهَينْ

نبحثُ في الأدغالِ عن دربِ"

قال لنا الفرانُ:

"قانوني هُنا:

للحبِ قومية

في المئةِ العشرينِ.. يشوي الحُب في فرنِ الكراهية"

قلنا له:

صاحَ بنا ... وأشعَلَ النيرانْ

صاحَ بنا ... ولم نجبْ! أخرسَنا الدخانْ

يؤكد الشاعر على أن الفرن يمثل الاحتلال الذي سلخ جلد الفلسطيني، وأحرقه في الحرب، ويرمي به في الحريق، فيشوي عظامه؛ كي يتدفأ عليها، والفرن هنا إشارة إلى الأفران التي زعم اليهود أنهم أُحرقوا فيها على أيدي النازيين في ألمانيا، ولكن معظم دعاواهم باطلة، يقول فرناند كرونيه: أنه خلال ساعة واحدة فقط تم حرق مائة وعشرين جثة في أربعة أفران" (جهيدة، 2019، صفحة 53)، حيث حاولت الباحثة أن تثبت كذب الدعاية الصهيونية في رسالتها.

إن فعل الاحتلال في الحقيقة كي ينتقم لما حل به في أوروبا النازية، فهو يحاول أن يفعل في فلسطين أبشع مما فُعِل به في أوروبا، فهو يقلب الأدوار بينه وبين الفلسطينيين، حيث كان اليهود ضحية النازيين في أوروبا، والآن أصبح الفلسطينيون ضحية اليهود في فلسطين، فالصرخة الأولى هي صرخة اليهود في أوروبا بفعل النازيين، والصرخة الثانية هي صرخة الفلسطينيين في فلسطين بفعل الاحتلال الصهيوني. يقول الشاعر (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، صفحة 213):

والفرنُ يشوي لحمنا ... يحرقُ حُبَنا

أحطابُهُ عظامُ لاجئينَ في عيونِنا

صرخة ثانية

إن القضية الفلسطينية في مجابهة عنيفة جدا مع الاحتلال الغاصب، وهذا العنف يظهر في قصائد راشد حسين، الذي اتخذ من شعره وسيلة لمهاجمة الاحتلال وفضح نواياه، فهو يحاول إبراز دوافع الفكر الصهيوني، وأيديولوجيته العنصرية القائمة على مبدأ التطهير العرقي، والتي تتضمن عن طريق الفن دليلًا للإدانة العلنية لكل القيم الحضارية والقومية والإنسانية.

يخاطب الشاعر الاحتلال الصهيوني، الذي يعد نفسه خير من في الأرض، وأفضلهم، ولا يرى سواه من البشر، يناديه الشاعر أينما كان، في التوراة، أو في نيويورك التي تقف مع اليهود جنبًا إلى جنب، أو في لندن التي كانت السبب الرئيس في مجيء المحتل الحقير إلى فلسطين، يناديه؛ كي يخبر العالم بما فعله بالفلسطيني الأعزل، من قتل وتنكيل وتعذيب وسلب، يخبر العالم بأنه يحاول أن ينتقم لما حدث معه في المحرقة اليهودية المصطنعة على أيدي النازيين –كما يزعمون والتي اعتبرها الكثير أسطورة لا صحة لها، لكن الصهيونية استغلتها لصالحها في إقامة دولة لليهود في فلسطين، ومما يدلل على كذبها مثلًا، اختلاف الروايات في عدد الضحايا، فهي تتراوح ما بين 1.4 مليون و9 مليون (جهيدة، 2019، الصفحات 46–47)، فقام الاحتلال بإفراغ غضبه وانتقامه مما حصل له في المحرقة المزعومة في الفلسطينيين، ويحاول أن

يصفي حساباته مع النازي على حساب الفلسطيني، كما صرح (أي فوريسون) في راديو أوروبا عن المحرقة المزعومة قائلًا: "إن غرف الغاز الهتلرية المزعومة والإبادة المزعومة لليهود يكونان الأكذوبة التاريخية نفسها التي أتاحت الفرصة لأكبر عملية احتيال سياسي ومالي، المستفيد الأول منها هو دولة إسرائيل والصهيونية الدولية، وضحاياها هم الشعب الألماني –وليس قياداته– والشعب الفلسطيني بأسره" (فوريسون، ب.ت، صفحة 166).

لكن مهلًا! أليس الذي يعاني لا يجب أن يذيق الآخرين مثل ما عاناه، أليس الأجدر باليهود ألا يكونوا بهذا السوء، وألا ينشئوا دولتهم على حساب دم الفلسطينيين الأبرياء، فهم يذكرون ما حل بهم، ولا يجب أن يذيقوه للفلسطينيين، فما فعله بهم النازيون لا يعطيهم الحق بأن يفعلوا ذلك مع غيرهم، لكن الحقيقة غير ذلك، فالمعاناة التي عاشوها في أوروبا أرادوا من الفلسطيني أن يدفع ثمنها، فقتلوه كما قُتلوا، وصلبوه كما صُلبوا، وعذبوه كما عُذبوا، وأحرقوه كما أُحرقوا، وسلخوا جلده كم سُلخ جلدهم، وهنا يجب علينا أن نسأل: بأي ذنب يدفع الفلسطينيون الثمن؟ هل ضريبة المحرقة من نصيب الفلسطينيين أيضًا؟ وهل يجب على الأبرياء أن يكونوا الضحية دائمًا؟

هذا ما يُلمح إليه راشد حسين في مقطعه، فيقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، الصفحات 213–214):

يا شرطي الله.. حيثُ كنتَ:

في التوراةِ

في نيويورك

في لندنَ

في باريسْ

يا مُختار ... يا رسول

هلا وشمتَ ساعدي بآيةٍ تقولْ:

"هذا الفتى كنت كان لهُ

جلدًا.. أنا سلختُهُ

كانَ لهُ نجمٌ ... أنا أطفأتُهُ

ووطنٌ قتلتُهُ...

كنتُ بلا جلدٍ.. بلا نجمٍ .. بلا وطنْ

أحرقني النازي...

فليدفع هذا الفتى الثَمن"؟

هلّا ...!؟

يأتي المحتل ليحول تاريخ يافا، ويسرقه، فبعد أن هدم يافا على رؤوس أهلها، وأحرق كل رمز يعود إليهم، نراه يبني مدينة يهودية على أنقاض يافا الفلسطينية، والتي أشار إليها الشاعر باسم (الجيتو) (خسارة، 2003، صفحة 730)[1]، ويقصد بالجيتو "الأحياء اليهودية التي كانت في أوروبا، حيث كانوا معزولين في أحياء خاصة، سواء أكانت العزلة قصرية أم اختيارية، فقد عزلوا أنفسهم حسب مبدأ شعب الله المختار، ويقال إن الاسم يعود لمصنع في البندقية في إيطاليا، كان اليهود يسكنون في حي بجانبه" (سعفان، ب.ت، صفحة 152). ويشبه يافا بإله يقدم له القرابين، غير أن القرابين هنا هي أبناء فلسطين الذين قتلهم المحتل الصهيوني. فنراه يقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، صفحة 215):

"يافا" التي تاريخُها

تبني على يافا مدينتي

"جيتو بلا أبوابْ"

[1] "يقال: (غيتو) تعريبًا للمصطلح الأجنبي (ghetto) ولعل ما يقابله في تمامًا الكلمة التراثية (مَعْزِل)".

يا ليلَنا...

يا جملاً محملا بالنارِ والدخانْ

"يافا" التي جاءَت مع الأمواج

تؤمنُ أنها الله ... وأنني القُربان

يكثر الشاعر من نداء الليل في المقاطع الأخيرة، فأي نهار سيطلع على يافا بعد ما حل فيها، فقد انقلب حالها رأسًا على عقب، لا نهار في يافا، لا أمل في يافا، لا أهل في يافا، لا شيء على قيد الحياة في يافا، فالليل يعني الظلام الحالك، يعني الخوف وعدم الأمان، يعني الخوف والهموم والتعب.

وفي الحديث عن الصخور، فإن الصخور تحمل دلالات عدة في الشعر العربي، وفي أغلب الأحيان تدل على المكان، فهي ترتبط بالأرض من خلال تكوينها، ومن المكون الأساسي للبيوت والمنازل والمنشآت التي تدل على وجود الإنسان، وكذلك في فلسطين بشكل خاص، فالقرى الفلسطينية أُفرغت من سكانها، لكن الحجارة والصخور بقيت شاهدة على الوجود الفلسطيني في المكان، ففي قصيدة (كرمئيل) للشاعر سميح القاسم، نراه يذكر أن الصخور ستشهد على الوجود، فيقول (القاسم، ديوان سميح القاسم، 1973، صفحة 91):

سيذكرُ هذا التُّرابُ سيذكرُ أنّا منحناهُ لونُ الدماء

وتذكرُ هذي الصخورُ رعاةً بنوها بأدعيةٍ من حداء

وقد يأتي الصخر للدلالة على القوة والمتانة والصلابة، ما يشبه الفلسطيني في تصديه للاحتلال وصموده في وجهه، فهو كالصخر أو أشد قوة، فرغم كل ما عاناه ما يزال يقف شامخًا صامدًا مرابطًا في وجه كل من تآمروا عليه على مر التاريخ، ولم تكسره محاولات الاحتلال في قتله وتنكيله وتعذيبه، وعند ففي قصيدة توفيق زياد (مقتل عوّاد الأمارة من كفر كنّا!)، وعوّاد كان رمزًا للفلسطيني المقاوم، يصف الشاعر قوته فيقول (زياد، ديوان توفيق زياد، 2012، صفحة 21):

كان كالصخر قويًّا

إن هوت قبضته تصرع ثورًا

ومما يعزز الدلالة القوية للصخر عند زياد وغيره من الشعراء، ما جاء في شعر درويش، ففي قصيدته (بطاقة هوية) وردت كلمة الصخر ثلاث مرات، مرة يصف عزيمة الفلسطيني الذي سيحقق ما يريد غصبًا عن أنف المحتل، فهو يسعى لكسب لقمة عيشه ولو كانت من الصخر، ومرة أخرى يذكر قوة الفلسطيني فيشبه كفه بالصخر، ومرة ثالثة يذكر الصخور للدلالة عما يملك الفلسطيني، فهو يملك الأرض والبيت للفلسطيني، حيث يسعى الاحتلال لمصادرتهما، فبعد أن احتل الأرض، هل سيغتصب البيت أيضًا! فيقول (درويش، ديوان محمود درويش، 1983، صفحة 76):

ولم تترك لنا.. ولكل أحفادي

سوى هذي الصخورِ..

فهل ستأخذُها

حكومتكم ... كما قيلا!؟

وعند راشد حسين، تأتي لفظة الصخور في المقطع للدلالة على الأرض التي اغتصبت، والبيوت التي هُدّمت، وامتلأت صخورها بدماء الأبرياء ودماء الشهداء.

ونرى المحتل الغاصب يفرض قوانينه ويبني (الجيتوات)[1] في يافا، وعند حلول الفجر الحزين فيها، يحاول أن يطلع فيصعب عليه الطلوع؛ لكثرة الآلام والجراح، فتصعد يافا على قمة الجبل؛ لترفع الصليب، ويحفر الشاعر قبرها أسفل الجبل، فهو يعرف أن المحتل سيغتالها؛ لأنه لا يريد لأحد في يافا أن يعبر عن رأيه، وأن يمارس حقوقه، وأن يعيش هانئًا. في ذلك يقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، صفحة 216):

[1] جمع كلمة (جيتو)، سبق وأن عرفها الباحث.

يا ليلَنا ...

بعدَ قليلٍ يصعدُ الفجرُ على رُبى الصخورْ

وتجرحُ الصخورُ صدرَهُ ... فيضحكُ العصفورْ

ساعتَها – "يافا" المهاجرة

"يافا" المغامرة

سترفعُ الصليبَ لي

في قمةِ الجبلْ

وأحفرُ القبرَ لها

في أسفلِ الجبل

يكرر الشاعر نداء الليل، فعلى الرغم من أن الظلام حالك على يافا، وأنه تبديد للنور والأمل، إلا أن حسين يحاول أن يُولّد الأمل من رحم الليل والظلام والسواد، فهو يمتد عزيمته وأمله من الأرض الفلسطينية التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من نفسه، وأصبح قلبه يضخ بها، فهي التي تزرع الزمان والمكان وتنشئهم جيلًا جديدًا بعد جيل، وتُولّد الأمل الجديد بتحرير هذه الأرض، وهذه الرؤية لا تفارق حسين في شعره، فبعد كل ما حل في يافا، وكل ما شاهده بأم عينيه يحلم بانتظار عودة يافا، حبيبته، ومدينته، تجلب معها الحقيقة التي ستصفع الاحتلال والعالم على وجهه؛ لتبين لهم أن يافا فلسطينية، ولا يمكن سرقة زمانها ومكانها، فانتظاره يشبه انتظار الطفل للحليب، فهو يعلم أنه سيحصل على الحليب لا محالة، والشاعر يؤمن أنه لا شك سيعود إلى يافا. فيقول (حسين، ديوان راشد حسين، 1999، الصفحات 216–217):

ساعتَها يا ليل...

أحلُمُ أني سأظلُ لحظة أو لحظتينْ

منتظراً يافا

يافا الحقيقة

يافا حبيبتي

يافا مدينتي

وعندها يا ليل..

سوفَ أظلُ حالماً

منتظراً يافا انتظارَ الطفلِ للحليبْ

لعلها تسألْ:

"أبعدَ كُل ما جرى...

لا بُدَّ من قبرٍ ومن صليب؟!"

يُستنتج من دراسة هذه القصيدة أن راشد حسين اتخذ من مدينة يافا رمزًا للنكبة الفلسطينية، ويحاول كشف الفكر الصهيوني العنصري، الذي يهدف إلى اقتلاع الفلسطيني من أرضه واستبداله بالصهيوني الذي جاء غريبًا من خارج البلاد، ويتخذ أسلوب الحوار لتحقيق هدفه، وإيصال أفكاره، وتصحيح الأفكار التي دسها المحتل للعالم؛ ليثبت أيديولوجيته المتطرفة، وبث القوة في الشخصية الفلسطينية التي تحاور الاحتلال والعالم، وتعزيز الوجود الفلسطيني في أرضه.

وقد أكثر الشاعر من استخدام أساليب الاستفهام في القصيدة بمختلف أدواته وأغراضه، ولعل أهم الأغراض التي يخرج إليها الاستفهام في القصيدة، كانت التعجب والإنكار والتحسر والسخرية، فهو يتعجب من فعل الاحتلال وينكره، ويتحسر على ما حل بالفلسطينيين في أرضهم، ويسخر من ردة فعل الاحتلال وفكره ومحاولته السيطرة على كل شيء، والاستفهام من أكثر الأساليب الإنشائية الطلبية تحريكًا للمشاعر، فهو يبث المشاعر للمستمع ويحاول التأثير فيه وفي مشاعره، إضافة إلى التأثير النفسي الكبير على السامع، وإثارة العاطفة والعقل، والتقرب من القلب، وقد كثر هذا الأسلوب في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ

ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾ [القلم: 35]، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾ [الشورى: 21].

أما المكان في القصيدة، فقد ورد فيها أمكنة عدة، فالمكان الرئيس في القصيدة مدينة يافا، التي تمثل فلسطين كاملة، ويندرج تحت المكان الرئيس –يافا– أماكن أخرى تحتويها، مثل: الطرق، والشوارع، والسماء، والفرن، والأدغال، والجبل، والقبر، كلها أماكن في يافا، لكنها تختلف في دلالاتها، فمنها ما يحمل دلالة على الأمل، ومنها ما يحمل دلالة على اليأس والألم، إضافة إلى أماكن غربية أجنبية، مثل: نيويورك، ولندن، والتي تحمل دلالة خبيثة ماكرة، فهذه الأماكن هي التي كانت وراء تثبيت أقدام الاحتلال في فلسطين، ومنها أماكن واسعة، وفضاء شاسع يحمل في طياته الأمل الفلسطيني والجرح في الوقت ذاته، مثل: الوطن، وهناك أماكن ذات دلالة صهيونية، تحمل الفكر الصهيوني الحاقد، الذي يسعى وراء تهويد فلسطين ودمارها، مثل: الجيتو. ورأى الباحث أن يصنف هذه الأماكن حسب الدلالة في الجدول التالي:

الجدول (2)

تصنيف الأماكن الواردة في قصيدة راشد حسين حسب دلالتها

المكان الفلسطيني الرئيس	أماكن فلسطينية من رحم المدن الفلسطينية	أماكن فلسطينية أليمة بعد النكبة	فلسطين كافة	أماكن فلسطينية تحمل الأمل	المكان ذو الطابع اليهودي	الأمكنة الأجنبية الغربية
يافا	الجبل الشوارع الطرق	الأدغال الفرن القبر	الوطن	السماء	الجيتو	نيويورك لندن

4.2 قصيدة (هذي القرى الخالية) للشاعر ألموج بيهار

إن القارئ لقصائد ألموج بيهار يلاحظ أن نزاعًا داخليًا يحصل في نفس الشاعر، فهو من أصول عربية، ويسكن في دولة عنصرية، تنظر إلى العرب نظرة دونية ولو كانوا يهودًا، فهو نشأ في فترة ما بعد الاستعمار، فيتناول موضوع اليهود الشرقيين داخل إسرائيل، كونهم هامشًا في الواقع المعاش، ولذا يكثر في قصائده

الحديث عن أصله الشرقي، الذي يغلب عليه أحيانًا، ويتحدث عن الفكر الصهيوني، ويحاول الحديث عن الحقائق التاريخية التي دُوّنت بحق الفلسطينيين وقراهم.

ففي قصيدته التي بعنوان (بين ريم وعيوني بندقية)، نراه يجري حوارًا بينه وبين أمه يذكر فيه مجيء اليهود لاجئين من أوروبا إلى القدس، لا يعرفون اللغة العبرية إطلاقًا، يندبون حظهم الذي جعلهم يتركون أوروبا ويأتون إلى فلسطين.

وفي قصيدته (نابلس / 1967) التي يتحدث فيها عن قصائد فدوى طوقان، يذكر احتلال مدينة نابلس على يد الجيش الصهيوني، فالجيش يقف في بيت فدوى طوقان، ويخاف من انطلاق قصائدها الصائبة.

وفي قصيدته (باحة في القدس)، يصور مشهدًا متخيلًا في ساحات القدس لامرأة محجبة تمر بينما تعزف مجموعة موسيقية، وتغني المطربة على أنغام تلك الموسيقى، فيتخيل الشاعر أنها جدته تتحدث بالعربية دون العبرية، وفي هذا ظهور للصراع الداخلي في نفس الشاعر حول مواطنته ولغته، وتأثره الشديد بأصله الشرقي، ولغته الشرقية.

4.2.1 التعريف بالشاعر

ولد في مدينة نتانيا عام 1978م، ويعيش اليوم في القدس. شاعر وكاتب، أعد رسالة الماجستير في الفلسفة في الجامعة العبرية في القدس، ورسالة الدكتوراه في الآداب العربية، كتب قصة بعنوان "أنا من اليهود" عام 2008م، والتي حصلت على جائزة القصة القصيرة سنة 2005، وقد ترجمها محمد عبود، ونشرها في مجلة الهلال المصرية، له أربعة كتب، أولها ديوان "عطش آبار" عام 2008م، وفي هذه السنة نفسها أصدر مجموعته القصصية "أنا من اليهود"، وقد تبع هذين الإصدارين ديوان شعر آخر بعنوان "خيط يتدلى من اللسان" عام 2009م، ورواية "تشحلة وحزقيل"، باللغة العبرية عام 2009م (בהר، 2013).

4.2.2 ذاكرة المكان في القصيدة

إن القصيدة مثال حي على ما حدث ويحدث في القرى الفلسطينية، فهي تصور مشاهد من القرى الفلسطينية وما فعلت بها العصابات الصهيونية، واتخذ الشاعر من قرية لفتا (أبو مايلة، 2002، صفحة 125)[1] ركيزة يرتكز إليها في قصيدته، فيرصد بعض الملامح التي تركها الاحتلال للمدينة المدمرة المهجرة، والتي أصبحت مكانًا لمتعاطي المواد المخدرة، مشيرًا في بعض مقاطع القصيدة لجماعات صهيونية، مثل: حركة برسلاف (عرابي، 2006، صفحة 420)[2]، وبعض الإشارات الأدبية، مثل: نبوءة س. يزهار سميلانسكي (זיונית، 2003)[3]. وقد وقع اختيار الباحث على هذه القصيدة للشاعر ألموج بيهار؛ لأنه من الشعراء المعاصرين الذي يشهدون التقلبات التي تحدث في المجتمع الإسرائيلي، ولكونه ينحدر من أصول شرقية عراقية، فهو من الجيل الجديد من شعراء إسرائيل، والمتمرد على سياساتها وفكرها المتطرف، ويريد بشعره إحياء التراث العربي، ويتمرد على العنصرية التي يمارسها اليهود الأشكناز تُجاه اليهود الشرقيين.

يبدأ الشاعر قصيدته بذكر حال القرى الفلسطينية قبل النكبة، فقد كانت قرى هادئة آمنة مطمئنة، تعيش بسلام منكبة على ذاتها، لا تعرف ما يحيك لها المحتل الصهيوني من مكر وخبث، فالعين الصهيونية لم تغفل أبدا عن هذه القرى، ولكنها كانت تعد الخطط والمكائد لحين الوقت المناسب؛ كي تباشر خطة الاحتلال والتهجير والقتل، فهذه العين اعتادت على أخذ ما ليس لها، ومحاولة طمس معالمه الحقيقية، وهويته الأصلية، دون جهد منها أو عناء، فهذا عملها مذ خُلقت، فهي تحتل وتقتل وتهجر أولًا، ثم تغير الأسماء وتبدل الحقائق ثانيًا، ويشير إلى أن هذه العين الصهيونية تحرص على تغيير اللغة الشرقية؛ كي تُبعد أية حقيقة تُنسب للمكان. فتجده يقول:

---

[1] تقع القرية شمال غرب القدس. بلغت مساحتها (8750) دونما، وبلغ عدد سكانها عام 1945م (2550) نسمة. دمرت وأقيمت عليها المستعمرات التالية "الجامعة العبرية * جفعات شيرا * رامات أشكول * مي نفتوح * نهلات دفنا"".

[2] حركة برسلاف، أو حسيدية برسلاف، هو تيار حسيدي أسسه ربي تحمان بن برسلاف، يسعى إلى الروحانيات، كان يبتعد عن العلوم الدنيوية؛ ظنًّا منه أنها تشكل خطرًا على الدين، وقد اعتبر الغناء والرقص والطرب من مظاهر عبادة الله وتقديسه.

[3] أديب وكاتب وسياسي إسرائيلي، ولد عام 1916م، ودرس في مدرسة القدس للمعلمين، وعمل في مدارس إسرائيلية، ودرس في الجامعة العبرية في القدس، وجامعة هارفارد، حاصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، خدم في الجيش الإسرائيلي في النكبة، وشارك في بعض المجازر التي ارتكبت في حق الفلسطينيين، من أعماله الأدبية: رواية (خربة خزعة) التي تتحدث عن مجزرة ارتكبها الاحتلال بحق الفلسطينيين في القرية، وتوفي عام 2006.

"القرى الوادعة هذي، وقد كانت عمياء لنظرتنا العمياء عشرات السنين بقيت مكنونة عن العين العبرية، حيث تعلمتْ هذي العين أن تلعب بتبديل الأسماء وحرصت على ترقيق ثقل العين والحاء الشرقيتين" (بيهار، 2016، صفحة 72).

هذه القرى لم تعد تنعم بالطمأنينة والسكينة بعد النكبة، فقد حل عليها غضب وحقد صهيوني عقيم، سعى إلى خرابها ودمارها، لكنها حاولت الصمود أمامه بكل شجاعة وجرأة، شأنها شأن الفلسطيني الذي كان يسكنها، والذي دافع وتصدى إلى أن استشهد في أرضه أو هُجر رغمًا عنه.

ورغم القصف والتفجيرات التي طالت البيوت الآمنة في القرى، ما جعل أجزاء من جدرانها تتناثر كالدقيق في عصف الرياح، إلا أن هذه البيوت لم تخضع، ولم تستسلم، وبقيت تردد أسماءها وأسماء ساكنيها الأصليين مع تتابع السنين، لتكون شوكة في حلق المحتل ومخططاته، الذي ظن أن الأمر سيكون سهلًا، وأن الحرب ستنهي على الوجود الفلسطيني، لكنه صُدم برفض الحجارة على الانصياع له، وبقائها متمسكة بأهلها وأصحابها. يقول:

"والقرى في سكونها حافظت على جدران بيوت بقيت صامدة منفردة مثل شواهد بعد أن تلاشى صدى التفجيرات، دافعت عن حجارة انتثرت بين عشب نما بريًا، ورددتْ في قلبها المهجور منذ جيل أسماءها الممحوة" (بيهار، 2016، صفحة 72).

يضرب الشاعر مثالًا على القرى التي تحدث عنها في المقطعين السابقين، فيختار قرية لفتا الواقعة في الطريق إلى القدس، لتكون ناطقة بحالها وحال أخواتها القرى، التي تشاطرت معها المعاناة ذاتها، فالقرية نصفها خال، ونصفها مهدم، لكنها تنتصب واقفة في سفح الجبل، لا تأبه لما حل بها، تشتاق لأحد يدخلها يسأل عمّا أصابها، أو يتفقد أحوالها، فقد تُركت وحيدة صامدة في وجه الرياح العابثات، وفي وجه من يحاول تهويدها وتغيير اسمها الأصلي الفلسطيني، يقول:

"كما في الطريق الصاعد غربي القدس: بيوت لفتا ما زالت تنصبّ في المنحدر الجبلي، وليس هناك راع ليدخلها، فهي نصف مهدمة، نصف مهجورة، تتصدى لرياح التغييرات المصنوعة من صلْب وللأسماء المستجدة" (بيهار، 2016، صفحة 72).

بعد أن اختار بيهار قرية لفتا لتكون شاهدة على مجازر الاحتلال، يبدأ بالحديث عن بعض التفاصيل الخاصة بالقرية، وهي مشاهد لفتا بعد النكبة، فقد أصبحت مليئة بأرواح شهدائها الذين استشهدوا في النكبة، ويدخلها أبناء برسلاف، الذين يقيمون بعض الطقوس المتعصبة الخاصة بهم؛ ليتطهروا فيها، ولا يعلمون أن أرواح أهل القرية ستلاحقهم أينما حلوا أو ارتحلوا، ويمر بها من الفتيات اللاتي يبحثن عن بيت يأوين به ليمارسن ما يحتجن إليه من حب، وإذا دخلت لفتا، ستتعجب من منظر الإبر المخدرة التي تتناثر فوق تراب القرية، والتي يأوي إليها المدمنون ليأخذوا ما يريدون من جرع مخدرة بعيدًا عن أعين القانون، فتأسف لما آل إليه حال القرية، وحال القرى الأخرى. يقول:

"لفتا مأهولة فقط بأشباح الموتى، وبالتائبين والمرنّمين من أبناء برسلاف القادمين ليتطهروا بماء العين، وكذلك بالمغمضين أعينهم عقب أسئلة الفتيات العابرة، وهم يقفون أزواجًا حيث حبهم يحوجهم بشدة إلى سقف وجدران، ولفتا تتناثر فيها إبر المخدرات المرمية" (بيهار، 2016، صفحة 72).

يذكر الشاعر مشهد النفايات التي تجتاح أراضي القرية، ويصفها بالنفايات الجديدة؛ كي تعبر عن مصدرها، فهي من مخلفات اليهود الذين يأتون إليها، ومتعاطي المواد المخدرة، الذين يهرعون إليها؛ هربًا من عين الشرطة، هؤلاء الضيوف ليس مرحبًا بهم في أراضي القرية، فهم ليسوا من أهلها، فتعيد هذه المشاهد ذاكرة الشاعر إلى نبوءة ذكرها سميلانسكي، والتي عبر عنها في روايته (خربة خزعة)، يصف فيها مشاهد القتل والدمار التي خلفتها العصابات الصهيونية، وكان عنصرًا منها، هذه النبوءة تفيد بأن القرية لن تبقى إلى الأبد خاوية على عروشها، خالية من أهلها، فلا بد أن يأتي الوقت الذي يعود فيه أهلها المهجرون إلى حضن منازلهم وقراهم، ويستعيدون ما سُلب منهم عُنوة.

يضيف بيهار في نهاية هذا المقطع حالة البيوت التي تركها أهلها، فقد تركوا أسرتهم دافئة، وقهوتهم، وكتب الأدعية التي يكثرون من قراءتها دائمًا، تنتظر عودتهم؛ كي يكملوا قراءتها من حيث توقفوا، فهم لا شك سيعودون ليكملوها، فعودة اللاجئين الفلسطينيين حق لا مفر منه. يقول:

في منتصف النهار، بين هذه البيوت الملأى بالثُّفايات الجديدة جدًا التي يخلفها ضيوف يتغيرون. ضيوف لم يدعهم أحد، أخذ حلم يقظة يجتاح رأسي، وأنا أتذكر نبوءة س. يزهار، التي كانت كُتبت في أيام الحرب تلك، الطويلة، القاسية، الحبلى بالقدر: لن تستطيع هذه البيوت الخالية –إلى الأبد– أن تستمر على صمتها، سيأتي يوم فيه ترفع أصواتها بصدى صراخات قديمة، والجدران تذكّر بماضيها وهي ترويها لسكانها الجدد، وهي تتحدث بلغة سكانها القدامى، الذين خلّفوا وراءهم سريرًا غطاؤه دافئ، والقهوة قبيل الغلي، وكتاب أدعيات ما زال ينتظر أن يكون مقروءًا في ذلك الدعاء نفسه" (بيهار، 2016، الصفحات 72–73).

يشير الشاعر هنا إلى بعد ديني وتاريخي، فالحديث تحول في شعره نحو الهيكل، وإقامة الدولة اليهودية، وأشار إلى أن الهيكل سيكون الثالث، أما الأول، فكان في عهد سيدنا سليمان (عليه السلام)، عندما قام بتوحيد ملكه (عرابي، 2006، صفحة 205)، والثاني، الهيكل الذي أُزيل في عهد حكم الرومان لفلسطين؛ بسبب شدة مكر اليهود، وكثرة مفاسدهم، وغدرهم الدائم (عرابي، 2006، الصفحات 243–244)، والثالث، هو الهيكل الذي يُروّج له بنو صهيون في وقتنا الحاضر، وهذا ما يدعو إليه الشاعر في هذا المقطع من قصيدته.

حسب رؤية بيهار، فإن الهيكل المزعوم عند الحركة الصهيونية سيهبط من الله هدية لليهود، وسيهبط معه القرى الفلسطينية التي دُمرت لتعود إلى الأرض وإلى الحياة مرة أخرى، ويعود اللاجئون الفلسطينيون إلى مدنهم وقراهم ومنازلهم التي هُجروا منها، وهذا يُظهر أن بيهار مع عودة اللاجئين، ومع أحقيتهم بأراضيهم وبيوتهم، ومع عودتهم تعود الأفراح والأعراس تُزهر في القرى المهجرة، وتعود الحياة مرة أخرى بعد أن سلبها الاحتلال، وترى الكهول وهم يسردون للأجيال الجديدة كيف احتلت فلسطين وكيف عادت مرة أخرى إلى أبنائها الشجعان. فيقول:

"الهيكل الثالث –الأخير– سيهبط من السماء في أحد الأيام، وكله من صنيع الله. وكذلك القرية، القرى الكثيرة هبطت من سماء الله مع سكانها الذين شاخوا كثيرًا، وبذا تتم نهاية شتاتهم الطويل على الأرض، بين مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ذوي الذكريات المغتاظة. وفي لحظة عودة الأصوات القديمة: ثمة نداء الاستيقاظ للصلاة ونداء الأمهات، أصوات الغناء في الحب والأعراس، وأصوات القصاصين الكهول ذوي الشوارب الكثّة، وبسماتهم المتسعة وهم يصفون خلال ألف ليلة ويوم كيف خلت البيوت وكيف عادت لتكون عامرة" (بيهار، 2016، صفحة 73).

يختم بيهار القصيدة بمشهد الآباء وهم يعرفون أبناءهم على القرى الفلسطينية من جبال نبو الموجودة في الأردن، وهي مشابهة لما حدث أيام سيدنا موسى (عليه السلام)، حيث جاء مع قومه –بني إسرائيل– ليريهم الأرض الموعودة، فطلب منهم دخولها، قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾[المائدة: 21]، لكن بني إسرائيل رفضوا دخولها؛ خوفًا من أهلها، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾[المائدة: 22]، بعد عصيانهم لأوامر الله –سبحانه وتعالى– حُرموا من دخول أرض فلسطين وفرض الله عليهم التيه جزاءً لهم، وهذا كما جاء في كتابنا الكريم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾[المائدة: 26]. يقول بيهار في نهاية القصيدة:

"في أثناء ذلك آباء كثيرون –مثل الله الواحد أيامذاك– يأخذون أبناءهم (كما حدث مع موسى نبي بني إسرائيل قبيل وفاته)، حيث يُرونهم البلاد الموعودة المزروعة بالقرى الخالية، وذلك من جبال نبو الشامخة الكثيرة التي تعلو حولها" (بيهار، 2016، صفحة 73).

يخلص الباحث من خلال دراسة القصيدة إلى أن بيهار وظف من ذاكرته بلدة لفتا المدمرة، مع ذكره لبعض المفردات الأخرى، التي تدل على أماكن مختلفة الدلالات، كقوله: القرى الوادعة، وبيوت لفتا، والمنحدر

الجبلي، والبيوت الخالية، والأرض، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وجبال نبو. وصنف الباحث هذه الأماكن حسب الدلالة في الجدول التالي:

جدول (3)

تصنيف الأماكن التي وردت في قصيدة "هذه القرى الخالية" حسب دلالتها

المكان الفلسطيني الرئيس	أماكن فلسطينية تتعلق بالمكان الرئيس	أماكن فلسطينية تحمل الألم بعد النكبة	فلسطين كافة	العالم	أماكن تحمل طابعًا يهوديًّا
لفتا	المنحدر الجبلي، بيوت لفتا	مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، البيوت الخالية	القرى الوادعة	الأرض	جبال نبو

إن القارئ لأعمال بيهار يرى أنه يحمل فكرًا مناهضًا للفكر الصهيوني، فهو يعترف بأحقية عودة اللاجئين إلى بلادهم وديارهم، ويرفض سياسة التهجير التي اتبعتها حكومة العصابات الصهيونية في النكبة وما بعدها، ويؤمن إيمانًا تامًّا بأن اللاجئين سيعودون يومًا ما، إضافة إلى فضح الجرائم التي قام الاحتلال بارتكابها، فهو يريد إقامة دولة يهودية، لكن ليس على حساب اللاجئين الفلسطينيين في مخيمات الشتات، مع ذكر بعض الإشارات الدينية والتاريخية التي سبق ذكرها في الدراسة.

وفي الحديث عن الشعر العبري، وجب التنويه إلى قصيدة عبرية، للشاعرة لئيا غولدبيرغ[1]، ففي قصيدتها "أشجار الزيتون"[2] تحدثت عن شجر الزيتون وقِدمه في الأرض الفلسطينية التي جاؤوا إليها من أوروبا، وفي الزيتون رمز للفلسطيني المتمسك بأرضه، فالزيتون راسخ في الأرض يأبى التفريط بها، وكذلك الفلسطيني،

[1] شاعرة وكاتبة وناقدة أدبية، وشاعرة تكتب للكبار وللأطفال ومحررة صحفية، من أشهر شعراء إسرائيل، ولدت عام 1911 م في روسيا، لحن قصائد لها وأصبحت تغنى في إسرائيل، وتوفيت عام 1970 م بسبب مرض السرطان.

[2] لقد اعتمد الباحث في دراسته على الترجمة العربية للقصيدة، وهي مكتوبة باللغة العبرية، وفيما يلي النص الأصلي للقصيدة:

עמדו בנסיון השרב
ובאו בסוד הסער
וכנצח ניצבו במורד
הגבעה, מול הכפר שחרב,
מכסיפים באורן הצונן...של הסהר
עמוד, מה גדושה השלווה
זאת אפוא השיבה הטובה
הקשבהקשב
למשב... הרוח
בנוף הזיתים
איזה צמיחה ענווה
הקשב,הקשב, למשב...
התשמע מה הם אומרים?
דברים שונים ופשוטים

فهو يضحي من أجل أرضه، وقِدم الزيتون في الأرض من قِدم الفلسطيني، فوجود الزيتون يزيد عن خمسة آلاف سنة منذ غرسها الكنعانيون في فلسطين، فالزيتون والفلسطيني أصل في الأرض لا فرع، وهما متجذران في الأرض لا ينفكان عنها، حيث يتعرض الزيتون في فلسطين لما يتعرض له الفلسطيني نفسه، فالاحتلال يعرف قيمة الزيتون وأصالته وعراقته، والدماء الفلسطينية التي تسري في فروع الزيتون، لذلك يشن حربا ضد الزيتون أيضًا، فهو يحاول تهويده لإظهاره من الإرث العبري، ويقوم باقتلاع آلاف الأشجار منه، وحرق الآلاف غيرها، إضافة إلى مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي المزروعة بالزيتون، وفرض قيود صعبة على الفلسطيني الذي يريد الوصول لأرضه ولزيتونه.

يعد الزيتون من الأشجار المقدسة في الدين الإسلامي، حيث أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾(التين: 1)، كما يرتبط بالفلسطيني ارتباطًا وثيقًا، وهو يمثل صمود الشعب الفلسطيني وكفاحه، واتخذ رمزًا من رموز الفلسطيني، حيث قال ياسر عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة: "جئت إليكم وأنا أحمل غصن زيتون في يدي، وفي اليد الأخرى أحمل بندقية الثائر، فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدي"، وقد كثر استخدامه في الشعر، وكان الشعراء يرمزون به للأرض والوطن والشعب والمقاومة، حيث قال محمود درويش في قصيدته "عن صمود" (درويش، د.ت، صفحة 26):

لو يذكر الزيتون غارسهُ

لصار الزيت دمعا!

تقول غولدبيرغ في قصيدتها:

صمدت في اختبار الطقس الخماسينيّ

وعرفوا اسرار العاصفة

وكأنها للأبد انتصبوا في سفح

الهضبة مقابل القرية الخربة

لونها فضي في الصنوبر البارد... الهلال

قف كم مفعم الهدوء

هذا هو المشيب الجيد

اصغ اصغ

لهبوب ... الريح

أتسمع ماذا يقول (الزيتون)؟

أمور مختلفة وبسيطة

يخلص الباحث في نهاية الفصل إلى وجود نقاط مشتركة بين القصيدتين، فقد تحدث راشد حسين في قصيدته عن مدينة يافا، حيث كانت مدينة متحضرة ومتطورة، يسودها الهدوء والنظام والحياة والزراعة والتجارة والعلم والثقافة، فهي مدينة مصدرة للبرتقال، وتكثر فيها دور العلوم، وكانت من أوائل المدن التي افتتحت مراكز لطباعة الصحف والمجلات، ثم تبدل حالها بعد الاحتلال الصهيوني، فعم فيها الفساد والدمار والخراب، وأصبح ليل الظلم لا يغادرها ليسمح للنهار بالحلول، وفي هذا تشابه كبير مع قرية لفتا التي وظفها ألموج بيهار في قصيدته، فقد كانت تعيش حياة هادئة مليئة بالسرور والغبطة، وتحولت إلى دمار بفعل النكبة، فأصبحت بيوتها فارغة، تشتاق لسكانها الأصليين، إن كان قد بقي بيوت فيها.

يلحظ القارئ للقصيدتين ملمحًا مهمًّا تكرر في يافا عند راشد حسين، وفي لفتا عند ألموج بيهار، إنه الحشيش والمخدرات، فقد انتشر الحشيش والمخدرات بعد حلول النكبة على فلسطين، وأصبحت يافا مليئة بمتعاطي الحشيش ومشتقاته، وكذلك لفتا، فقد أمست بعد طرد سكانها مكانا فارغا لا يدخله سوى مدمني الحشيش والمخدرات بعيدا عن أعين الحكومة، وهذه إشارة إلى نوع جديد من الحياة بدأ ينتشر في فلسطين مع قدوم الاحتلال، الذي جلب معه مظاهر الفسوق والمجون من أوروبا، ونشرها في المناطق الفلسطينية.

تتشابه النهاية عند الشاعرين، فهما يكتبان عن القضية نفسها وعن الموضوع ذاته، فعند راشد حسين، يختم قصيدته بالأمل بالعودة وانتهاء الجرح الفلسطيني العميق الذي ما زال ينزف منذ أكثر من خمسة وسبعين عامًا، فالشاعر يحلم بتحرير يافا وعودتها شابة كما كانت، تنعم بمظاهر الشباب والحضارة والعروبة، ولو انتقلت عند ألموج بيهار، تجده يختم قصيدته بحلم عودة اللاجئين الفلسطينيين، وانتهاء المأساة الفلسطينية، فهو يرفض سرقة الأرض وطرد السكان منها، ويقف ضد الفكر اليميني المتطرف، الذي لا يُلقي بالًا لمأساة الفلسطيني، فهو يؤيد التعايش بين اليهودي والفلسطيني دون أن يتعدى أحدهم على الآخر، وفي هذا اتفاق مع فكر عاموس كينان في الفصل السابق، فهما من أصحاب الفكر اليساري، القائم على مبدأ التعايش السلمي بين الطرفين، وضد الفكر اليميني، القائم على التطهير العرقي، والقتل والإجرام.

الخاتمة

نهج الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، حيث تناول نصوصًا نثرية وشعرية لأدباء فلسطينيين ويهود، وظفوا المكان في أعمالهم، وربطوا بين المكان وبين دلالات نفسية وإنسانية ووطنية، بحيث يوحي المكان بدلالته التي يحملها بمجرد رؤية اسمه، ووُصف المكان كما تناوله الأدباء في أعمالهم، وقورن بين صورته في الأعمال الأدبية التي اختيرت وبين صورته في الواقع، وصورته عند أدباء آخرين.

خلُص في نهاية الدراسة إلى أمور عدة، أهمها التفريق بين مصطلحات ثلاثة، وهي: المكان، والفضاء، والحيز، وخرج بمحاولة للتعريف بهذه المصطلحات مع التفريق بينها، ثم استعرض ذاكرة المكان في نماذج مختارة من الأدب الفلسطيني والأدب العبري المترجم، واستنتج من الدراسة ما يلي:

1. مر الأدب الفلسطيني بأربع مراحل خلال تطوره، المرحلة الأولى من بداية النهضة وحتى النكبة عام 1948م، ومن أبرز روادها: إسعاف النشاشيبي، وإبراهيم طوقان، ومطلق عبد الخالق، والثانية، من النكبة عام 1948م وحتى النكسة عام 1967م، ومن أبرز روادها: عبد الكريم الكرمي، وفدوى طوقان، وغسان كنفاني، والثالثة، من النكسة عام 1967م وحتى الانتفاضة الأولى عام 1987م واستمرت إلى الانتفاضة الثانية عام 2000م، ومن أبرز روادها: توفيق زياد، وعلي الخليلي، ومحمود درويش، والرابعة، من الانتفاضة الثانية عام 2000م وحتى اليوم، ومن أبرز روادها: مريد البرغوثي، وإبراهيم نصر الله.
2. تطور الأدب العبري إلى أن وصل ما هو عليه اليوم، ومر بمراحل أدت إلى نضوجه وتغيره، فقد مر بثلاث مراحل أساسية، الأولى، المرحلة الأوروبية (الهاسكالاه) وهي مرحلة إحياء التراث العبري متأثرًا بالأدب الأوروبي، ومن أبرز روادها: موشيه حاييم لوتساتو، وموشيه مندلسون، ويهودا ليف جوردون، والثانية، المرحلة الفلسطينية الطليعية، وهي الفترة التي امتدت من عام 1905 م مع الهجرات اليهودية إلى فلسطين إلى النكبة عام 1948 م، ومن أبرز روادها: حاييم نحمان بياليك، والثالثة، هي المرحلة

الإسرائيلية، والتي بدأت بعد النكبة عام 1948 م مع إعلان قيام دولة إسرائيل، ومن أبرز روادها: موشيه سميلانسكي، وشوفمان، شلومو تسيمح، حاييم هزاز، يزهار سميلانسكي.

3. وجود خلط كبير في استخدام المصطلحات الثلاثة الآتية: المكان، والفضاء، والحيز، فيستخدمها البعض مكان بعضها مما يوحي بأن معنى المصطلحات الثلاثة واحد، إلا أن هذا الاستخدام خاطئ، فهناك فرق في المصطلحات ولا يجوز الخلط بينها.
4. ارتباط المكان بعلاقات مهمة جدًّا مع باقي العناصر السردية في العمل الأدبي، مما يخلق تماسكًا داخليًّا، وحبكة جميلة تضفي جاذبية على العمل الأدبي، فهو يؤثر على كل العناصر الروائية الأخرى، ويترابط معها، كالزمان، والشخصيات، وغيرها من العناصر.
5. الذاكرة المكانية تشكل صورة من صور المقاومة أمام المحتل الصهيوني، الذي يسعى بشتى الطرق للتخلص من كل متعلقات الفلسطيني المادية والمعنوية، فهي تُبقي المكان حاضرًا في ذاكرة الفلسطينيين مهما طال الزمان وتبدلت الأجيال.
6. جعل مدينة القدس المكان الرئيس الذي تدور فيه الأحداث في رواية "برج اللقلق"، فالرواية وظفت الأهمية الدينية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للمدينة، وجعلتها مكانًا تدور فيه الأحداث بمختلف الأزمان، فقد مر عليها فترة الحكم العثماني وما عانته المدينة من مآسي في "السفر برلك"، ثم حكم الانتداب البريطاني، وما مرت به المدينة من أهوال ومظاهرات واحتجاجات ومقاومة، ثم أخيرًا فترة الاحتلال الصهيوني، وما تعانيه المدينة من احتلال وتهويد وسرقة وبطش، لكن القاسم المشترك بين هذه الفترات صمود المدينة أمامها، وعدم استسلامها.
7. لم تخل رواية "برج اللقلق" من التعرض لأسماء بعض المدن الفلسطينية الأخرى، مثل: بيت لحم، وأريحا، والخليل، وغزة، ونابلس، فقد حاولت توظيف المدن الفلسطينية في الذاكرة الجمعية، وتعرضت لذكر بعض الدول الأخرى، منها ما هو عربي، مثل: سوريا، والأردن، ومصر، وما صاحبها من حروب في محاولة استعادة فلسطين، والمشاعر العربية والقومية والوطنية التي كان تظهرها الشعوب العربية لهذه

الدول والوحدة، ومنها ما هو أجنبي، مثل: بريطانيا، وأمريكا، وفرنسا، وغيرها، وأثرها على القضية الفلسطينية ووقوفها مع المحتل الصهيوني.

8. المحاولة المستميتة من الاحتلال لتهويد المدن والقرى الفلسطينية بكل ما أوتي من قوة، فهو يحاول محو التاريخ الفلسطيني، والذاكرة الفلسطينية من الوجود؛ كي تسيطر الدعاية الصهيونية على الساحة الدولية ويكسب التعاطف الدولي اللازم لمساعدته بتثبيت الدولة الاحتلالية.

9. ارتباط بعض الأسماء والأماكن بدلالات شعبية ووطنية ودينية واجتماعية وإنسانية ونفسية، تؤثر على نظرة الإنسان للمكان، وتضفي إلى فكره ومشاعره معاني متقدمة، كلفظة المخيم، والعالم الغربي، وإسرائيل، وغيرها مما بيناه في الدراسة.

10. اختيار مدينة تل أبيب لتكون مكانًا رئيسًا في رواية "الطريق إلى عين حارود"، حيث يحدث فيها انقلاب عسكري وتعم حالة الفوضى العارمة، فيهرب البطل منها ليجد الخلاص في مكان آخر بعيدًا عن الحرب والقتل، وقد جاء الاختيار لها؛ لأنها مركز الحكومة الإسرائيلية والدوائر الحكومية والهيئات المهمة.

11. محاولة عاموس كينان إيجاد طريق للشراكة بين الفلسطينيين واليهود من خلال روايته وأبطالها، فقد عجزت الحرب على إيجاد حياة سلمية بين الطرفين، فلا يجد كينان غير الشراكة بين الطرفين؛ للعيش بسلام.

12. ذكر بعض الإشارات المستقبلية عند عاموس كينان، كتهجير الفلسطينيين، وطردهم من أراضيهم، وارتكاب المجازر بحقهم، وتهويد المكان الفلسطيني وإخفاء آثاره، وتحويله إلى مكان عبري، وحشد جميع اليهود من أنحاء العالم واستقطابهم إلى فلسطين، والسعي لتحقيق أسطورة إسرائيل الكبرى التي تمتد من النهر إلى النهر.

13. ظهور الفكر اليميني المتطرف الذي يسيطر على إسرائيل وقراراتها، ومدى العنصرية التي يظهرها تُجاه الفلسطينيين واليهود اليساريين الذين لا يؤمنون بالفكر اليميني، سواء أكان في الأقوال أم في الأفعال،

فكل ما يصدر من اليمين مستمد من التوراة وتعاليمها، حيث يسعى اليمين لإقامة إسرائيل الكبرى من نهر النيل في مصر إلى نهر الفرات في العراق، وبذل ما يمكن لقاء تحقيق هذه الأمنية.

14. التأكيد على المخطط الصهيوني الذي أُعد قبل النكبة بعشرات السنين، والذي كان الاحتلال يرسم ملامحه بالتعاون مع أمريكا والعالم الأوروبي، فالمحادثات التي كانت تتم بين زعماء الحركة الصهيونية ورؤساء الدول الغربية في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت ترسم الخطة للاستيلاء على فلسطين وإنشاء الوطن القومي الخرافي الذي يدعونه، مما نتج عنها بعد ذلك، اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور.

15. اتخاذ راشد حسين يافا رمزًا للنكبة الفلسطينية وما حل على فلسطين من مصائب، وكانت يافا مثالًا بسيطا على ما حدث، فهي من أجمل المدن الفلسطينية وأكثرها تطورًا وحضارة، فقد اشتهرت ببيارات البرتقال وتصديره للدول الأخرى، وعُرف عنها العلم والثقافة وانتشار الصحف والمجلات فيها، لكنها تحولت بعد النكبة لدمار وخراب، وانتشر فيها مدمنو الحشيش ومظاهر الفسق والمجون، وقد تطرق الشاعر إلى ذكر كل ما يتعلق بمدينة يافا، كالشوارع، والسماء، والقبور، والصخور.

16. اختيار ألموج بيهار لقرية "لفتا" مكانًا فلسطينيًّا وشاهدًا حيًّا على غدر الاحتلال وخططه الاستعمارية التي وجهت أنظارها نحو فلسطين وأنشبت أظافرها في جلد فلسطين وأبنائها، فبعد أن كانت لفتا قرية مأهولة بسكانها الهانئين، أصبحوا بين ليلة وضحاها قتلى وجرحى ولاجئين، وتحولت القرية من حياة الأمان والاطمئنان إلى الحرب والدمار والطمس.

17. الاعتراف بالمجازر التي ارتكبها الاحتلال بحق الفلسطينيين في النكبة، كما جاء في رواية "الطريق إلى عين حارود" لعاموس كينان، حيث تطرق للحديث عن بعض المجازر المرتكبة بحق الفلسطينيين، ومنها ما شارك فيه بطل الرواية.

18. الدمار الذي لحق بعدد كبير من المدن والقرى الفلسطينية إما بشكل كلي أو جزئي، ومنها ما أُزيل وأُنشئ مكانه مستعمرات يهودية.

19. اختلاف وصف المكان من أديب إلى آخر، فالكاتبة ديمة السمان اهتمت في وصف الدمار والخراب من ناحية عمرانية واهتمت كثيرًا بالحروب التي خاضها الفلسطينيون والعرب، أما الشاعر راشد حسين، فتطرق إلى جوانب أخرى، فتحدث عن دمار يافا ومظاهر العمران والقتل والتخريب، وتحدث من ناحية اقتصادية عن تصدير البرتقال التي تحولت لتصدير اللاجئين بعد النكبة، وتحدث عن الدمار الاجتماعي الذي حل في يافا كانتشار الحشيش والمخدرات.

20. توظيف الأحداث التاريخية والدينية بشكل يخدم العمل الأدبي، ويمس مشاعر المتلقي وعقله، كتوظيف بيهار لبعض الحقائق الدينية من التوراة، وذكره لحادثة بني إسرائيل مع سيدنا موسى (عليه السلام).

21. رفض السياسات الصهيونية القائمة على مبدأ التطهير العرقي للفلسطينيين، وهي مما يعد من جرائم الحرب التي ترتكبها الدولة في حق الطرف الآخر في حربها، ومما يجرّم عليه القانون الدولي وهيئة الأمم المتحدة، وممن يدعو إلى ذلك الكاتب اليهودي بيهار.

22. إيمان بعض اليهود بحقوق الفلسطينيين في أرضهم، والدعوة لعودتهم إليها، كما عند بيهار الذي دعا لوجوب عودة اللاجئين الفلسطينيين.

23. الاحتلال الصهيوني لفلسطين لن يدوم، وسينتهي يومًا ما، وستعود الأرض لأصحابها الحقيقيين، وهذا وعد في القرآن الكريم نؤمن به، وذكره بيهار في قصيدته، وتطرق إليه كينان في روايته حيث اشتملت على العديد من الإشارات المستقبلية التي تم الحديث عنها في عرض الدراسة.

24. تأثير المكان على نفسية الإنسان وتفكيره، ومشاعره ووجهة نظره، فالإنسان تختلف طباعه حسب البيئة التي يعيش فيها، وهذا ما لُمح من خلال الصراع القائم في نفس بيهار لكونه من أصول شرقية.

قائمة المصادر والمراجع

احمد، مرشد. (2005). *البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات. تم الاسترداد من https://arabicpdfs.com/

إخوان الصفا. (1405 هـ). *الرسائل* (الإصدار بدون، المجلد 2). طهران، إيران: مركز النشر. تم الاسترداد من https://books.almaaref.org/view.php?id=423

الأسطة، عادل. (2008). *أدب المقاومة* (الإصدار 2). دمشق: مؤسسة فلسطين الثقافية. تم الاسترداد من http://blogs.najah.edu/staff/adel-osta/article/article-35/file/00111.pdf

إسماعيل، عز الدين. (2013). *الأدب وفنونه* (الإصدار 8). القاهرة، مصر: دار الفكر العربي. تم الاسترداد من https://waqfeya.net/books/

الأغا، نبيل خالد. (1993). *مدائن فلسطين* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. تم الاسترداد من https://library.alkafeel.net/dic/print/page-book/90158/?show

امرؤ القيس. (2004). *ديوان امرئ القيس* (الإصدار 2). (عبد الرحمن المصطاوي، المحرر) بيروت، لبنان: دار المعرفة. تم الاسترداد من https://shamela.ws/book/27112

إيرليخ، فيكتور. (2000). *الشكلانية الروسية* (الإصدار 1). (الولي محمد، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي. تم الاسترداد من https://asjp.cerist.dz/en/downArticle/855/2/1/201320

باشلار، غاستون. (1984). *جماليات المكان* (الإصدار 2). (غالب هلسا، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://ketabpedia.com/

باشلار، غاستون. (1992). *جدلية الزمن* (الإصدار 3). (خليل أحمد خليل، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر. تم الاسترداد من https://library.alistiqlal.edu.ps/book-3960-1600.html

بحراوي، حسن. (1990). *بنية الشكل الروائي* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي. تم الاسترداد من https://tariq-library.com/

البحري، سالم بن سعيد. (26 نوفمبر, 2017). الشخصية والمكان بين التنافر والانتماء في الرواية العمانية والرواية التونسية. *الوطن*. تم الاسترداد من https://alwatan.om/details/228831

بدوي، عبد الرحمن. (1975). *مدخل جديد إلى الفلسفة* (الإصدار 1). الكويت: وكالة المطبوعات. تم الاسترداد من https://kon.lisanarb.com/2021/05/pdf_657.html

البرغوثي، مريد. (1986). *طال الشتات* (الإصدار بدون). بيروت، لبنان: دار الكلمة للنشر. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=323115

برنس، جيرالد. (2003). *قاموس السرديات* (الإصدار 1). (السيد إمام، المترجمون) القاهرة، مصر: ميريت للنشر والمعلومات. تم الاسترداد من https://ketabpedia.com/

بسيسو، معين. (2008). *الأعمال الشعرية الكاملة* (الإصدار بدون). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://library.palestine-studies.org/cgi-bin/koha/opac-shelfbrowse_itemnumber=17438&detail.pl?biblionumber=14510

بنيس، محمد. (2001). *الشعر العربي الحديث* (الإصدار 3، المجلد 3). الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال للنشر. تم الاسترداد من http://libsys.qattanfoundation.org:320/records/index/1/8895

بياجة، جان. (1985). *البنيوية* (الإصدار 4). (عارف منيمنة وآخر، المترجمون) بيروت، لبنان: دار منشورات عويدات. تم الاسترداد من https://tariq-library.com/

بيهار، ألموج. (2016). *أصوات أخرى من الشعر العبري* (الإصدار بدون). (فاروق مواسي، المترجمون) طولكرم، فلسطين: شركة ابن خلدون للطباعة. تم الاسترداد من https://huggingface.co/Abduuu/ArabReview-Sentiment/commit/

الترابين، سالم. (2020 م). *الذاكرة وأركيولوجيا المكان: الحفر على المكان في الشعر الفلسطيني الحديث*. الأردن: جامعة اليرموك. تم الاسترداد من https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb411088-search=books&410454

تلحمي، داود. (1972). *وائل زعيتر قديس آخر يموت في روما*. فلسطين: منظمة التحرير الفلسطينية – مركز أبحاث. تم الاسترداد من https://refugeeacademy.org/upload/library/

ابن تميمة، تقي الدين. (1422 هـ). *جامع المسائل* (الإصدار 1). (محمد عزيز شمس، المحرر) مكة المكرمة، السعودية: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://ar.islamway.net/book/23605/

جاموس، عبد الرحيم. (6 10, 2021). تم الاسترداد من موقع أمد: https://www.amad.ps/ar/post/424863

جبران، سالم. (2012). *الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان كلمات من القلب* (الإصدار بدون). حيفا، فلسطين: مكتبة كل شيء. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=118429

جروب، فالكون. (بلا تاريخ). *فلسطين الشهيدة لن تضيعا*. تم الاسترداد من الديوان: https://www.aldiwan.net/poem55388.html

الجميلي، حميد وأخرون. (2000). *موسوعة بيت الحكمة لأعلام العرب* (الإصدار 1، المجلد 1). بغداد، العراق: بيت الحكمة. تم الاسترداد من https://www.bibliotheque.nat.tn/BNT/doc/SYRACUSE/1444522/

جهيدة، ضيف. (2019). *المحرقة اليهودية بين الحقيقة التاريخية والدعاية السياسية*. المسيلة، الجزائر: جامعة محمد بوضياف. تم الاسترداد من https://archive.org/details/1933-1945_202212

جينيت، جيرار وأخرون. (1989). *نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير* (الإصدار 1). (ناجي مصطفى، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: دار الخطابي للطباعة والنشر. تم الاسترداد من https://kolalkotob.com/book2278.html

حامد، أنور. (2020 م). *استعادة المكان، استعادة الإنسان: قراءة في رواية "يافا تعد قهوة الصباح"*. الأردن: مجمع اللغة العربية الأردني. تم الاسترداد من https://pdf.alquds.uk/wp-content/uploads/2017/04/Alquds-2012-05-28.pdf

حسين، راشد. (1990). *الأعمال الشعرية* (الإصدار بدون). فلسطين: مركز إحياء التراث العربي. تم الاسترداد من http://www.almaktabah.com/catalog.

حسين، راشد. (1999). *ديوان راشد حسين* (الإصدار بدون). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.

حمران، جوهرة أسعد كامل. (2021 م). *الذات والآخر في الأدب العبري والعربي _ أبرهام يهوشع، وعلي المقري أنموذجا*. فلسطين: جامعة القدس المفتوحة. تم الاسترداد من https://osol.qou.edu/handle/194/2708

خسارة، ممدوح. (2003). *الجيتو* (المجلد 3). دمشق، سوريا: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. تم الاسترداد من https://www.palquest.org/ar/overallchronology-nid=9742&grid?biographies[]=9742

الخليلي، علي. (1983). *انتشار على باب المخيم* (الإصدار 1). عمان، الأردن: دار الكرمل للنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://lib.manaraa.com/books/

درويش، محمود. (1983). *ديوان محمود درويش* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://natourcenters.com/

درويش، محمود. (1987). *ديوان محمود درويش* (الإصدار 12). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://natourcenters.com/

درويش، محمود. (د.ت). *أوراق الزيتون* (الإصدار بدون). تم الاسترداد من https://foulabook.com/ar/book/

دليمي، فطيمة. (2014). *تقنيات السرد في رواية "القاهرة الصغيرة"* (الإصدار بدون). أم البواقي، الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي. تم الاسترداد من http://dspace.univ-oeb.dz:4000/items/90db45b0-5716-4f07-8cbb-175ffef3be4f/full

الدنان، براء وربيع، محمد. (2018). *قانون الدولة القومية اليهودية* (الإصدار بدون). (جمال زحالقة، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات. تم الاسترداد من https://caus.org.lb/israels-unwritten-constitution/

ديفيز . (1996). *المفهوم الحديث للزمان والمكان* (الإصدار بدون). (السيد عطا، المترجمون) القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. تم الاسترداد من https://www.shaqhaf.com/book2566.html

راحيل، نهلة. (11 7, 2021). الأدب العبري الحديث بين منشئه الأوروبي وبيئته الشرقية. *مدونة العرب*. تم الاسترداد من https://alarab.co.uk/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%B1%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D9%85%D9%86%D8%B4%D8%A6%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%88%D8%B1%D9%88%D8%A8%D9%8A-%D9%88%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D8%AA

راحيل، نهلة. (2022). *الرهان الصهيوني وتحطيم الأساطير* (الإصدار 1). عمان، الأردن: دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع. تم الاسترداد من http://opac.birehlibrary.ps/catalog/searchresult1.

رشيد، أمينة. (ب.ت). *تشظي الزمن في الرواية الحديث* (الإصدار بدون). كتب عربية. تم الاسترداد من https://www.library.pass.ps/book-16318-en.html

الرقب، شفيق محمد عبد الرحمن. (نيسان, 1993). قصيدة الأبيوردي في رثاء بيت المقدس. *مجلة جامعة مؤتة*، الصفحات 35-41. تم الاسترداد من https://search.mandumah.com/Record/1369

زعيتري، احمد. (2022). *اتفاقية سايكس بيكو 1916* (الإصدار بدون). الجلفة، الجزائر: جامعة زيان عاشور. تم الاسترداد من https://foulabook.com/ar/book/

زياد، توفيق. (1994). *كلمات مقاتلة* (الإصدار 2). عكا، فلسطين: مطبعة أبو رحمون. تم الاسترداد من https://library.alistiqlal.edu.ps/book-16318-13267.html

زياد، توفيق. (2012). *ديوان توفيق زياد* (الإصدار بدون). القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. تم الاسترداد من https://www.nli.org.il/ar/books/NNL_ALEPH990026086770205171/NLI

سعفان، كامل. (ب.ت). *اليهود من سراديب الجيتو إلى مقاصير الفاتيكان* (الإصدار بدون). مصر: دار الفضيلة. تم الاسترداد من https://library.palestine-studies.org/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=22309

سمار، كريمة. (2014). *تجليات المكان في رواية "أشباح المدينة المقتولة" لبشير مفتي* (الإصدار بدون). الجزائر، الجزائر: جامعة العربي بن مهدي. تم الاسترداد من https://dawa.center/file/1087

السمان، ديمة جمعة. (31 7, 2011). لقاء مع الأديبة والروائية الفلسطينية ديمة جمعة السمان. (وحيد تاجا، المحاور) مؤسسة فلسطين للثقافة. تم الاسترداد من https://web.archive.org/web/20210130180809/http://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?itemid=3537#.YBWgjnbP23A

السمان، ديمة. (2016). *رواية برج اللقلق* (الإصدار بدون). حيفا، فلسطين: مكتبة كل شيء. تم الاسترداد من https://www.bukja.net/archives/1039591

الشامي، رشاد. (2008). *بدايات الأدب العبري الحديث* (الإصدار 1). القاهرة، مصر: الدار الثقافية للنشر. تم الاسترداد من https://al-maktabeh.com/book-2638.html

الشامي، عيسى بن محمد. (ب. ت). *رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي* (الإصدار بدون). كنوز الأندلس. تم الاسترداد من https://www.uoanbar.edu.iq/HumanitarianEducationCollege/catalog/

شاهين، احمد. (2000). *موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين* (الإصدار 2، المجلد 2). غزة، فلسطين: المركز القومي للدراسات التوثيق. تم الاسترداد من https://www.palestine-studies.org/sites/default/files/

شاهين، احمد. (2000). *موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين* (الإصدار 2، المجلد 1). غزة، فلسطين: المركز القومي للدراسات والتوثيق. تم الاسترداد من https://archive.org/stream/159-2021/

شرغائي، نداف. (2000). *القدس الشرقية، الاستيطان اليهودي والأحوال المعيشية* (المجلد 2). (إلياس شوفاني، المترجمون) فلسطين: مجلة الدراسات الفلسطينية. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=220776

شعبان، خالد رجب. (2014). تطور قوى اليمين الصهيوني في إسرائيل وأثره على عملية التسوية السياسية مع الفلسطينيين. مصر: الجامعة المستنصرية – مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية. تم الاسترداد من https://www.iasj.net/iasj/search

طاليس، أرسطو. (1984). *الطبيعة* (الإصدار 2، المجلد 1). (عبد الرحمن بدوي، المحرر، و إسحاق بن حنين، المترجمون) القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. تم الاسترداد من https://tariq-library.com/

الطائي، حبيب بن أوس. (1942). *ديوان أبي تمام* (الإصدار بدون). (عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى، المحرر) القاهرة، مصر: مطبعة حجازي. تم الاسترداد من http://mohamedrabeea.net/library/pdf/c516ebc9-17d2-4088-8116-d9d2b6a7d224.pdf

طرابيشي، جورج. (2006). *معجم الفلاسفة* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر. تم الاسترداد من https://foulabook.com/ar/book/

طنوس، نبيل. (2020). المكان في شعر راشد حسين. *مجلة المجتمع*، الصفحات 365–394. تم الاسترداد من https://mail.diwanalarab.com

طه، نعمان محمد أمين. (1987). *السخرية في الأدب العربي* (المجلد 2). القاهرة، مصر: دار التوفيقية للطباعة. تم الاسترداد من https://blog.lisanarb.com/2020/07/pdf_427.html

طوقان، ابراهيم. (1955). *ديوان إبراهيم* (الإصدار 1). بيروت، لبنان. تم الاسترداد من https://www.scribd.com/document/49309944/

طوقان، فدوى. (1993). *الأعمال الشعرية الكاملة* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=31467

طوقان، فدوى. (1993). *الأعمال الشعرية الكاملة* (الإصدار 1). بيروت، بينان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=31467

عبد الخالق، مطلق. (1938). *ديوان الرحيل* (الإصدار بدون). عمان، الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://www.palestinapedia.ps/

عبد الكريم الكرمي. (1978). *ديوان أبي سلمى* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://library.palestine-studies.org/cgi-bin/koha/opac-detail.

عتيق، عمر. (2014). *موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث* (الإصدار 1، المجلد 6). باقة الغربية، فلسطين: مجمع القاسمي للغة العربية. تم الاسترداد من https://qsm.ac.il/docs/enc/enc6/encylopedi

عرابي، رجا عبد الحميد. (2006). *سفر التاريخ اليهودي* (الإصدار 2). دمشق، سوريا: الأوائل للنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://dawa.center/file/1917

بو عزة، محمد. (2010). *تحليل النص السردي* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم. تم الاسترداد من http://www.asp.com.lb/books/bookpage.aspx?id=183119-230757

علوش، سعيد. (1985). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني. تم الاسترداد من https://kolalkotob.com/book4186.html

العواودة، زين العابدين. (2014 م). *رضوى عاشور الروائية في سرديتها "الطنطورية"؛ ذاكرة اللجوء في المخيال الجمعي الفلسطيني: هوية الإنسان – هوية المكان سيميائية الخطاب السردي*. الجزائر: جامعة قاصدي مرباح. تم الاسترداد من https://ddl.ae/search/results/

عوف، ميرفت. (2018). تأثير صعود اليمين المتطرف الأوروبي على القضية الفلسطينية. المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة. تم الاسترداد من https://www.aljazeera.net/midan/reality/politics/2023/4/29.

عيسى، خليل. (2022 م). *ذاكرة "المكان" في أغاني "انتفاضة الحجارة" من منظور التاريخانية الجديدة*. الكويت: جامعة الكويت. تم الاسترداد من https://repository.najah.edu/bitstreams/dffff773-405c-4478-8796-3def647c7611/download

عيسى، عبد الخالق. (2013). *موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث* (الإصدار 1، المجلد 4). باقة الغربية، فلسطين: مجمع القاسمي للغة العربية. تم الاسترداد من https://mail.diwanalarab.com

غيث، سمر سليمان محمود. (2020–2021 م). *الذات، والآخر في أدب غسان كنفاني، وابرهام يهوشع.* فلسطين: جامعة القدس المفتوحة. تم الاسترداد من https://koha.birzeit.edu/cgi-bin/koha/opac-detail.pl?biblionumber=323103

فارساني، عباس. (2020 م). *المكان ودلالاته في الشعر الفلسطيني المقاوم: ديوان العصف المأكول نموذجا .* فلسطين: الجامعة الإسلامية. تم الاسترداد من https://iu-juic.com/index.php/juic/article/view/2377

فوريسون، روبير. (ب.ت). *أكذوبة المحرقة اليهودية* (الإصدار بدون). (أمير العمري، المترجمون) تم الاسترداد من https://www.thebookhome.com/product/index/24210/%D8%A7%D9%83%D8%B0%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%B1%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%87%D9%88%D8%AF%D9%8A%D8%A9?srsltid=AfmBOoqy8_LDAWHqxsB2lwUMK_oaBDg-lZMmbzxlPpUTbEjUvdm8I0wz

فوزي، حسين. (1961). *وعد بلفور* (الإصدار بدون). القاهرة، مصر: مكتبة اخترنا للطالب. تم الاسترداد من https://journal.carjj.org/index.php/AR/article/download/15/5/45

الفيروزبادي، مجد الدين. (2008). *معجم القاموس المحيط* (الإصدار بدون). القاهرة، مصر: دار الحديث. تم الاسترداد من https://www.lisanarb.com/2021/05/pdf_530.html

القاسم، سميح. (1973). *ديوان سميح القاسم* (الإصدار بدون). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://tariq-library.com/

القاسم، سميح. (1984). *تعليق على رواية الطريق إلى عين حارود*. (سميح القاسم، المحرر) فلسطين: مجلة الكرمل. تم الاسترداد من ID=25193&http://www.afkar.jo/View_Articlear.aspx?type=2

القاسم، سميح. (1991). *القصائد* (الإصدار 1، المجلد 1). كفر قرع، فلسطين: دار الهدى. تم الاسترداد من https://tariq-library.com/

قاسم، سيزا. (2004). *بناء الرواية* (الإصدار بدون). القاهرة، مصر: مهرجان القراءة للجميع. تم الاسترداد من https://www.library.pass.ps/book-20735-en.html

كيالي، عبد الوهاب. (1966). *المطامع الصهيونية التوسعية* (الإصدار بدون). بيروت، لبنان: منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث. تم الاسترداد من https://www.noor-book.com

كينان، عاموس. (1984). *الطريق إلى عين حارود*. (سميح القاسم، المحرر، و أنطوان شلحت، المترجمون) فلسطين: مجلة الكرمل. تم الاسترداد من https://www.nli.org.il/ar/books/NNL_ALEPH990026922380205171/NLI

لحميداني، حميد. (1991). *بنية النص السردي* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://tariq-library.com/

أبو مايلة، يوسف. (2002). *القرى المدمرة في فلسطين حتى عام 1952* (الإصدار بدون). القاهرة، مصر: الجمعية الجغرافية المصرية. تم الاسترداد من https://palqura.com/book/241/

مرتاض، عبد الملك. (1998). *في نظرية الرواية* (الإصدار بدون). الكويت: عالم المعرفة. تم الاسترداد من https://www.muslim-library.com

مرسي، لمياء. (19 نوفمبر, 2019). تاريخ الأدب العبري الحديث. *أقلام بلا هوية*. تم الاسترداد من http://aqlamblahoyah.blogspot.com/2018/11/blog-post.html

مسعود، جبران. (1992). معجم *الرائد* (الإصدار 7). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين. تم الاسترداد من https://waqfeya.net/book.php?bid=6116

مناصرة، حسين. (ب.ت). *مقاربات في السرد* (الإصدار 1). إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع. تم الاسترداد من https://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb211360-search=books&183276

مناصرة، عز الدين. (1999). *تعليقًا على ديوان راشد حسين* (الإصدار بدون). بيروت، لبنان: دار العودة. تم الاسترداد من https://www.quranicthought.com/wp-content/uploads/post_attachments/5d91c5e545ad6.pdf

ابن منظور، محمد. (ب. ت). معجم *لسان العرب* (الإصدار بدون، المجلد 1). القاهرة، مصر: دار المعارف. تم الاسترداد من https://hz.turathalanbiaa.com/public/622.pdf

موسى، ابراهيم. (2007 م). *ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. تم الاسترداد من https://fada.birzeit.edu/handle/20.500.11889/3323

النجار، حسين فوزي. (1961). *وعد بلفور* (الإصدار بدون). القاهرة، مصر: مكتبة اخترنا للطالب. تم الاسترداد من https://qudsinfo.com/book/

نجمي، حسن. (2000). *شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية* (الإصدار 1، المجلد 1). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي. تم الاسترداد من https://library.alkafeel.net/dic/print/page-book/79127/?show

نصر الله، إبراهيم. (1999). *بسم الأم والابن* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. تم الاسترداد من http://libserver.bethlehem.edu/webopac/records/1/101889.aspx

النعيمي، أحمد حمد. (2004). *إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة* (الإصدار 1). عمان، الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. تم الاسترداد من https://almoqtabas.com/ar/publications

النعيمي، فيصل غازي. (2009). *العلامة والرواية: دراسة في ثلاثية أرض السواد* (الإصدار 1). عمان، الأردن: دار مجدلاوي. تم الاسترداد من https://www.noor-book.com/

النيرب، سرين جمال. (2017). *تقنيات السرد في روايات غريب عسقلاني* (الإصدار بدون). غزة، فلسطين: جامعة الأزهر. تم الاسترداد من https://dspace.alquds.edu/bitstreams/e408ae77-c627-4192-a404-e76379d7d19d/download

وتد، عايدة. (2022 م). *المكان والإنسان في السيرة الذاتية الروائية الفلسطينية: "أم الزيّات" نموذجا لكتابة التاريخ الشفوي*. فلسطين: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. تم الاسترداد من https://www.palestine-studies.org/ar/node/1652682

وتد، ميسرة حسين. (2018 م). *صورة العربي في الرواية العبرية الإسرائيلية (2005–2016)*. فلسطين: جامعة الخليل. تم الاسترداد من https://www.palestine-studies.org/ar/node/1652682

يعقوب، أوس داود. (12 نيسان, 2011). *ديوان العرب*. تم الاسترداد من https://www.diwanalarab.com/%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86-%D8%AA%D8%AD%D8%AA%D9%81%D9%8A

المراجع الأجنبية:

Lwin, M. (2020). *A Study of the Use og Irony.* Burma: Yangon University of Foreign Languages Research Journal. Retrieved from https://www.yufl.edu.mm/published-research/

Mathieu, N. G. (1924). *Protocoles Des Sages D'israel.* Paris, France: Serge. Retrieved from https://shs.cairn.info/revue-revue-d-histoire-de-la-shoah1-2004-1-page-172?lang=fr

Michel, B. (1969). *Espace du Roman, Essais le roman.* Paris, France: Gallimard. Retrieved from https://www.academia.edu/70235350/LESPACE_DANS_LES_PI%C3%88CES_H%C3%94TEL_DES_DEUX_MONDES_D%C3%89RIC_EMMANUEL_SCHMITT_ET_HUIS_CLOS_DE_JEAN_PAUL_SARTRE

אלמוג בהר. (22 09, 2013). *אלמוג בהר*. (Mullenweg Matt. and Mike Little، المنتج) تم الاسترداد من WordPress: https://almogbehar.wordpress.com/2013/09/22.

דינה ציונית. (2003). תקציר על פועלו של הסופר העברי הישראלי ס. יזהר (סמינלסקי יזהר). *מטה המרכז לטכנולוגיה חינוכית*. تم الاسترداد من https://lib.cet.ac.il/pages/item.asp?item=7067

An-Najah National University

Faculty of Graduate Studies

MEMORY OF PLACE IN PALESTINIAN LITERATURE AND TRANSLATED HEBREW LITERATURE: SELECTED MODELS (DESCRIPTIVE ANALYTICAL STUDY)

By

Khaleel Kamal Shabello

Supervisor

Dr. Ganem Mez'el

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language & Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2024

MEMORY OF PLACE IN PALESTINIAN LITERATURE AND TRANSLATED HEBREW LITERATURE: SELECTED MODELS (DESCRIPTIVE ANALYTICAL STUDY)

By
Khaleel Kamal Shabello
Supervisor
Dr. Ganem Mez'el

Abstract

The present study focuses on the representation of Palestinian places in translated Palestinian and Hebrew literature. Its significance may be attributed to the multifaceted nature of its subject, which encompasses national, cultural, and other dimensions. Furthermore, there exists a notable interest in the exploration of place within literary works, coupled with a scarcity of prior research addressing this topic. Consequently, this study aims to illuminate this area and bring it to the attention of scholars and researchers.

The objective of this study is to elucidate the representation of place in Palestinian literature and translated Hebrew literature. It seeks to examine the concept of place and its associated memories within each literary tradition, as well as to analyze how these representations contribute to the formation of collective memory. Furthermore, the study aims to explore additional national, cultural, and humanitarian objectives.

The present study employed a descriptive and analytical approach to investigate spatial memory within two distinct literary traditions. This was achieved by examining spatial memory in two selected works from each tradition. The analysis involved a thorough examination of the literary texts, including the identification, description, and analysis of spatial memory, culminating in the presentation of the study's findings. The structure of the study comprises an introduction, four chapters, and a conclusion.

In the introduction, the researcher addressed the topic of literature and its relationship with humanity, while also exploring the Palestinian connection to their land and the struggle against the Zionist occupier.

The first chapter discusses Palestinian literature and translated Hebrew literature, examining their stages of development and evolution.

The second chapter addresses the concept of place and its transformations within the narrative. It explores the distinctions between place and space, categorizes different types of places, and examines their relationships with characters and other narrative elements.

The third chapter examines two prose works: one originating from Palestinian literature and the other derived from translated Hebrew literature.

The fourth chapter examines two poetic works: one originating from Palestinian literature and the other from translated Hebrew literature. This arrangement reflects the organization of the study's chapters.

The researcher subsequently presented a conclusion that encompassed the most significant findings and conclusions derived from the study.

Keywords: Memory of place, Palestinian literature, translated Hebrew literature, spatial memory, collective memory, representation of place, narrative analysis, national identity.